

جورج لايكوف ومارك جونسن

الاستعارات التي نحيا بها

ترجمة : عبد المجيد جحفة

دار توبقال للنشر



جورج لايكوف ومارك جونسن

الاستعارات التي نحيا بها

ترجمة : عبد المجيد جحفة

دار توبقال للنشر

يبحث هذا الكتاب في الكيفية التي يفهم بها الإنسان لغته وتجربته والعلائق الرابطة بينهما، أي كيف تفعل التجربة في اللغة وكيف تفعل اللغة في التجربة. وقد تم انتقاء آليات اشتغال التعابير الاستعارية لقياس هذا التفاعل ورصد بعض أجزائه.

إن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكاتنا وانفعالاتنا استعاري من حيث طبيعته. إذا كان الأمر كذلك، فان نسقنا التصوري يكون منبنيا جزئيا بواسطة الاستعارة. بهذا لن تكون الاستعارات تعابير مشتقة من «حقائق» أصلية، بل تكون هي نفسها عبارة عن «حقائق» بصدد الفكر البشري والنسق التصوري البشري.

الاستعمالات الوضعية، من اتجاهية وبنيوية وأنطولوجية، كما نجدها في هذا الكتاب، عبارة عن «حقائق» مثبتة في نسقنا التصوري، تجعلنا ندرك العالم من حولنا ونمارس فيه تجاربنا بشكل استعاري. إننا نجعل الناس في مقام مستفل ونجعل أنفسنا في مقام عال إذا كنا نراقبهم أو نحكم فيهم (وهذه استعارة اتجاهية توظف البعد الفضائي فوق ـ تحت)، ونبني نوعا من الوجود المادي للتضخم مثلا، فيكون عدوا نحاربه أو نتضايق منه (وهذه استعارة أنطولوجية)، كما نعامل الزمن كما لو كان مالا حقا، فنضيعه أو نستثمره أو نبذره (وهذه استعارة بنيوية إذ نسحب بنية الزمن على المال فنتحدث عن الأول بألفاظ الثاني).

ومن الافتراضات المركزية، في الكتاب الذي بين أيدينا، أننا نمارس حياتنا باستعارات مثل: الزمن مال، والجدال حرب، والحب سفر... إلخ. وما يجعلنا لا ننتبه إلى هذه الاستعارات هو الطريقة التي تعلمنا بها إدراك العالم الذي نعيش فيه. وهذه الطريقة ليست الوحيدة، فبإمكاننا أن ننظر إلى ما وراء «حقائق» ثقافتنا، كما يستدل على ذلك المؤلفان.

الثمن 76 درهما

تـم نشـر هـذا الكتاب ضـمـن سلسـلـة
الـمعرفـة اللسانية

الطبعة الأولى، 1996
الطبعة الثانية، 2009

الإيداع القانوني رقم : 2009 MO 1702
ردمك 978-9954-496-92-0

تقديم الترجمة

يدخل هذا الكتاب، بوجه عام، في إطار ما دعي بتيار الدلالة المعرفية (cognitive semantics) وقد أتاح هذا التيار بلورة أنموذج عام يحاول مقاربة كيفية حصول المعاني وما يحفزها، وذلك انطلاقا من خصوصيات الإدراك البشري وعوامل التجربة التي تفعل فيه. ويستند هذا التيار على مركزية البعد المعرفي عند البشر في قيام المعاني اللغوية (وتأويلها) والمعاني غير اللغوية على السواء؛ أي إسناد معنى إلى شيء ما، أي إدراكه، بحيث يصبح الإدراك مرادفا لإسناد المعنى وقيامه.

1 . بعض الروافد العامة

يبدو أن البعد المعرفي بالشكل الذي نجده عليه في هذا الكتاب مستلهم من عدة أفكار وطروحات معرفية حاولت تأسيس نظر مميز يحاول تفسير المعاني وحصولها. وسنسوق من هذه الطروحات ثلاثة: ما عرف بالقيد المعرفي (cognitive constraint) الذي اقترحه جاكندوف (1983) Jackendoff ، وما عرف بدلالة الأطر (Frame semantics) وهي نظرية وضع أسسها ودافع عنها فيلمور(1984) Filmore [1]، وأخيرا نظرية الفضاءات الذهنية التي قدمها فوكونيي (1985) Fauconnier

1.1. القيد المعرفي في نظرية الدلالة التصورية

يعتمد هذا القيد، الذي يحاول تفسير سيرورات الإدراك البشري وعلاقته بالسلوك اللغوي، على نظريات علم النفس التجريبي والمعرفي، وخصوصا ما توصلت إليه نظرية الإدراك الجشطلتية[2].

1) انظر في هذا الصدد:

Fillmore, C. (1984), "Frames and the Semantics of Understanding" Unpublished ms. University of California, Berkeley.

2) انظر في هذا الصدد الأعمال التالية:

Jackendoff,R. (1983) *Semantics and Cognition*, MIT Press, Cambridge, Mass.
Miller, G. and Johnson-Laird, P.N. (1976), *Language and Perception*, Harvard University Press, Cambridge.

ويتلخص هذا القيد في وجوب افتراض مستويات للتمثيل الذهني تتضافر فيها المعلومات القادمة من أجهزة بشرية أخرى، مثل جهاز البصر، والجهاز الحركي، والأداء غير اللغوي، وجهاز الشم، . . . إلخ. فبواسطة هذا الربط يستطيع البشر أن يتحدث عما يراه ويسمعه، . . . إلخ. وبدون افتراض هذه المستويات التمثيلية يستحيل أن نقول إننا نستعمل اللغة في وصف إحساساتنا وإدراكاتنا وتجاربنا المختلفة بوجه عام.

لهذا، يجب أن تكون البنية الدلالية عند البشر غنية وذات قوة تعبيرية، بحيث تُرَمِّز وتفك ترميز كل ما يمكن أن تعبر عنه اللغة، وتعالج كل ما تتطلبه التجربة البشرية مهما اختلفت طبيعته.

إن الأمر يرتبط، بالأساس، بكيفية معالجة البشر للعالم ورؤيتهم إياه وبنائهم لـ«حقيقته»، وذلك باعتبار هؤلاء البشر ذوات مدركة لها عدة وسائل (واللغة جزء منها فقط) للاتصال بمحيطها، وإدراكه، والتفاعل معه، والفعل فيه، والانفعال به. واللغة مهمة في ذلك لأنها تعبر عن هذا الاتصال وتخبرنا بتفاصيله.

2.1. دلالة الأطر والفهم الموحد

يمكن أن نموقع هذا الكتاب، جزئيا، انطلاقا مما عُرف بدلالة الأطر التي لخصها فيلمور في المقال المشار إليه في الهامش الثاني من هذا التقديم. إن النظرية الدلالية هي قبل كل شيء نظرية للمداخل المعجمية. فهي تسعى بوسائلها إلى تحديد طبيعة المعلومات الموجودة في هذه المداخل وكيفية وجودها وسببه. وتعتمد دلالة الأطر في تحديد هذه المداخل المعجمية (ورصد معانيها) على أطر عامة تتجانس فيها مختلف النماذج المعرفية البشرية. هذه الأطر تخصص فهما موحَّدا ومؤمثَلا (idealized) لمجال من مجالات التجربة. وهنا يبدو اقتراب هذا الطرح من القيد المعرفي أعلاه. ويدافع فيلمور عن ضرورة تحديد المعنى باعتبار هذا النوع من الفهم، وليس باعتبار شروط الصدق المعروفة في الأدبيات اللسانية المنطقية.

ومعلوم أن النظريات القائمة على شروط الصدق تعتمد على ثنائية الصدق والكذب في رصد المعنى. ويتم ذلك بواسطة ترسيمات لها الشكل التالي:

- (1) «الجملة ج صادقة إذذا ع» (إذذا = الشرط المزدوج إذا وفقط إذا).

ويشتق من هذه الترسيمة التخصيص الصحيح للمعنى. وبهذا نحصل على الشكل التالي:

Fodor, J.A. (1975), *The Language of Thought*, Harvard University Press, Cambridge =
Clark, H.H. and Chase, W.G. (1972), "On the process of comparing sentences against pictures", in: Cognitive Psychology 3.3, 472-517.

ـ (2) « ج تعني ع»

ومعنى ذلك أن الجملة ج تعني الماصدق الذي يقابلها، وهو ع. ويجب أن نلاحظ التساوي المادي بين معنى الجملة وما سميناه ع. وبهذا ستكون الجملة التالية: "الثلج أبيض" صادقة (وذات معنى) عن طريق المعاينة التالية:

ـ (3) « "الثلج أبيض" صادقة إذذا كان الثلج أبيض »

إلا أن شروط صدق "الثلج أبيض" هي نفسها شروط صدق أي جملة صادقة، ولتكن الجملة التالية: "العشب أخضر". وبهذا ستكون المعاينة التالية سليمة:

ـ (4) « "الثلج أبيض" صادقة إذذا العشب أخضر»

في مقابل المعاينة (5) التي تعتبر غير سليمة إذ تم إسناد شروط صدق كاذبة إلى جملة «الثلج أبيض":

ـ (5)* « "الثلج أبيض" صادقة إذذا العشب وردي »

نخلص إلى أنه يجب أن نسند، بحسب نظرية شروط الصدق، إلى كل الجمل الصادقة نفس الشرط الصادق التالي: «العشب أخضر»، وسنسند إلى كل الجمل الكاذبة نفس الشرط الكاذب التالي: «العشب وردي». إلا أنه لا تعني كل الجمل الصادقة نفس الشيء، ولا الجمل الكاذبة. وفوق هذا، فالجمل الكاذبة ماصدقياً تحمل بدورها معنى، وليس الجمل الصادقة فحسب.

بخلاف هذا، تعتمد دلالة الأطر على العلاقات الدلالية التي تربط بين الألفاظ داخل حقول دلالية. وتمثل هذه العلاقات حجر الزاوية في دفاع فيلمور عن الفهم الموحد. ويجب أن نلاحظ أن الأطر تغنينا عن شروط صدق ممكنة في عالم ممكن، كما وردت عند اللسانيين المناطقة[3]. فالإطار الموحد، ببنيته الداخلية التي تعكس مجالا معينا من التجربة، يصبح بمعنى معين "شروط صدق" داخلية على قيام المعنى، بل ووجوده.

3.1. الفضاءات الذهنية والمستوى المعرفي[4]

تقدم النظريات الدلالية "الشعبية" الصورة التالية عن حصول المعاني: هناك ألفاظ محملة بمعان، تتألف هذه الألفاظ مع بعضها فتعطي وحدات كبرى (مثل المركبات والجمل والنصوص). ويتم اشتقاق معاني هذه الوحدات الكبرى من التأليفات التي تمت بين الألفاظ. وعلى هذه المعاني أن تحترم في آخر الأمر شروط الصدق. وتتم هذه العملية بواسطة ما يسمى بقواعد التأويل التي تضم بنيات تأويلية مجردة إلى العبارات اللغوية، أي إلى تلك الوحدات الكبرى.

3) انظر على سبيل المثال بيري وباروايز (1983).

Barwise, J. and J. Perry (1983), *Situations and Attitudes*, MIT Press, Cambridge, Mass.

4) انظر: Fauconnier, G. (1985), *Mental Spaces*, MIT Press, Cambridge, Mass.

إلا أنه داخل هذا النظر، هناك فرق واضح بين الخصائص الدلالية التي تفيدها عبارة لغوية ما بمقتضى بنيتها (وهو ما يعرف في الأدبيات اللسانية بالمعنى النووي)، وبين الخصائص الذريعية (pragmatic properties) أو البلاغية التي تفيدها العبارة اللغوية انطلاقا من الاستعمال والسياق (وهو ما يعرف بالمعنى الهامشي)

وقد بين عمل فوكونيي (1985) أن الآليات المسؤولة عن بناء المعنى النووي هي نفسها التي تنتج المعنى الهامشي. إن عدة ألفاظ تحدد بصورة مباشرة بعض شروط استعمالها. وبهذا، فإن بنينة مجال معين من خلال مجال آخر تلعب دورا في إنتاج المعنى الحرفي والمعنى البلاغي على السواء. إن هذين المجالين، أو الفضاءين، المختلفين من حيث "محتواهما الموضوعي" قد يشتركان في خصائص رئيسية في مستوى معين من التمثيل الدلالي.

وقد اهتم فوكونيي بأحد المظاهر العامة في التنظيم الدلالي/الذريعي، وهذا المظهر هو بناء الفضاءات والمبادئ التي تربط بين الفضاءات. كما عالج كيفية بناء الفضاءات وكيفية تزايدها أو تبدلها أو انصهارها في بعضها البعض . . . إلخ.

ويمكن تلخيص مشروع فوكونيي على الشكل التالي: اللغة لا ترتبط رأسا بعالم حقيقي أو فيزيائي. إن بين اللغة والعالم الفيزيائي سيرورة بناء واسعة. وهذه السيرورة لا تعكس العبارات اللغوية التي تنشئها، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر الأوضاع فيه أهدافا للعبارات التي تنطبق عليها. هذا المستوى الوسيط (intermediate) يسميه فوكونيي المستوى المعرفي. وهذا المستوى يختلف عن المحتوى الموضوعي للعبارات، ويختلف عن بنيتها اللغوية. وهذا المستوى يُبنى. إنه يُبنى حين تُستعمل اللغة، بحيث يتم تحديده، في نفس الوقت، بواسطة الأشكال اللغوية التي نستخدمها في تركيب وإنتاج خطاب ما، وبواسطة مجموعة مرتبة من التلميحات الخارج ـ لغوية (extralinguistic) التي تدخل فيها عدة أشياء من قبيل الخلفيات والتنبؤات والتجليات الذريعية . . . إلخ.

بهذا المعنى، لا يكون للعبارات اللغوية معنى في ذاتها. فالعبارات لا تحمل محتوى قضويا، بل على عكس ذلك فقد نعتبر العبارات اللغوية "أوامر" (instructions) يتم تنفيذها بإزاء نوع معين من البناء الذهني في المستوى المعرفي.

إن الفضاءات الذهنية، باعتبارها طرحا معرفيا، تقوم بذلك الدور الذي تقوم به العوالم الممكنة في نظرية بيري وباروايز (1983) ذات النزعة المنطقية الموضوعية. فهذه الفضاءات، التي تحوي ذوات ذهنية، تتيح شروط نجاح قول معين إذ يتم تخصيص الاقتضاءات والتضمنات باعتبار هذه الفضاءات. وهذه الفضاءات ذات الطبيعة المعرفية تترابط داخل علاقات واسعة. وما تختلف فيه عن النظريات المسماة

موضوعية أنه لا يتم تأويلها باعتبارها شيئا موضوعيا ميتافيزيقيا محايدا. وفوق كل هذا، فالفضاءات الذهنية تمدنا بالأدوات التي يجب أن تتوافر في أي نموذج معرفي دون المرور من التحديدات ذات المنحى الموضوعي. ومن الوقائع التي يسوقها فوكونيي في تبرير ورود نموذج الفضاءات الذهنية ذلك الرصد الموحد الذي قدمه للكناية والاقتضاء والاستغلاق الإحالي اعتمادا على الفضاءات الذهنية وعلى بعض الروابط بين هذه الفضاءات وبعض الاستراتيجيات المعرفية.

2. المعرفة موضوعيا وتجريبيا

تبنت عدة نظريات دلالية البعد المعرفي البشري في بناء نماذجها. إلا أن المشكل هو أن ما عرف بالبعد المعرفي مصطلح ملتبس. فقد نعني به أي شيء له علاقة بالبشر، وقد ندخل فيه أي شيء، وقد نخرج منه أي شيء. ويمكن أن نلاحظ، باستقرائنا للنظريات الدلالية (وخصوصا أشهرها)، أن البعد المعرفي قد يقارَب موضوعيا، وقد يقارَب تجريبيا.

1.2. المعرفة في الطرح الموضوعي

الإنسان ذو ذهن. والذهن عنصر مشترك بين جميع البشر. إذن، يمكن أن نفترض أن الجانب المعرفي عند الإنسان هو ذلك العنصر الذهني باعتباره القاسم المشترك بين بني آدم. بهذا تكون اللغة، وهي عبارة عن رموز وعمليات خوارزمية تعالج هذه الرموز، لغة تعكس الفكر البشري، أي ما يقوم به من عمليات ذهنية. وتكون الرموز اللغوية تمثيلات داخلية لحقائق خارجية.

هذا هو الطرح الموضوعي العام بخصوص البعد المعرفي. إلا أنه داخل هذا الطرح نجد تيارين اثنين:

أ. النظرية الخوارزمية للعمليات الذهنية: كل العمليات الذهنية خوارزمية بالمعنى الرياضي. وهذه العمليات ما هي إلا معالجة صورية لرموز اعتباطية، بصرف النظر عن البنية الداخلية للرموز المستعملة أو معانيها.

ب. نظرية المعنى الرمزية: قد يكون للرموز الاعتباطية معنى، وذلك إذا افترضنا أنها ترتبط بأشياء في العالم، فتصبح علامات عليها. ولهذا العالم بنية مستقلة عن العمليات الذهنية عند البشر.

وقد اشتغل عدد من الباحثين في ظل هذا التصور الموضوعي للمعنى (وللمعرفة اللغوية بشكل عام)، وبحثوا في كثير من تفاصيله، فتمكن عدد منهم من الاستدلال على أن نظرية كهاته ليست نظرية كافية.

يسوق لايكوف (1988) [5]، اعتمادا على بوتنـام (1981) Putnam [6]، بعض تناقضـات هذا الطرح الموضـوعي. فهذا الطرح يُعـد طرحا شعبيـا لكونه يأتي بعُـدَّة رياضية ذات صيـاغة دقيقة. هـذه العدة الرياضية "تستغرق نفسهـا" في الدقة إلى درجـة أنه يمكن أن نبين أنها غير ملائمـة لما يُفترض أنها تُستعمل لوصفـه. وفي هذا وجـه للسخرية، فـالدقـة نفسها في العدة الرياضية المستعملة في تمرير المعـرفة الموضوعية يتم استعمالها في تبيان الارتباك الداخلي لهذه العدة.

ويمكن أن نلاحـظ في كتاب بوتنـام تراجعـاً عن الطرح الموضـوعي بصدد المعـرفة، الـذي دافع عنه في جزء من مقـاله المشهـور «معنى المعنى» (The Meaning of Meaning)، حيث اقترح نظرية للمـرجعية المباشرة. في هذا الكتـاب، ينتقد بوتنام أفكاره السـالفة حول المعنى والمرجع، ويخلص إلى أن كل الطـروحـات ذات النـزعـة الموضـوعيـة (أو "الـواقعيـة الميتافيـزيقية"، كما يسميهـا) تشكو من خلـل عدم الانسجام الـداخلي في رصدهـا للمعنى والمرجع.

وبعد سلسلة الانتقادات التي تعرض إليها الطـرح الموضوعي، تم اقتراح نظرية ذهنية تختلف عن النظريات الموضوعية المعيار، نظرية تركز على شيئين تم إغفالهما:

أ. دور الإنسان في تحديد التصورات الدالة،

ب. وقدرة الخيال البشري على خلق تصورات دالة.

وقـد شكلت هاتـان النقطتان انطـلاقـة لعدد من النظـريـات ذات النزعـة التجريبيـة بخصوص المعـرفة، على اعتبـار أنّ التنظير للعلاقة بين الـرموز اللغـوية والمتكلم، بـاعتباره كيانا مدركا له تجربة معينة مع محيطه، يجب أن يولي النقطتين بالغ الاهتمام.

2.2. المعرفة في الطرح التجريبي

قام الطرح ذو النزعة التجريبية بخصـوص المعرفة على عدد من الانتقادات الموجهة إلى الطـرح السـابق. والمؤلفان لايكـوف وجـونسن يتبنيـان في هـذا الكتاب التصـور التجـريبي للمعرفة. وقد استفادا من النقطتين أعلاه.

إن مـا يمكن أن يكون مقـاربة واعـدة في الـدلالة المعـرفية، بحسب جـونسن (1987) ولايكوف (1987)، هو البعد التجريبي في قيـام المعنى وفهمه عند البشر [7]. وما هو تجريبي

(5) Lakoff, G. (1988), "Cognitive semantics", in: Eco, U. and als. (eds), *Meaning and Mental Representations*, Indiana University Press, Bloomington

(6) Putnam, H. (1981), *Reason, Truth, and History*, Cambridge University Press, Cambridge.

(7) Johnson, M. (1987), *The Body in the Mind. The Bodily Basis of Reason and Imagination,*, University of Chicago Press, Chicago.
Lakoff, G. (1987), *Women, Fire, and Dangerous Things. What Categories Reveal About the Mind*, University of Chicago Press, Chicago.

يُستعمل هنا بمعناه الـواسع، بما في ذلك البعد الحسي ـ الحركي، والبعـد العاطفي، والبعد الاجتماعي، وتجارب أخـرى من هـذا القبيل متيسرة عند كل الكـائنـات البشريـة العاديـة. ويضاف إلى كل هذا القدرات الفطرية التي توجه التجربة وتجعلها ممكنة. ومفهوم التجربة لا يحيل، بالأساس، على التجـارب العرضية التي قد تحصل لنوع من الناس بعينـه. فالمقصود بالتجربة ذاك المظهر الذي نتوافر عليه جميعنـا باعتبارنا، بكل بساطة، كائنات بشرية تعيش على هذه الأرض في إطار مجتمع بشري. والتجربة ليست عنصرا ساكنا أو سالبا. إنها عنصر فاعل في "اشتغال" البشر وفعلهم في محيطيهم الطبيعي والاجتماعي/الثقـافي باعتبارهم جزءا جوهريا فيهما. وتكمن فاعلية التجـربة البشرية المشتركة (التي تحوي خصائص البشر، بما في ذلك امتلاك أجســاد وقدرات فطرية وطريقـةً في «الاشتغال» باعتبارهم جـزءا من عالم واقعي وحقيقي) في العمل على تحفيـز مـا هــو دال في الفكـر البشري. ومفهـوم التحفيـز لا يعني التحديد. فـالتجربة لا تحدد بشكل صارم التصورات البشرية وأشكـال التفكير. فالبنية التي تـلازم تجربتنـا هي التي تجعل الفهم التصـوري ممكنـا، كما تقيـد، في عـدة حالات، طبقة البنيات التصورية الممكنة لدى البشر.

3.2. بعض عناصر التعارض بين الطرحين

يمكن أن نلخص، بإيجاز، عناصر التعـارض بين الطرح الموضوعي والطـرح التجريبي على الشكل التالي:

أ. إذا كـان الطرح الموضـوعي ينظر إلى الفكـر البشري باعتبـاره محايدا، فإن الطـرح التجريبي ينظر إليه باعتباره يقتضي، بشكل أساسي وجوهري، نوع التجربة المبنِية التي تنتُج عن كون البشر يملكون أجسادا، ولهم قدرات حسية حركية فطرية، . . . إلخ.

ب. إذا كـان الطـرح الموضـوعـي ينظـر إلى المعنى انطـلاقـا من نظـريـة تـوافقيـة (correspondance theory) تضـم الـرموز إلى الأشيـاء الخارجيـة، فإن الطرح التجـريبي يعتبر المعنى مرتبطـا، بالأساس، بإسقـاط خيالي (imaginative projection) يستعمل آليـات مثل المقولَة والاستعارة والكناية، تتيح أن ينتقل البشر مما يقومون بتجربته بكيفية مبنية إلى نماذج معرفية مجردة.

ج. إذا كان الطرح الموضوعي ينظر إلى سيرورات الفكر باعتبارها معاجة لرموز مجردة عن طـريق عدد هـائل من الخوارزمـات المبنيَة بشكـل دقيق، فإن الطرح التجـريبي يشترط عددا قليلا من السيرورات المعرفية العامة التي يعطي تطبيقها على النماذج المعرفية المجردة ما يمكن تسميته "العقل" البشري.

ـ 3. «الاستعارات التي نحيا بها»

بعد هذه المقدمات المرتبطة بالإطار النظري العام الذي ينطلق منه المؤلفان في رصد آليات الاستعارة وأسسها، نود أن نتحدث عن هذا الكتاب بعينه

يبحث هذا الكتاب في الكيفية التي يفهم بها الإنسان لغته وتجربته والعلائق الرابطة بينهما، أي كيف تفعل التجربة في اللغة وكيف تفعل اللغة في التجربة. وقد تم انتقاء آليات اشتغال التعابير الاستعارية لقياس هذا التفاعل ورصد بعض أجزائه.

إن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكاتنا وانفعالاتنا استعاري من حيث طبيعته. وإذا كان الأمر كذلك، فإن نسقنا التصوري يكون مبنيًا جزئيا بواسطة الاستعارة وبهذا لن تكون الاستعارات تعابير مشتقة من «حقائق» أصلية، بل تكون هي نفسها عبارة عن «حقائق» بصدد الفكر البشري والنسق التصوري البشري.

فالاستعارات الوضعية، من اتجاهية وبنيوية وأنطولوجية، كما نجدها في هذا الكتاب، عبارة عن «حقائق» مثبتة في نسقنا التصوري، تجعلنا ندرك العالم من حولنا ونمارس فيه تجاربنا بشكل استعاري. إننا نجعل الناس في مقام مستفل ونجعل أنفسنا في مقام عال إذا كنا نراقبهم أو نتحكم فيهم (وهذه استعارة اتجاهية توظف البعد الفضائي فوق ـ تحت)، ونبني نوعا من الوجود المادي للتضخم مثلا، فيكون عدوا نحاربه أو نتضايق منه (وهذه استعارة أنطولوجية)، كما نعامل الزمن كما لو كان مالا حقا، فنضيعه أو نستثمره أو نبدره (وهذه استعارة بنيوية إذ نسحب بنية الزمن على المال فنتحدث عن الأول بألفاظ الثاني)

ومن الافتراضات المركزية، في الكتاب الذي بين أيدينا، أننا نمارس حياتنا باستعارات مثل: الزمن مال، والجدال حرب، والحب سفر إلخ. وما يجعلنا لا ننتبه إلى هذه الاستعارات هو الطريقة التي تعلمنا بها إدراك العالم الذي نعيش فيه. وهذه الطريقة ليست الوحيدة، فبإمكاننا أن ننظر إلى ما وراء «حقائق» ثقافتنا، كما يستدل على ذلك المؤلفان.

إن القدرة على فهم التجربة عن طريق الاستعارة تعد معنى في حد ذاتها وهي في ذلك مثل استخدام حاسة الرؤية أو حاسة اللمس في حصول بعض الإدراكات. وهذا يعني أننا لا ندرك مظاهر العالم ومكوناته، ولا نباشر التجربة إلا عن طريق بعض الاستعارات. فالاستعارات تلعب دورا يوازي، من حيث أهميته، ذلك الدور الذي تلعبه حواسنا في مباشرة إدراك العالم وممارسة تجربته.

إذا صح كل هذا، لن تكون الاستعارة مظهرا لغويا صرفا، بل تكون مظهرا ثقافيا عاما تتأثر به اللغة كما تتأثر به سائر المظاهر الأخرى مثل السلوكات والأنشطة التي نباشرها. وفي هذا الكتاب، تشكل اللغة مصدر الاستدلال على هذه الفرضية، كما يبرهن على أن ظاهرة الاستعارة يمكن أن تفسرً بشكل جيد عن طريق افتراض ترابطات تصورية

بين مجال تصوري وآخر. وبمقتضى هذا الافتراض يمكن أن نقول إن معاني جزء كبير من لغتنا اليومية تحتاج إلى هذا النوع من الترابطات.

4. عن الترجمة

كل ترجمة خيانة، كما يحلو للبعض أن يقول مستندا على نوع من الحس المشترك. ولعل في هذا القول بعضا من الصحة، بوجه من الوجوه. فالترجمة، في ما يبدو، خيانة من جهتين على الأقل: خيانة للمؤلِّف (رغم ترخيصه أو ترخيص ناشره بذلك)، وخيانة للغة المؤلَّف، أو للبنية الأولى. وربما خانت الترجمة من جهات أخرى.

أما الخيانة الأولى فتكمن في دخول المترجِم في مشروع المؤلِّف. فالعمل ليس من إنتاجه وليس من مجهوده على أية حال (باستثناء مجهود الترجمة رغم ضناه). وبرغم وجود أعراف معلومة في المجال، فقد يمتعض المؤلِّف من ترجمة لمؤلَّفه لا يستسيغها. فهو مسؤول عن هذه الترجمة مسؤولية تضاهي مسؤوليته عن الأصل. ومن هنا العلاقة المتوترة أحيانا بين المؤلف والمترجِم.

وأما الخيانة الثانية فما يمكن أن يوضحها هو هذا الكتاب المترجم نفسه، خصوصا في بعض أجزائه المرتبطة بالتصورات الثقافية الخاصة ودورها في خلق الاستعارات. ومعلوم أن اختلاف التصورات بين الثقافات، وتنوع التجارب الخاصة، يؤديان -من جهة خلق الاستعارات- إلى استعارات مختلفة وخاصة. وإذا كان المؤلفان يبنيان طرحهما على البعد المعرفي من زاويته التجريبية في تفسير الاستعارات وجعلها دالة ضمن نظرية عامة للمعرفة، فإن الاختلاف الخاص في هذا البعد بين العشائر اللغوية يؤدي حتما إلى اختلاف في التصورات بصدد "الحقيقة" التي تبنى في اللغة، وبالتالي إلى اختلاف في الاستعارات التي تبنيها العشائر اللغوية انطلاقا من تجاربها الخاصة. إلا أن ذلك ليس يعني عدم وجود بعد تجريبي بشري تعبر عنه اللغة، ويعبر عنه السلوك البشري (وتعبر عنه الاستعارة باعتبارها من اللغة ومن السلوك البشري العام في التفكير والتصرف). إن الأمر، بعبارة أخرى، لا يطرح بخصوص الاستعارات الوضعية إذ إنها ليست مبنية على اختلاف اللغات. ولعل الدليل على ذلك إمكان ترجمتنا لكل المعطيات الواردة في هذا النوع من الاستعارات إلى اللغة العربية. المشكل قد يطرح في الاستعارات غير الوضعية، أو ما سماه المؤلفان الاستعارات الخيالية أو المبدَعة. هنا قد تخلق العشيرة اللغوية بعض استعاراتها الخاصة، وقد يبني كل متكلم استعاراته الخاصة (8).

إن هذا الكتاب الذي يبين قصور النظريات ذات النزعة الموضوعية في رصد أسس بناء الاستعارات، نظرا إلى إغفالها للبعد البشري التجريبي المرتبط بشكل وثيق بمحيطنا

8) انظر الفصلين 21 و22 من هذا الكتاب، ومناقشة المؤلفين لما سمياه بالاستعارة الكيماوية، وهي استعارة خاصة.

الفيزيائي والثقافي، يعتبر ردا ضمنيا على من يقول بإمكان الترجمة إمكانا ناجحا ومطلقا. فإذا كانت مسألة الترجمة تمثل برهانا من البراهين الأساسية لصالح الاستدلال على وجود كليات دلالية، فإن هذا البرهان يجب أخذه ضمن بعده الكلي[9]. وبالفعل، فإن من الشروط المقيدة لبناء نظرية كافية شرط الكلية. ولكي نرصد إمكان الترجمة بين اللغات، فإنه ينبغي أن نعترف بأن المادة الخام التي تشكل البنيات الدلالية المتاح استعمالها في اللغات يجب أن تكون كلية. فإذا كانت جملة ما في لغة ما قابلة لأن تترجَم حرفيا إلى لغة أخرى، فإنه يجب أن تكون الجملتان تشتركان في بنيتها الدلالية وإن كانتا تنتميان إلى لغتين مختلفتين. إلا أن هذا لا يعني أنه من الضروري أن نفترض أنه بإمكان أي لغة أن تعبر عن أي معنى.

وبعد، فإذا كانت الترجمة خيانة للأصل، فإننا نسعى فعلا إلى خيانة هذا الأصل والاستفادة منه قدر المستطاع (أليس الخائن مستفيدا بشكل من الأشكال؟). يكمن وجه الخيانة/ الاستفادة، كما نتصوره، في محاولة تأسيس تعامل جديد مع عدد كبير من المشاكل والقضايا الدلالية في اللغة العربية، وعلى رأسها البناءات المجازية[10]. فقد ظلت دراسة هذه البناءات رهينة مقاربات بلاغية مدرسية يرددها الجميع دون عمق أو طرح للأسئلة المناسبة بصدد الأسس الممكنة والمقنعة في قيام التعبير المجازي وخصوصيته.

إن ما نريده، بالفعل، هو خيانة المعطيات الأنجليزية الكثيرة التي ينبني عليها الاستدلال في أصل هذا الكتاب، فتضع "مخوناتنا" في اللغة العربية وباللغة العربية. وعلى كل حال، ففي الخيانة، بعيدا عن الوازع الأخلاقي، شيء من الشجاعة.

لم تكن هذه الترجمة لتستقيم وتأخذ الشكل الذي هي عليه لولا مساعدة عدد من الأساتذة والزملاء. أشكر للأخ محمد غاليم متابعته لشطر مهم من أطوار هذه الترجمة. وقد اقترح بعض المقابلات العربية، كما راجع جزءا من المخطوط المترجم. أشكر للأخ عبد اللطيف شوطا مناقشاته وتشجيعاته. أشكر للأستاذ محمد سبيلا تشجيعه إياي على نشر هذا العمل. وأشكر لعدد من الزملاء تشجيعهم وإنصاتهم، وأخص منهم مصطفى المسناوي، ومصطفى الجباري، وعلي القرشي، ومصطفى النحال، وعبد الفتاح لكرد.

عبد المجيد جحفة

يوليوز، 1992

9) انظر، مثلا، جاكندوف (1983)، ص. 11.

10) من الأعمال العصرية في رصد البناء المجازي في العربية كتاب محمد غاليم "**التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم**"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987. فقد قدم الكتاب، بالإضافة إلى مناقشة مشاكل لغوية ونظرية مرتبطة بالتوليد الدلالي، عددا من القواعد التي تجعل البناء المجازي جزءا نسقيا من الملكة اللغوية.

تصدير

نشأ هـذا الكتـاب من اهتمام مشـترك بـالكيفيـة التي يفهم بهـا البشر لغتـهم وتجربتهـم. حين التقينـا أول مرة، في بداية 1979، ألفينا أنفسنا نقتسم اقتنـاعا مفاده أن نظريات المعنى السائدة في الفلسفة واللسـانيات الغربيتين غير كافية، وأن مصطلح «المعنى» في هذا التقليد لا علاقة له بما يبدو للبشر «دالا» في حياتهم

إن ما جمعنا هو الاهتمام المشترك بالاستعـارة فقد لاحظ مارك جونسن Mark Johnson أن جل التصورات الفلسفيـة التقليدية لا تسند إلى الاستعـارة سوى دور صغير، أو لا تسند إليها أي دور، في فهم العالم وفهم أنفسنا. وقد كان جورج لايكوف George Lakoff كشف براهين لغوية تبين أن الاستعارة منتشرة في اللغـة والفكر اليوميين، وهي براهين لا توافق أي نظرية أنجلوأمريكية حول المعنـى، سواء في اللسانيات أو الفلسفة. فقد اعتُبرت الاستعارة، في كلا الحقلين، مسألة هـامشية. وقد كنا نحدس أن الأمـر يرتبطُ، بعكس ذلك، بمسألة مركزية قد تكون مفتاحا لتفسير كاف للفهم.

وبعد زمن قليل على لقائنـا، قررنا الاشتراك في ما كنا نحسبـه مقالا قصيرا يقدم بعض البراهين اللغـوية التي تـؤكد قصـور نظريـات المعنى الحديثة. وخـلال أسبوع، اكتشفنـا أن بعض اقتراحـات اللسـانيـات والفلسفـة المعـاصرتين، التي يسلم بها التقليـد الغـربي منـذ الإغريق، تعوق عملنا ولو بطرحها الأسئلـة نفسها التي نود الانكباب عليها. لم يكن الأمر يتعلق بتـوسيع أوترقيع نظـرية حـول المعنى موجـودة قبلا، بل بمـراجعة بعض المصـادرات المركزية في التقليد الفلسفي الغربي. وذلك يعني، بـالخصوص، رفض إمكان وجود الصدق الموضوعي المطلق، وإغفال الاقتراحات المرتبطة بهذه المصادرات إنه يعني أيضا اعتماد رصد بديل تلعب فيـه التجربة والفهم، وليس الصدق الموضـوعي، دورا مركزيا. وقـد استنبطنا، أثناء عملنا، بعض عناصر مقاربة تجريبية، ليس لأسئلة اللغة والصدق والفهم فحسب، بل للمشاكل المرتبطة بأن يكون لتجربتنا اليومية مدلولا.

بيركلي، كاليفورنيا
فاتح يوليوز 1979

شكــــر

الأفكار لا تأتي من فراغ. فالأفكار العامة المبثوثة في هذا الكتاب عبارة عن تأليف بين تقاليد فكرية متنوعة، كما أنها تُظهر تأثير أساتذتنا وزملائنا وطلبتنا وأصدقائنا علينا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن عددا من الأفكار النوعية مصدرها مناقشاتنا مع مئات من الناس البسطاء. ولا يمكن أن نشكر بشكل كاف كل التقاليد [والتيارات] وكل الناس الذين نحن مدينون لهم. وكل ما يمكن أن نقوم به هو تعداد بعضهم، ونتمنى أن يتعرف الآخرون على أنفسهم، وليعلموا أننا نقدرهم. والأشخاص التالية أسماؤهم كانوا من مصادر أفكارنا العامة.

لقد ساهم جون روبرت روس John Robert Ross وتيد كوهن Ted Cohen بشكل واسع في تشكيل أفكارنا حول اللسانيات والفلسفة والحياة

وقد أتاح لنا بيتر بيكر Peter Becker وشارلوت ليند Charlotte Linde إدراك الكيفية التي يبدع بها الناس الانسجام في حياتهم

كما أتاحت أعمال شارل فيلمور Charles Fillmore حول دلالة الأطر (Frame Semantics)، وأفكار تيري وينوغراد Terry Winograd حول أنسقة تمثيل المعرفة، وتصور روجي شانك Roger Schank بخصوص الخطوط (scripts) لجورج لايكوف أن يستنبط أسس تصور اللسانيات الجشطلتية، التي عممناها في إطار الجشطلتات التجريبية.

لقد كانت أعمال لودويغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgeinstein وإليانور روش Eleanor Rosch ولطفي زاده Lotfi Zadeh وجوزيف غوغين Joseph Goguen ، مصدرا لآرائنا بخصوص التشابهات الأسرية، ونظرية الطراز في قيام المقولة وغموضها.

إن ملاحظاتنا حول إمكان عكس اللغة النسقَ التصوري لمتكلميها مشتقة، في جزء كبير منها، من عمل إدوار سابير Edward Sapir وبنجامان لي وورف Benjamin Lee Whorf، وآخرين عملوا في إطار هذا التقليد.

أفكارنا حول العلاقة بين الاستعارة والطقوس مشتقة من التقليد الأنتروبولوجي لبرونيسلاو مالينوفسكي Bronislaw Malinowski، وكلود ليفي ستراوس Claude Lévi-Strauss، وفيكتور تورنر Victor Turner، وكليفورد غيرتز Clifford Geertz ، وآخرين.

أما أفكارنا حول كيفية تشكل نسقنا التصوري من خلال "اشتغالنا" المستمر والناجح في المحيط الفيزيائي والثقافي فآتية، في جزء منها، من ذلك التقليد الذي يبحث في التطور الإنساني الذي بدأه جان بياجيJean Piaget ، وآتية في جزء آخر من علم النفس البيئي الذي نشأ من أعمال ج. ج. غبسن J. J Gibson، وجيمس جنكنس James Jenkins ، كما قدمتها بالخصوص أعمال روبرت شاوRobert Shaw ومايكل تورفي Michael Turvey وآخرين.

إن الآراء التي سقناها بصدد طبيعة العلوم الإنسانية كانت متأثرة بشكل دال ببول ريكور Paul Ricoeur، وروبرت ماكّولي Robert McCauley، والتقليد الأوربي في الفلسفة.

لقد مكنتنا ساندرا مكموريس جونس Sandra Mc Morris Johnson، وجيمس ميلشبرت James Melchert، ونيوتن وهيلين هاريس Newton and Helen Harrison، ودافيد وإيلي أنتن David and Ellie Antin، من الاطلاع على الناظم المشترك في التجربة الجمالية وفي مظاهر أخرى من تجربتنا.

وقد نبهنا دون أربتبلت Don Arbitblit إلى التركيز على الاقتضاءات السياسية والاقتصادية لأفكارنا.

أما ي. س. شيانغ Y. C. Chiang فجعلنا نرى العلاقة بين التجربة الجسدية والطرق التي ننظر بها إلى أنفسنا وإلى العالم.

كما أننا مدينون كثيرا لتلك الصيغ المعاصرة التي رسمت بتفصيل الأفكار التي قاومناها. فنحن نحترم أعمال رتشارد مونتغيو Richard Montague، وسول كريبك Saul Kripke ، ودافيد ليويس David Lewis، ودونالد دافدسن Donald Davidson وآخرين، باعتبارها مساهمات مهمة في التصورات الغربية التقليدية بصدد المعنى والصدق. فتوضيحهم لهذه التصورات الفلسفية التقليدية هو الذي سمح لنا بأن نعرف أين نختلف معها وأين نحافظ على عناصر منها.

نستند ادعاءاتنا، بشكل واسع، على برهان الأمثلة اللغوية. والكثير من هذه الأمثلة، إن لم نقل أغلبها، نتجت عن مناقشات مع زملاء وطلبة وأصدقاء. فقد أمدنا جون روبرت روس، بالخصوص، بسيل موثوق به من الأمثلة عبر اتصالاته الهاتفية أو بطاقته البريدية. كما أن معظم أمثلة الفصلين السادس عشر والسابع عشر مصدرُها كلوديا بروغمان Claudia Brugman، التي أسدت لنا، إضافة إلى ذلك، عونا ثمينا في تحضير المخطوط. أمثلةٌ أخرى قدمها دون أربتبلت، وجورج برغمان George Bergman، ودوايت بولنغر Dwight Bolinger، وآن بوركين Ann Borkin ، وماتيو برونسن Matthew Bronson، وكليفورد هيل Clifford Hill، ود. ك. هولغايت الثالث D. K. Houlgate III، ودينس لوف Denis Love، وتوم ماندل Tom Mandel، وجون مانلي- بوسر John Manley-Buser، ومونيكا مكولي Monica Macauley. وجيمس د. مكاولي James D. McCawley، وويليام نيجي William Nagy، وريزا

نيليبورReza Nilipor ، وجوف نـانبرغ Geoff Nunberg، ومارغـريت رادر Margaret Rader، ومايكل ريدي Michael Reddy، ورون سيليهان Ron Silliman، وإيف سويتسر Eve Sweets-er، ومارتا توبي Marta Tobey، وكارل زيمر Karl Zimmer كما قدم لنا أمثلةً طلبة متعددون من جامعة كاليفورنيا ببيركلي، ومن معهد الفن بسان فرانسيسكو

لقد نشأ العديد من الأفكار الشخصية الموجـودة في هذا العمل من مناقشات عمومية. ونود أن نشكر ، بالخصوص، جاي أطلس Jay Atlas، وبول بينـاسيراف Paul Bennaceraf، وبيستي برانت Besty Brandt، وديك بـروكـس Dick Brooks، وإيف كـلارك Eve Clark، وهِرب كلارك Herb Clerk، وج. و. كوفهان J. W Coffman، وألان داندس Alan Dundes، وغلين إركسن Glen Erickson، وشارل فيلمور، وجيمس غيسر James Geiser ، ولين هِنتن Leanne Hinton ، وبول كاي Paul Kay، وليس لامبورت Les Lamport، ودافيد ليويس، وجورج مكلير George McClure، وجورج رند George Rand ، وجون سـورل John Searle، ودون سلوبين don Slobin، وستيف تاينر Steve Tainer ، ولين تـلمي Len Talmy، وإليزابيت وارين Elisabeth Warren، وبوب ويلنسكي Bob Wilensky .

1 . هَذه التّصَوُّرَات الّتي نَحْيَا بِهَا

تمثل الاستعارة بالنسبة لعدد كبير من الناس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي. إنها تتعلق، في نظرهم، بالاستعمالات اللغوية غير العادية وليس بالاستعمالات العادية. وعلاوة على ذلك، يعتقد الناس أن الاستعارة خاصية لغوية تنصب على الألفاظ وليس على التفكير أو الأنشطة. ولهذا يظن أغلب الناس أنه بالإمكان الاستغناء عن الاستعارة دون جهد كبير. وعلى العكس من ذلك، فقد انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا. إن النسق التصوري العادي الذي يسيّر تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس.

إن التصورات التي تتحكم في تفكيرنا ليست ذات طبيعة ثقافية صرف. فهي تتحكم، أيضا، في سلوكاتنا اليومية البسيطة بكل تفاصيلها. فتصوراتنا تُبَنْيِنُ ما ندركه وتبنين الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، كما تبنين كيفية ارتباطنا بالناس. وبهذا يلعب نسقنا التصوري دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية. وإذا كان صحيحا أن نسقنا التصوري، في جزء كبير منه، ذو طبيعة استعارية فإن كيفية تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا في كل يوم. . . ، ترتبط بشكل وثيق بالاستعارة.

إن نسقنا التصوري ليس من الأشياء التي نعيها بشكل عادي. إننا، في جل التفاصيل التي نسلكها في حياتنا اليومية، نفكر ونتحرك بطريقة أقل أو أكثر آلية، وذلك تبعا لمسارات سلوكية ليس من السهل القبض عليها. وتشكل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها. وبما أن التواصل مؤسس على نفس النسق التصوري الذي نستعمله في تفكيرنا وفي أنشطتنا، فإن اللغة تعد مصدرا مهما للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق.

لقد وجدنا، باعتمادنا على معطيات لغوية بالأساس، أن الجزء الأكبر من نسقنا التصوري العادي استعاري من حيث طبيعته. وبذلك عثرنا على طريقة للشروع في التحديد المفصّل للاستعارات التي تبنين طريقتنا في الإدراك والتفكير والسلوك. ولإعطاء فكرة عما

يجعل من تصور ما تصورا استعاريا، ويـُـبَنْيِن بذلك نشاطا من أنشطتنا اليومية، نبدأ بتصور الجدال وبالاستعارة التصورية الجدال حرب يعكس هذه الاستعارة في لغتنا اليومية عدد كبير من التعابير(1):

الجدال حرب:

- (1) لا يمكن أن تدافع عن إدعاءاتك
- (2) لقد هاجم كل نقط القوة في استدلالي
- (3) أصابت انتقاداته الهدف
- (4) لقد هدمت حجته
- (5) لم أنتصر عليه يوما في جدال
- (6) إذا اتخذت هذه الاستراتيجية ستُباد
- (7) إنه يُسقط جميع براهيني

من المهم أن نرى أننا لسنا نتحدث فقط عن الجدال بعبارات الحرب، إننا قد ننتصر أو ننهزم فعلا. فالشخص الذي نتجادل معه يعتبر غريما فنحن نهاجم مواقفه وندافع عن موقفنا، ونربح أو نخسر المواقع، ونضع استراتيجيات ونشغّلها. وإذا وُجدنا في موقف ضعيف فإننا قد نتركه ونختار خطا دفاعيا جديدا. إن جزءا كبيرا من الأشياء التي نقوم بها حين الجدال يُبَنْيِنُها تصور الحرب. وإذا كنا لا نجد معركة مادية [حقيقية] فإننا نجد معركة كلامية، وبنية الجدال (الهجوم، الدفاع، الهجوم المضاد. . . إلخ) تعكس ذلك. بهذا المعنى تكون استعارة الجدال حرب من بين الاستعارات الموجودة في ثقافتنا والتي نحيا بها: إنها تبنين الأنشطة التي ننجزها عندما نتجادل.

[ولكن]، هَبْ أن هناك ثقافة لا يُنظَر فيها إلى الجدال بعبارات الحرب، حيث لا يوجد منتصر أو مهزوم، وحيث لا نجد معنى للهجوم أو الدفاع أو ربح المواقع أو خسرانها. لنتخيل ثقافة ينظر فيها إلى الجدال باعتباره رقصة، والمتجادلان ممثلان هدفهما إنجاز الرقصة ببراعة وأناقة. ففي ثقافة كهذه سينظر الناس إلى الجدالات بشكل مخالف، وستختلف تجربة الجدال لديهم، وسيتحدثون عنها بشكل مخالف [للشكل الموجود في ثقافتنا]. إلا أنه لن نعتبر نحن، من جهتنا، نشاطهم هذا جدالا: إنهم يقومون، بالنسبة

1) تقتضي الترجمة وضع المعطيات باللغة الأصل ثم وضع المقابل الحرفي باللغة العربية ثم وضع ترجمة لمعناها ونظرا إلى كون هذه المعطيات تنصب على المعنى بشكل عام ولا تهتم بالمكونات الداخلية للجملة فقد آثرت إعطاء ترجمة المعنى المراد، وقد تأتى لنا ذلك بسهولة نظرا إلى كون الاستعارة التي يورد المؤلفان معطيات لها استعارة موجودة أيضا في اللغة العربية. ولعل العثور على الأمثلة العربية بهذه السهولة يعد برهانا إضافيا على ورود الاستعارة التي يفترضها المؤلفان. (هـ. م).

إلينا، بشيء مختلف وسيبدو لنا، بدون شك، غريبا أن نسمي ذلك «جدالا». وربما كانت الطريقة المحايدة التي نصف بها هذا الاختلاف الحاصل بين ثقافتهم وثقافتنا أن نقول إن نشاطنا الجدالي تبنيه ألفاظ المعركة وأن نشاطهم الجدالي تبنيه ألفاظ الرقص.

هذا مثال عما نعنيه حين نقول إن تصورا استعاريا، وليكن الجدال حرب، يبنين (على الأقل جزئيا) ما نفعله حين نتجادل، ويبنين الطريقة التي نفهم بها ما نفعله. يكمن جوهر الاستعارة في كونها تتيح فهم شيء ما (وتجربته [أو معاناته]) انطلاقا من شيء آخر. إلا أن هذا لا يعني أن الجدال يعد فرعا من الحرب، فالجدالات والحروب نوعان من الأشياء مختلفان (الخطاب الكلامي والصراع المسلح)، والأنشطة المنجزة [في كليهما] تختلف. فالجدال، في جزء منه، مُبنينٌ ومفهوم ومنجز ومعلق عليه انطلاقا من الحرب. [فأن نقول] إن التصور مبنين استعاريا فمعنى ذلك أن الأنشطة واللغة مبنيَان استعاريا

وعلاوة على هذا، فالأمر يرتبط بطريقتنا العادية في الجدال وفي الحديث عن الجدال فطريقتنا العادية جدا في الحديث عن الهجوم على موقف ما هي استعمال ألفاظ «الهجوم على الموقف (الموقع)» وتقتضي الطريقة التي نواضعنا عليها في الحديث عن الجدالات استعارةً لا نكاد نشعر بها. فالاستعارة ليست فقط في الألفاظ التي نستعملها، إنها حاضرة كذلك في تصور الجدال نفسه إن لغة الجدال ليست شعرية أو تخييلية أو بلاغية، إنها حرفية. فنحن نتحدث بهذا الشكل عن الجدالات لأننا نتصورها كذلك، ونتصرف باعتبار الطريقة التي نتصور بها الأشياء

أهم افتراض قدمناه لحد الآن، إذن، هو أن الاستعارة لا ترتبط باللغة أو بالألفاظ، بل على عكس ذلك، فسيرورات الفكر البشري هي التي تعد استعارية في جزء كبير منها. وهذا ما نعنيه حين نقول إن النسق التصوري البشري مبنين ومحدد استعاريا. فالاستعارات في اللغة ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النسق التصوري لكل منا. إذن كلما تحدثنا، في هذا الكتاب، عن استعارات مثل الجدال حرب، يجب أن نفهم أن الاستعارة تعني التصور الاستعاري

2 . نَسَقِيةُ التّصَوُّرَات الاسْتعَارِيَة

نسلك الجدالات عادة خطاطات: هناك أشياء نفعلها أو لا نفعلها، بصورة طبيعية، عندما نتجادل فكوننا نتصور الجدال جزئيا باعتباره معركة يؤثر بطريقة نسقية على الشكل الذي تتخذه جدالاتنا، وعلى الكيفية التي نتحدث بها عما نفعله عندما نتجادل. ولأن التصور الاستعاري تصور نسقي فإن اللغة التي نستعملها للتعبير عن هذا المظهر الذي يُسنَد للتصور هي نفسها نسقية.

رأينا، عندما تحدثنا عن استعارة الجدال حرب، أن عبارات تنتمي إلى معجم الحرب، مثل: مهاجمة موقف، غير حصين، استراتيجية، خط هجومي جديد، انتصار، ربح المسافة . . إلخ، تُستعمل بصورة نسقية للحديث عن الجدال عن طريق المعركة وليس من قبيل الصدفة أن تعني هذه العبارة ما تعنيه عندما يتم استخدامها للحديث عن الجدالات. إنّ جزءا كبيرا من الشبكة التصورية التي تقابل فكرة المعركة ينطبق على فكرة الجدال، واللغة تتبع [ذلك]. وبما أن العبارات الاستعارية في لغتنا ترتبط بالتصورات الاستعارية بكيفية نسقية، فإننا سنستغل العبارات اللغوية الاستعارية لدراسة طبيعة التصورات الاستعارية قصد الوصول إلى فهم الطبيعة الاستعارية لسلوكاتنا.

ولكي نفهم كيف أن اشتغال العبارات الاستعارية في اللغة اليومية بإمكانه أن يفيدنا بصدد الطبيعة الاستعارية للتصورات التي تبنين سلوكاتنا اليومية فإننا سنفحص التصور الاستعاري التالي: الزمن مال، وتحققه الأمثلة التالية:

- (1) إنك تجعلني أضيّع وقتي
- (2) هذه العملية ستجعلك تربح ساعات وساعات
- (3) ليس لدي وقت أمنحك إياه
- (4) كيف تدبر رصيدك الزمني؟
- (5) كلفني إصلاح هذه العجلة ساعة كاملة

- (6) لقد أخذ مني وقتا كبيرا
- (7) ليس لدي وقت أخسره
- (8) لم يتبق وقت كثير
- (9) عليك أن توفر وقتك
- (10) اترك بعض الوقت جانباً لتتمكن من مزاولة كرة الطاولة
- (11) وهل كان الأمر جديرا بأن ترصد له وقتك؟
- (12) إن وقته ليس ملكه
- (13) إنك لا تستغل وقتك
- (14) أضعت وقتا طويلا عندما لازمت الفراش
- (15) أشكر لك الوقت الذي منحتني إياه

إن الزمن، في ثقافتنا، عبارة عن بضاعة ذات قيمة. فهو مورد محدود من حيث كمه، نستعمله لتحقيق مآربنا فالكيفية التي تطور بها مفهوم العمل داخل الثقافة الغربية الحديثة، حيث عادة ما يربط بالزمن الذي يتطلبه (وهذا الزمن محسوب بدقة)، تفسر كيف أنه أصبح من المألوف أداء الأجور للناس عن الساعة أو الأسبوع أو السنة. ففي ثقافتنا يتجلى [التصور الاستعاري] الزمن مال بطرق مختلفة: في التسعيرات التلفونية، وأجور الساعات، وتسديد الدين الذي ندين به لمؤسسة ما «فنأخذ وقتنا الكافي». هذه الممارسات جديدة نسبيا في تاريخ الجنس البشري، ولا توجد في جميع الثقافات. فقد ظهرت داخل المجتمعات المصنعة الحديثة، وهي تبنين، بشكل عميق، سلوكاتنا اليومية الأساسية. فلكوننا نتصرف كما لو كان الزمن شيئا نفيسا وموردا محدودا، وكما لو كان مالا، فإننا نتصور الزمن بهذه الطريقة. وبهذا نفهم الزمن ونعيشه باعتباره شيئا يُستهلك ويُصرف ويُقاس ويُستثمر بصورة جيدة أو سيئة، ويتم توفيره أو تضييعه.

إذن، فالتصورات التالية: الزمن مال، والزمن مورد محدود، والزمن بضاعة ثمينة، تعد تصوّرات استعارية، وهي كذلك طالما أننا نستخدم في تجربتنا اليومية المال والموارد المحدودة والبضائع في تصورنا للزمن. وهذه الطريقة ليست ضرورية لتصوّر الزمن عند الكائنات البشرية إنها [فقط] ملائمة لثقافتنا. وهناك ثقافات لا يتم تصور الزمن فيها بهذه الطريقة. نشكل التصورات الاستعارية: الزمن مال، والزمن مورد محدود، والزمن بضاعة ثمينة، نسقا واحدا مؤسسا على التفريع المقولي(1)، لأن المال يعد في مجتمعنا موردا محدودا، والموارد المحدودة [بدورها] بضائع ثمينة. إن علاقات التفريع المقولي هاته تخصص

1) يقابل مصطلح التفريع المقولي المصطلح الأجنبي subcategorization ، وقد تم استعماله قياسا على القواعد التفريعية الموجودة في النحو التوليدي إذ نجد مقولة نحوية كبرى تفرع إلى مقولات نحوية فرعية، ولا يمكن لتلك المقولة الكبرى أن تصح إذا لم تستوف ما تُفرع إليه من مقولات فرعية. (هـ. م).

العلاقات المستلزمة بين الاستعارات: فاستعارة الزمن مال تستلزم الزمن مورد محدود التي تستلزم الزمن بضاعة ثمينة.

لقد تبنينا مبدئيا استعمال التصور الاستعاري الأكثر تحديدا، وهو الزمن مال، لتخصيص النسق ككل. ونجد أن بعض العبارات التي مثلنا بها لاستعارة الزمن مال تحيل بصورة خاصة على المال (استثمر، وفر، أحسن التدبير، كلف)، وبعضها يحيل على الموارد المحدودة (تمتع بـ، التوفر على ما يكفي)، وبعضها الآخر يحيل على البضائع الثمينة (ملك، أعطى، أضاع، شكرا على منحنا). هذا مثال عن الطريقة التي يمكن أن تخصص بها الاستلزامات الاستعارية نسقا منسجما من التصورات الاستعارية، وكذلك نسقا منسجماً من العبارات الاستعارية التي تقابل هذه التصورات.

3 . النسقية الاستعارية: الإظهار والإخفاء

إن النسقية نفسها التي تسمح لنا بالقبض على مظهر من مظاهر تصور ما عن طريق تصور آخر (أي القبض على مظهر الجدال بواسطة المعركة) ستخفي، لا محالة، مظاهر أخرى في هذا التصور. ويمكن لتصور استعاري معين، بإتاحته تبئير مظهر واحد لتصور معين (مثل المظاهر الحربية في الجدال)، أن يمنعنا من تبئير مظاهر أخرى في هذا التصورلا تلائم هذه الاستعارة. فمثلا، خلال جدال حاد، حين نهاجم موقف خصمنا وندافع عن موقف آخر، قد لا نلحظ مظاهر التعاون الموجودة في الجدال. وبالفعل، فإن الشخص الذي يجادلنا يمكن أن نعتبره متبرعا علينا بوقته، الذي يعد بضاعة ثمينة، وأنه يجهد نفسه من أجل فهمنا وإفهامنا. إلا أنه حين ننشغل بالمظاهر العدوانية للجدال لا ننتبه إلى هذه المظاهر.

ويمكن أن نجد في ما سماه مايكل ريدي Michael Reddy استعارة المجرى (conduit metaphor) حالة أدق بصدد الطريقة التي يمكن لتصور معين أن يخفي بواسطتها مظهرا معينا من تجربتنا. لقد لاحظ ريدي أن الطريقة التي نتحدث بها عن اللغة نبنينها الاستعارة المركبة التالية:

الأفكار (أو المعاني) أشياء

التعابير اللغوية أوعية

التواصل إرسال

فالمتكلم يضع أفكارا (أشياء) داخل كلمات (أوعية) ويرسلها (عبر مجرى) إلى مستمع يُخرج الأفكار/ الأشياء من كلماتها / أوعيتها. ويوثق ريدي ما سبق بما يزيد عن مئة تعبير، يقدر أنه يمثل على الأقل 70% من التعابير التي تستعمل للحديث عن اللغة. ونورد هنا بعض الأمثلة:

الجملة معنى تاما في السياق الذي قيلت فيه: قضى شخص ليلة عند أصدقاء له ونزل في الصباح لتناول فطوره، كانت مائدة الفطور معدة لأربعة مدعوين، وعليها ثلاثة كؤوس عصير ليمون وكأس عصير تفاح. هنا تتوضح عبارة «مقعد عصير التفاح»، [وانسحاب هذه العبارة على ذلك المقعد] يصبح أمرا بديهيا في الصباح التالي حيث لا يوجد عصير تفاح على المائدة: فالمقعد أصبح معروفا عن طريق هذه التسمية.

وبالإضافة إلى الجمل التي ليست لها دلالة خارج السياق، هناك حالات قد تفيد فيها جملة أشياء مختلفة بالنسبة لأشخاص مختلفين. لننظر إلى الجملة التالية:

ـ (15) نحتاج إلى مصادر جديدة للطاقة

إن ما تفيده هذه الجملة، بالنسبة للمدير العام لشركة «شيل» النفطية، يختلف كثيرا عما تعنيه بالنسبة لرئيس منظمة «أصدقاء الأرض». فالدلالة لا توجد بصورة مباشرة في الجملة: إنها غير مستقلة، بالنسبة للكثيرين، عن الذي تلفظ بجملة أو سمعها، وعن قناعاته الاجتماعية والسياسية. إن استعارة المجرى لا تتطابق مع الحالات التي تستلزم السياق لتحديد ما إذا كانت الجملة تفيد شيئا، وإذا كانت لها دلالة فعلا لا نعرف بأية دلالة يتعلق الأمر.

تدل هذه الأمثلة على أن التصورات الاستعارية التي فحصناها لا تمدنا سوى بفهم جزئي لما هو التواصل، وما هو الجدال، وما هو الزمن. وهي، بهذا، تخفي مظاهر أخرى لهذه التصورات. إنه من المهم أن نفهم أن البنينة الاستعارية التي نتحدث عنها هنا جزئية وليست كلية. ولو كانت كلية لكان تصور ما تصورا آخر عوض أن يكون متضمَّنا، فقط، في تصور آخر. فالزمن، مثلا، ليس مالا حقا. إذا أعطيتَ بعضا من وقتك في محاولة فعل شيء ما ولم تحصل على نتيجة، فإنه لا يمكنك استرداد وقتك، ولا توجد أبناك يودع فيها الوقت، وبإمكاني أن أمنحك الكثير من وقتي، إلا أنه ليس بإمكانك إرجاع وقتي إلي، وإن أعطيتني نفس الكمية من الوقت. إن التصور الاستعاري، إذن، دائما غير كاف جزئيا.

وقد نوسع، من جهة أخرى، التصورات الاستعارية فنخرج عن مجال طرق التفكير والتعبير الحرفية. وهنا نجد أنفسنا في المجال الذي نسميه الفكر واللغة المجازيين أو الشعريين أو الملونين أو التخييليين. فإذا كانت الأفكار أشياء فإنه بالإمكان أن «نلبسها ألوانا زاهية»، أو «نلاعبها»، أو «نرتبها بصورة واضحة وجميلة». إلخ. وبهذا فإننا عندما نقول إن تصورا ما قد بُنْيِنَ بواسطة استعارة، فإننا نعني أنه مبنين جزئيا، وأنه بالإمكان توسيعه من نواح معينة وليس من نواح أخرى.

4 . الاسْتعـارَات الاتجّاهيّة

فحصنا، لحد الآن، ما يمكن أن نسميه بالاستعارات البنيوية، ومفادها أن يُبَنْيَن تصور ما استعاريا بواسطة تصور آخر. إلا أن هناك مفهوما استعاريا من نوع آخر. وهذا المفهوم لا يبنيَن فيه تصور ما عن طريق تصور آخر، ولكنه على عكس ذلك ينظم نسقا كاملا من التصورات المتعالقة. وسنسمي هذا النوع بالاستعارات الاتجاهية (orientational metaphors) إذ إن أغلبها يرتبط بالاتجاه الفضائي: عال ـ مستفل، داخل ـ خارج، أمام ـ وراء، فوق ـ تحت، عميق ـ سطحي، مركزي ـ هامشي. وتنبع هذه الاتجاهات الفضائية من كون أجسادنا لها هذا الشكل الذي هي عليه، وكونها تشتغل بهذا الشكل الذي تشتغل به في محيطنا الفيزيائي. وهذه الاستعارات الاتجاهية تعطي للتصورات توجها فضائيا، كما في التصور التالي: السعادة فوق[1]. فكون تصور السعادة موجها إلى أعلى هو الذي يبرر وجود تعابير من قبيل: «أحس أنني في القمة اليوم».

إن استعارات اتجاهية كهذه ليست اعتباطية، وتوجد مرتكزاتها في تجربتنا الفيزيائية والثقافية. ورغم أن التقابلات الثنائية بين فوق وتحت، أو بين داخل وخارج... إلخ، لها طبيعة فيزيائية فإن الاستعارات الاتجاهية التي تنبني عليها قد تختلف من ثقافة إلى أخرى. ففي بعض الثقافات، مثلا، يوجد المستقبل أمامنا، في حين أنه في ثقافات أخرى يوجد خلفنا. وسنأخذ أمثلة للاستعارات المرتبطة بالتفضية (spatialization)[2] تحت ـ فوق من الدراسة المفصلة التي أعدها وليام نيغي (1974) William Nagy [3]. وفي كل حالة سنعطي تفسيرا وجيزا حول كيفية نشوء كل تصور استعاري من تجربتنا الفيزيائية والثقافية، مع العلم أننا نريد أن تكون إشاراتنا هاته واعدة وواضحة وليس نهائية.

1) سأستعمل بعض التعابير الغريبة من قبيل «السعادة فوق» أو «الشقاء تحت» في مقابل up وdown وهذه التعابير يجب أن تؤخذ في تقنيتها فقط رغم أنها ليست مقبولة في العربية. (هـ. م)

2) التفضية مشتقة صرفيا من فضاء، ومعناها أن يسري تصور فضائي على شيء ليس فضاء، فالسعادة ليست فضاء فيزيائيا، ولكننا نعرف أن للسعادة قمة مثل الجبل وهو فضاء، وذلك لكونها خضعت للتفضية (هـ. م).

3) هذه الدراسة عبارة عن أطروحة قدمها وليام نيغي في جامعة سان دييغو بكاليفورنيا سنة 1974 لنيل درجة الدكتوراه، وعنوانها: «النماذج المجازية والحشو في المعجم» (هـ. م)

ـ 1 ـ السعادة فوق، والشقاء تحت:

ـ (1) إنني في قمة السعادة
ـ (2) لقد رفع من معنوياتي
ـ (3) سقطت معنوياتي
ـ (4) التفكير فيها يرميني في هاوية
ـ (5) أحس وكأنني أهوي
ـ (6) إنه في الحضيض هذه الأيام
ـ (7) إنني منهار
ـ (8) لقد سقطت في ما لا تحمد عقباه
ـ (9) إنه يغوص في الشقاء

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: ترتبط وضعية السقوط بالشقاء والانهيار، وترتبط وضعية الانتصاب بحالة عاطفية إيجابية

2 ـ الوعي فوق، واللاوعي تحت:

ـ (10) قُـــمْ!
ـ (11) انهض من نومك
ـ (12) إنه يغط في نوم عميق
ـ (13) لقد سقط من التعب
ـ (14) إنه تحت ضغط حالة نفسية سيئة
ـ (15) سقط في غيبوبة عميقة
ـ (16) إنه ينهض باكرا في الصباح

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: ينام الإنسان وأغلب الثدييات الأخرى في وضعية تمدد، ويقوم حين يكون مستيقظا.

3 ـ الصحة والحياة فوق، والمرض والموت تحت:

ـ (17) إنه في قمة العافية وأوجها
ـ (18) قام من بين الأموات
ـ (19) لقد هوى من المرض
ـ (20) صحته في تدهور مستمر
ـ (21) سقط ميتا

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: يجبرنا المرض الخطير على التمدد الفيزيائي، وحين نموت نكون فيزيائيا في وضع تحتي.

4 ـ الهيمنة والقوة فوق، والخضوع والضعف تحت:

- (22) إنه يمارس سلطته عليه
- (23) إنني في قمة السلم
- (24) إنه في مرتبة عليا
- (25) هذا الرجل في أوج سلطته
- (26) إنه في اللجنة العليا
- (27) لقد كانت ترقيته سريعة
- (28) قوته تفوق قوتي
- (29) إنه تحت مراقبتي
- (30) لقد انقلب النظام
- (31) حكمه يقترب من الحافة
- (32) إنه تحت رحمتي
- (33) إنه في أسفل الدرك

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: يرتبط الحجم عادة بالقوة بالفيزيائية، والمنتصر في مبارزة ما يتبوأ القمة عادة.

5 ـ الأكثر فوق، والأقل تحت:

- (34) لم يتوقف عدد الكتب المطبوعة كل سنة عن الارتفاع
- (35) ارتفعت عائداتي في السنة الفارطة
- (36) تقلص حجم الأنشطة الفنية في هذه الولاية
- (37) إن عدد الأخطاء التي يرتكبها منخفض جدا
- (38) لقد نزلت أرباحه هذه السنة
- (39) إذا شعرتم بالحرارة اخفضوا من قوة جهاز التدفئة

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: إذا أضفنا أشياء معينة إلى مجموعة أشياء أخرى، أو صببنا سائلا إضافيا في إناء، فإن علو مجموعة الأشياء يزيد، ومستوى السائل يرتفع.

6 ـ أحداث المستقبل المتوقعة فوق (وفي الأمام):

- (40) إنني أتطلع إلى غد مشرق
- (41) إننا نتجه نحو مستقبل مبهم
- (42) What's **up** ? What's coming **up** this week?[4]

4) لم أجد ما يمكن أن يقابل هذين المثالين في اللغة العربية، ومعناهما التساؤل عما سيحصل في المستقبل والمهم في المثالين هو استعمال لفظ up الذي يفيد التصور الفضائي المرتبط بالعلو، إذ نتساءل عن المستقبل بواسطته، ويمكن أن نجد هذا النوع من التعابير في العربية المغربية حيث تستعمل «فوق» إذا أتى بعدها اسم زمن للدلالة على علاقة البعدية في الزمن (كما في «تتلاقاو فوق الثلاثة»: نلتقي بعد الثالثة). ومعلوم أن المستقبل علاقة بعدية (أي يقع بعد الحاضر، والماضي علاقة قبلية: قبل الحاضر). (هـ.م).

المرتكزات الفيزيائية لهذا التصور: إننا ننظر عادة في الاتجاه الذي نتحرك فيه (أي في اتجاه الأمام)، وكلما اقترب شيء ما من الفرد (أو اقترب الفرد من الشيء) يبدو الشيء أكبر وبما أننا نتصور الأرض ثابتة فإن قمة الشيء تبدو متحركة داخل حقل رؤيتنا تبعا لحركة صاعدة

ـ 7 ـ النخبة فوق، والأغلبية تحت:

ـ (43) له وضعية راقية الآن
ـ (44) سيظل يتسلق إلى أن يصل إلى قمة الهرم
ـ (45) إنه في قمة المجد
ـ (46) إنه يتسلق الدرجات بكل ثقة
ـ (47) إنه في أسفل السلم الاجتماعي
ـ (48) لقد تقهقر في وضعه الاجتماعي

المرتكزات الفيزيائية والاجتماعية لهذا التصور: يرتبط الوضع الاجتماعي بالنفوذ (الاجتماعي)، والسلطة (الفيزيائية) توجد في الأعلى.

ـ 8 ـ الجيد فوق، والرديء تحت:

ـ (49) تبدو الأشياء في تحسن وارتفاع
ـ (50) بلغنا مستوى عاليا في السنة الماضية، إلا أن الأمور لم تتوقف منذ ذلك الحين عن النزول
ـ (51) لقد وصلنا إلى النقطة الأكثر انخفاضا
ـ (52) لقد قامت بعمل من مستوى عال

المرتكزات الفيزيائية للرفاه الشخصي: إن الأشياء التي تجعل الشيء جيدا بالنسبة للفرد، مثل السعادة والصحة والحياة والهيمنة، كلها أشياء توجد في الأعلى.

ـ 9 ـ الفضيلة فوق، والرذيلة تحت:

ـ (53) إنه رجل ذو مشاعر راقية
ـ (54) إنه فوق كل الشبهات
ـ (55) إنه إنسان منحط وساقط
ـ (56) هذه الأمور تسقطني في عيون الناس
ـ (57) لن أنزل إلى هذه المستوى الدنيء
ـ (58) لقد سقط في أرذل الأخلاق ومتدنيها

المرتكزات الفيزيائية والاجتماعية: إضافة إلى استعارة الجيد فوق (أساس فيزيائي)، هناك استعارة سنناقشها في مكان آخر، وهي: المجتمع فرد. فالفضيلة ترتكز على أن يتصرف الفرد في تطابق مع الضوابط التي أقامها المجتمع (الذي يعتبر فردا) للحفاظ على

رفاه هذا الفرد. والفضيلة فوق لأن ما كان عملا جيدا يرتبط بالصالح الاجتماعي من وجهة نظر المجتمع. وبما أن الاستعارات ذات المرتكزات الاجتماعية تشكل جزءا من الثقافة، فإن ما يهم هو وجهة نظر المجتمع/ الفرد.

ـ 10 ـ العقلاني فوق، والوجداني تحت:

ـ (59) سقط حديثنا إلى مستوى الانفعال، ولكنني رفعته إلى مستوى عقلاني

ـ (60) أبعدنا أحاسيسنا فوصلنا إلى نقاش من مستوى ثقافي عال

ـ (61) لم يكن باستطاعته التعالي على انفعالاته

المرتكزات الفيزيائية والاجتماعية: يتصور الناس أنفسهم في ثقافتنا كما لو كانوا يمارسون سيادتهم على الحيوان والنبات ومحيطها الفيزيائي، فقدرة البشر الخاصة على التعليل والعقلنة هي التي تجعلهم في مستوى أعلى من الحيوان، وتتيح لهم، بالتالي، هذه السيادة. إن استعارة الهيمنة فوق هي، إذن، أساس استعارة الإنسان فوق، وبالتالي فهي أساس استعارة العقلاني فوق.

خلاصات

نود، انطلاقا من هذه الأمثلة، اقتراح الاستنتاجات التالية حول المرتكزات التجريبية للتصورات الاستعارية واتساقها وطابعها النسقي:

* إن جل تصوراتنا الأساسية منظمة تبعا لاستعارة أو لمجموعة من الاستعارات ذات التوجيه الفضائي.

* إن لكل استعارة فضائية نسقية داخلية؛ فاستعارة السعادة فوق تحدد نسقا منسجما من الاستعارات، وليس مجموعة من الحالات المعزولة والصدفوية. فالنسق سيفقد اتساقه لو كانت جمل مثل «إنني في القمة» تعني «أنا سعيد»، في حين تكون جملة من قبيل «ارتفعت معنوياتي» تعني «أنا حزين».

* هناك نسقية خارجية شاملة لمختلف استعارات التفضية، وهذه النسقية تحكم الانسجام الحاصل بين هذه الاستعارات. هكذا تعطينا استعارة الجيد فوق توجها نحو الأعلى داخل فكرة الرفاه والسعادة، وهذا التوجه ينسجم مع حالات خاصة مثل السعادة فوق، والصحة فوق، والحياة فوق، والنفوذ فوق. كما أن استعارة النخبة فوق تنسجم مع استعارة النفوذ فوق.

* استعارات التفضية متجذرة في تجربتنا الثقافية والفيزيائية، وليست من محض الصدفة. إنه لا يمكن لاستعارة ما أن تسعفنا في فهم تصور معين إلا بمقتضى أساسها في التجربة (وسنتحدث عن بعض المظاهر المعقدة للأساس التجريبي للاستعارة في المقطع اللاحق).

* قد تكون للاستعارة أسس فيزيائية واجتماعية مختلفة. ويبدو أن انسجام النسق الشامل هو الأصل، على الأقل جزئيا، في اختيارات الاستعارات. وهكذا تبدو السعادة مرتبطة، فيزيائيا، بابتسامة عريضة وبشعور عام بالحرارة العارمة. وهذه الوضعية قد تشكل، مبدئيا، أساس استعارة مثل السعادة واسعة والحزن ضيق(5). ونجد، فعلا، بعض التعابير الاستعارية الهامشية مثل «يبدو الرجل منبسطا (أو منفتحا)» التي تقدم مظهراً للسعادة مختلفا عما يظهر في قولنا «إنني في القمة». إلا أن الاستعارة المهيمنة في ثقافتنا هي السعادة فوق، ولهذا نتحدث عن أوج النشوة وقمتها وليس عن عرضها. وبالفعل، فاستعارة السعادة فوق تشكل نسقا ينسجم مع استعارتي الجيد فوق، والصحة فوق.. إلخ.

* في بعض الحالات تكون التفضية جزءا، فعلا، من تصور معين إلى درجة أنه يصعب علينا أن نتخيل أنه بإمكان استعارة أخرى أن تُبَنْيِن هذا التصور. أما في بعض الحالات الأخرى، بما فيها حالة السعادة، فتكون التفضية أقل وضوحا. فهل تصور السعادة يوجد في استقلال عن استعارة السعادة فوق، أم أن الاستعارة تحت ـ فوق المنسحبة على السعادة هي نفسها جزء من التصور؟ نعتقد أنها جزء من التصور في إطار نسق تصوري معين. فاستعارة السعادة فوق تضع السعادة في نسق استعاري منسجم، وتستمد جزءا من دلالتها بدورها من هذا النسق.

* إن التصورات التي يفترض أنها عقلية مثل تصورات نظرية علمية ما، ترتكز غالبا ـ وربما دائما ـ على استعارات ذات أساس فيزيائي و/ أو ثقافي. فتصور العلو في «الجزيئات ذات الطاقة العليا» يوجد أساسه في استعارة الأكثر فوق، وتصور السموّ في «الوظائف السامية»، في علم النفس الفيزيولوجي مثلا، أساسه استعارة العقلاني فوق. كما أن الاستفال في «المستوى الصواتي المستفل» (الذي يحيل على بعض المظاهر الفوناتيكية (الأصواتية) المفصلة للأنسقة الصوتية للغات) يوجد أساسه في استعارة الواقع الأرضي تحت (كما في عبارة «سفلي في الأرض»). فالإغراء الحدسي الذي تمارسه علينا نظرية علمية ما سببه ملاءمة استعاراتها لتجربتنا.

* تقدم التجربة الثقافية والفيزيائية العديد من الأسس الممكنة لاستعارات التفضية، ولهذا السبب يمكن أن يختلف اختيارها وأهميتها نسبيا من ثقافة إلى أخرى.

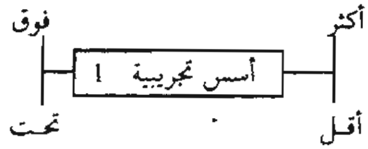
* من الصعب التفريق، داخل استعارة معينة، بين الأساس الفيزيائي والأساس الثقافي، إذ إن انتقاء أساس فيزيائي ما من بين أسس فيزيائية أخرى أمر مرتبط بالانسجام الثقافي.

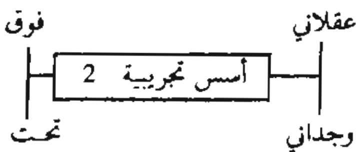
5) في توضيح هذه الاستعارة، نستحضر أمثلة عربية من قبيل: «إنه في ضيق» أو «ضاقت حاله»، التي تقال في وصف الحال غيرالمريحة وغير السعيدة التي يمكن أن يكون عليها شخص ما. (هـ.م)

الأسس التجريبية للاستعارات

إننا لا نعرف الشيء الكثير عن الأسس التجريبية للاستعارات، وجهلنا لهذه النقطة هو الذي جعلنا نضيف بعد الاستعارات تعاليقنا النموذجية حول أسسها التجريبية الممكنة. وفي الحقيقة فإنه لدينا إحساس أنه لا يمكن فهم أية استعارة أو التمثيل لها بصورة كافية في استقلال عن أساسها التجريبي. فمثلا، يختلف نموذج الأساس التجريبي لاستعارة الأكثر فوق عن نموذج السعادة فوق أو العقلاني فوق. ورغم أن تصور العلو هو نفسه في جميع هذه الاستعارات، فإن التجارب التي تنبني عليها هذه الاستعارات جد مختلفة. ولا يرجع ذلك إلى وجود مفاهيم مختلفة للعلو، ولكن لأن البعد العمودي مسجل في تجربتنا بطرق شتى، ويتيح بذلك استعارات جد مختلفة.

ومن الطرق التي نبرز بها عدم إمكان عزل الاستعارات عن أسسها التجريبية إدماج هذه الأخيرة داخل التمثيلات ذاتها. وهكذا عوض الاحتفاظ بتمثيل من نوع: الأكثر فوق أو العقلاني فوق، فإنه يمكن أن تكون لدينا علاقة أعقد تمثلها الخطاطة التالية:





إن تمثيلا من هذا النوع سيركز على كون جزأي كل استعارة ليسا مترابطين إلا بواسطة أسسها التجريبية، وأن هذه الأسس التجريبية وحدها هي التي تستطيع أن تجعل من الاستعارات أداة للفهم.

ولن نستعمل تمثيلات من هذا النوع لأننا لانعرف عن الأسس التجريبية سوى القليل. وسنستمر في استعمال عنصر الربط "is" لصياغة استعارات مثل الأكثر فوق (more is up)[6]، إلا أنه ينبغي أن نفهم أن هذا العنصر يمثل مجموعة من التجارب التي تنبني عليها الاستعارة، والتي نفهم الاستعارة على أساسها.

6) معلوم أن التعبير العربي لا يملك رابطة مثل "is" في الأنجليزية أو "est" في الفرنسية، ولذلك نترجم عبارة من قبيل "X is up" بعبارة «س فوق» على أساس أننا نصف س بكونها تحتل المكان الفوقي داخل البعد العمودي. كما سنستعمل في فصول قادمة (الفصل الثامن عشر، مثلا) تعابير من قبيل «أ هو ب» فنترجم "is" بواسطة «هو»، رغم أن اللفظ العربي ليس ما يقابله نحوياً من لفظ أنجليزي. (هـ. م).

إن الدور الذي تقوم به الأسس التجريبية هام في فهم اشتغال الاستعارات التي ليست متسقة في ما بينها لأنها تنبني على نماذج من التجربة مختلفة. لنأخذ استعارة مثل المجهول فوق والمعلوم تحت (في مثل: «فِكْرَتُك تحلق في السماء»، أو «القد طُرح الموضوع للنقاش»[7]). لهذه الاستعارة أسس تجريبية قريبة جدا من استعارة الفهم هو الإمساك [بالأشياء والقبض عليها] في مثل: «لم أتمكن من الإمساك بفكرتك أو القبض عليها». وفي مجال الأشياء الفيزيائية، إذا تمكنتَ من القبض بأحدها وإمساكه بيديك، فإنه يكون بإمكانك فحصه بعناية وفهم تكوينه. ومن الأسهل الإمساك بشيء ما وفحصه بعناية إذا كان مطروحا على الأرض، أو إذا كان يشغل مكانا ثابتا، مما لو كان يتطاير في الهواء (مثل ورقة شجرة أو كتاب). وبهذا فاستعارة المجهول فوق والمعلوم تحت تنسجم مع استعارة الفهم هو الإمساك. إلا أن استعارة المجهول فوق لا تنسجم مع استعارات مثل الجيد فوق والمنتهي فوق (كما في "I'm finishing up"). وقد نتوقع أن يتزاوج المنتهي والمعلوم من جهة، وغير المنتهي والمجهول من جهة أخرى، إلا أنه ليس الأمر كذلك في إطار الاستعارات العمودية إذ إن استعارة المجهول فوق ترتبط بأسس تجريبية مختلفة جدا عن أسس استعارة المنتهي فوق.

7) عندما يقول أنجليزي أو أمريكي: "that's up in the air"، وهو المثال الذي يورده الباحثان هنا، فإنه يعني أنه لا يفهم شيئا مما سمعه، أو يجهله بالمرة. أما الفرنسي فيقول في الرد على شخص يحدثه عما يجهله: "vous planez". ويعكس ذلك في اللغة العربية أمثلة من نوع: «إنك تحلق في السماء»، أي أنك تقول كلاما غير مفهوم أو غير مضبوط. وهنا نستعمل الجزء الأول من الاستعارة وهو المجهول فوق. أما حين نقول: «لقد طرحت الموضوع للنقاش» فإننا نستعمل الجزء الثاني من الاستعارة وهو المعلوم تحت، أي أصبح الموضوع في «متناول اليد» بعد أن تم «طرحه أرضا»، ولذلك نقول «أرضية النقاش» وما شابه ذلك، فنسند صفة التحتية أو الاستفال استعاريا (من خلال كلمة «أرضية») إلى ما هو معلوم ومعروف. (هـ. م).

5 . الاسْتعَارَةُ وَالانْسِجَامُ الثَّقَافِيُّ

تنسجم القيم الأكثر جوهرية في ثقافة ما مع البنية الاستعارية لتصوراتها الأكثر أساسية. لننظر، مثلا، إلى بعض القيم الثقافية في مجتمعنا والتي تنسجم مع استعارات التفضية فوق ـ تحت وليس مع ما يناقضها:

- تنسجم عبارة «الأوفر أحسن» مع استعارتي الأكثر فوق والجيد فوق، أما عبارة مثل «الأقل أحسن» فليست منسجمة مع هاتين الاستعارتين.

- تنسجم عبارة «الأكبر أحسن» مع استعارتي الأكثر فوق والجيد فوق، أما عبارة «الأصغر أحسن» فليست كذلك.

- تنسجم عبارة «سيكون المستقبل أحسن» مع استعارتي المستقبل فوق والجيد فوق، أما عبارة «سيكون المستقبل سيئا» فليست كذلك.

- تنسجم عبارة «سيكون لنا أكثر من ذلك في المستقبل» مع استعارتي الأكثر فوق والمستقبل فوق.

- تنسجم عبارة «سيكون قدرك مرفوعا في المستقبل» مع استعارتي النخبة فوق والمستقبل فوق.

وهذه القيم متجذرة بصورة عميقة في ثقافتنا. فعبارة «سيكون المستقبل أحسن» تشكل مثالا على تصور التطور. وعبارة «سيكون لنا أكثر في المستقبل» تمثل بشكل خاص لتراكم الخيرات والزيادة في الأجور. وعبارة «سيكون قدرك مرفوعا مستقبلا» قد تعبر عن نجاح مهني مرتقب. هذه التعابير منسجمة مع استعارات التفضية التي نستعملها، أما ما يناقض هذه التعابير فلن يكون كذلك. وبهذا يبدو أن قيمنا ليست مستقلة [أو حرة]، ولكن عليها أن تشكل مع التصورات الاستعارية التي نحيا بها نسقا منسجما. إننا لا ندعي أن كل القيم الثقافية التي تكون منسجمة مع نسق استعاري معين هي قيم موجودة بالفعل، بل نقول إن تلك القيم التي توجد وتكون متجذرة بعمق في ثقافتنا متلائمة مع النسق الاستعاري.

إن القيم الواردة أعلاه هي، بشكل عام، من خصائص ثقافتنا، وهي في ذلك سواء. ولكن بما أن الأشياء ليست دائما متساوية، ويوجد تناقض ما بين هذه القيم فإن ذلك

6 . الاسْتعَارَات الأنطُولُوجيّة

1 . اسْتعاراتُ الكيَان والمادّة

تمدنـا الاتجاهـات الفضـائية، مثـل تحت ـ فـوق، وأمـام ــ خلف، وأعلى ــ أسفل، ومركزي ـ هامشي، وقريب ـ بعيد، بأساس غني جدا لفهم التصورات بواسطة الاتجاه. إلا أن الاتجاه لا يكفي. فتجربتنا مع الأشياء الفيزيائية والمواد تعطينا أساسا إضافيا للفهم، وهو أسـاس قـد يتعـدى الاتجاه البسيط. إن فهم تجاربنـا عن طـريق الأشيـاء والمواد يسمح لنـا باختيار عناصر تجربتنا ومعالجتها باعتبارها كيـانات معزولة أو باعتبارها مواد من نوع واحد. وحين نتمكـن مـن تعيين (identify) تجاربنا بـاعتبارهـا كيانـات أو مواد فإنـه يصبح بـوسعنا الإحالة عليها ومَقْوَلَتُها (categorize) وتجميعهـا وتكميمها، وبهذا نعتبرهـا أشيـاء تنتمي إلى منطقنا.

وعندمـا تكون الأشيـاء غير معزولـة أو غير محدودة بصورة واضحة فإننا نُـمَقْولهُا مع ذلك بهذا الشكل. وينسحب ذلك على الجبال وتقاطعات الشوارع والحواجز. . إلخ. وهذه الطريقة التي ننظر بها إلى الظواهر الفيزيائيـة ضرورية لتحقيق بعض حاجاتنا: كالتمييز بين الجبال، أو الالتقـاء عند تقاطعـات الشوارع، أو تخطي حواجـز معينة. فحاجـات الإنسان النموذجية تقتضي منا فـرض حدود اصطناعية تجعل من الظواهـر الفيزيائية [أشياء] منعزلة، بالضبط كما نحن: كيانات محدودة بمساحة معينة

إنه بقـدر ما تُنتج التجـارب الأساسيـة للتوجه الفضـائي الإنساني استعـارات اتجاهية، تكون تجاربنا مع الأشياء الفيزيائية (وبخاصة أجسادنا) مصدراً لأسس استعارات أنطولوجية متنوعـة جـدا، أي [أنها تعطينا] طرقـا للنظـر إلى الأحـداث والأنشطـة والإحسـاسـات والأفكار . . إلخ، باعتبارها كيانات ومواد.

نستعمل الاستعارات الأنطولوجية لحاجات مختلفة، والاختلافات الحاصلة بين هذه الأنواع من الاستعارات تعكس هذه الحاجات المختلفة التي استعملت هذه الاستعارات من أجلها. لننظر، مثلا، إلى تجربة ارتفاع الأسعار التي يمكن أن تعتبر استعاريا كيانا نسميه التضخم. وبهذا نحصل على طريقة للإحالة على هذه التجربة:

التضخم كيان:

- (1) إن التضخم يخفض مستوى عيشنا
- (2) إذا تفاقم التضخم لن نتمكن من العيش
- (3) يجب محاربة التضخم
- (4) يضطرنا التضخم إلى اتخاذ بعض الإجراءات
- (5) يلتهم التضخم جزءا كبيرا من عائداتنا
- (6) شراء قطعة أرض هو الطريقة الوحيدة للاحتماء من التضخم
- (7) يقلقني التضخم كثيرا

في جميع هذه الحالات، يسمح لنا اعتبار التضخم كيانا بالإحالة عليه، وبتكميمه، وبأن نعين منه جزءا خاصا، وبأن نرى فيه سببا، وبأن نتصرف بحيطة إزاءه، وربما بأن نعتقد أننا نفهمه. فاستعارات أنطولوجية كهاته ضرورية في محاولتنا تقديم تحليل عقلاني لتجاربنا.

إن مجال الاستعارات الأنطولوجية التي نستعملها لخدمة حاجات كهاته مجال واسع، واللائحة التالية تقدم لنا فكرة عن تنوع حاجاتنا ومعها معطيات تمثيلية عن الاستعارات الأنطولوجية التي تخدمها:

- أن نحيل:
- (8) خوفي من الحشرات يجعل زوجتي كالمجنونة
- (9) لقد كانت غنيمة رائعة (إذا عنينا بها شيئا مجردا)
- (10) إننا نعمل من أجل السلام
- (11) يُعتبر الطرف المعتدل قوة صامتة في السياسة الأمريكية
- (12) شرف وطننا في خطر بسبب هذه الحرب

- أن نكمم:
- (13) يتطلب إنهاء هذا الكتاب قدرا كبيرا من الصبر
- (14) يوجد كثير من الحقد في هذا العالم
- (15) لهذا الرجل سلطة سياسية كبيرة في بريطانيا
- (16) لمسنا عندكم ترحابا كبيرا
- (17) لهذا الشخص دينامية كبيرة وتقنية مدهشة في لعب الكرة

- أن نعين المظاهر:
- (18) لقد كشف، تحت ضغط الأحداث، عن الجانب السيء في شخصيته
- (19) وحشية الحرب تجعلنا غير إنسانيين
- (20) لا أتمكن من مسايرة إيقاع الحياة الحديثة
- (21) لقد تدهور الجانب النفسي في صحته
- (22) لم نتلذذ قط بنشوة النصر في الفيتنام

- أن نعين الأسباب:
- (23) ثقل مسؤولياته سبب انهياره
- (24) قام بذلك من جراء غضبه
- (25) تأثيرنا في العالم تقهقر نظرا إلى سوء أخلاقنا
- (26) كلفهم خلافهم الداخلي الهزيمة

- أن نحدد الأهداف ونحفز الأنشطة:
- (27) لقد جاء إلى نيويورك بحثا عن الجاه والمال
- (28) هذا ما يجب أن تقوم به لتأمين الضمان المالي
- (29) إنني أغير نمط حياتي كي أعثر على السعادة الحقيقية
- (30) تهرع المخابرات الأمريكية حيال المس بأمن الدولة
- (31) لقد رأت في الزواج الحل لمشاكلها

وكما في حالة الاستعارات الاتجاهية فإنه لا يتم الانتباه إلى الطابع الاستعاري لجل هذه التعابير. ومن أسباب ذلك أن الاستعارات الأنطولوجية، شأنها شأن الاستعارات الاتجاهية، تخدم مجموعة محدودة من الحاجات، كأن نحيل أو نكمم.. إلخ. إن مجرد اعتبارنا شيئا غير فيزيائي كيانا أو مادة لا يسمح لنا بأن نفهم عنه شيئا مهما. إلا أنه بالإمكان تطوير الاستعارات الأنطولوجية، وهذان مثالان عن الكيفية التي تم بها تطوير الاستعارة الأنطولوجية الذهن مادة في ثقافتنا.

الذهن آلة:
- (32) عقلي غير قادر على الاشتغال الآن
- (33) لقد صدئ عقله
- (34) اشتغلنا في هذا المشكل طول اليوم والآن نفذت طاقتنا
- (35) «الروايد ماكايدوروش» [من الدراجة المغربية، والمقصود بلفظ «الروايد» عملية التفكير، وترجمتها حرفيا: «العجلات لا تدور»]

الذهن شيء هش:
- (36) أنا هش جدا

- (43) دخلت السفينة في مجال رؤيتي الآن
- (44) لقد غدا خارج حدود رؤيتي
- (45) إنه على مرمى البصر
- (46) لا يمكن أن أراه فالشجرة تخفي مجال رؤيتي
- (47) أُنظر، إنه يتوسط مجال الرؤية الآن

3.2. الأحداث والأنشطة والأعمال والحالات:

نستخدم الاستعارات الأنطولوجية لفهم الأحداث (events)، والأعمال (actions)، والأنشطة (activities)، والحالات (states) إننا نتصور الأحداث والأعمال استعاريا باعتبارها أشياء، والأنشطة باعتبارها مواد، والحالات باعتبارها أوعية إن سباقا، مثلا، حدثٌ قد نعتبره كيانا مستقلا. فالسباق يتم في مكان وزمان، وله حدود جد مضبوطة. ولهذا ننظر إليه باعتباره شيئا/ وعاء يوجد فيه المتسابقون (وهم أشياء)، وتوجد فيه أحداث كالانطلاقة والوصول (تعتبر استعاريا أشياء)، ويوجد فيه نشاط الجري (الذي يعتبر استعاريا مادة) وهكذا نقول بصدد سباق ما:

- (48) هل ستكون في السباق يوم الأحد؟ (السباق شيء/ وعاء)
- (49) هل ستذهب إلى السباق؟ (السباق شيء)
- (50) هل شاهدت السباق؟ (السباق شيء)
- (51) لقد كان الوصول في السباق هائلا الوصول حدث داخل شيء/ وعاء
- (52) لقد قدم جريا ممتازا في هذا السباق (الجري مادة في وعاء)
- (53) لم أتمكن من الحفاظ على السرعة حتى النهاية (الإسراع مادة)
- (54) وجدتُ نفسي بدون قوة في وسط السباق (السباق شيء/ وعاء)
- (55) إنه خارج السباق الآن (السباق شيء/ وعاء)

ويتم النظر إلى الأنشطة عامة باعتبارها مواد استعاريا، وبذلك تعتبر أوعية:

- (56) في غسل النوافذ، أصبب ماء كثيرا على المارة
- (57) كم غَسْلَ نوافذ أنجزت حتى الآن؟
- (58) وخارج غسل النوافذ، ماذا تفعل؟

2) I can't see him, the tree is in the way

حرفيا: «لا أتمكن من رؤيته، فالشجرة في الطريق» (فالشجرة تحجبه عني)
ولكننا نجد بعض التعابير الاستعارية من هذا القبيل في اللغة العربية، مثال ذلك:

3) في رأيي، لن تقوم الحرب والرأي مصدر وأى
4) في نظري، لن نحتاج إلى ذلك كله

فعبارتا «في رأيي» و«في نظري» تفيدان ما نعتقده بارتباطهما استعاريا بمجال الرؤية. وهما تبينان، بشكل واضح، أن المجال البصري وعاء إذ يرتبط الرأي والنظر بالحرف «في» الذي لا يدخل إلا على ما كانت له حدود وله داخل وخارج أو ما كان يتصور كذلك. (هـ م)

- (59) كيف ولجتَ غسل النوافذ؟
- (60) كيف استقلت من غسل النوافذ؟
- (61) لقد اكتسب تجربة كبيرة في غسل النوافذ

وبهذا نعتبر الأنشطة أوعية تحوي الأعمال وأنشطة أخرى تدخل فيها. إنها تُتصور، أيضا، باعتبارها أوعية بالنسبة للطاقة والمواد التي تقتضيها هذه الأنشطة ومنتوجاتها الفرعية التي قد تُعتبر داخلة فيها أو ناتجة عنها:

- (62) لقد صرفت طاقة كبيرة في غسل النوافذ
- (63) لقد أفدت سعادة كبيرة من غسل النوافذ
- (64) أجد سعادة كبيرة في غسل النوافذ

كما أننا قد نتصور عددا متنوعا من الحالات باعتبارها أوعية. وبهذا نعثر على أمثلة من قبيل:

- (65) إنه في حالة خيبة وفقدان أمل
- (66) إنه في سعادة لا توصف
- (67) لقد خرج من فقدان الوعي
- (68) إنه يعيش في قلق دائم
- (69) لقد خرج مؤخرا من حالة اليأس التي حبس نفسه فيها
- (70) أضحى المريض خارج التخوفات
- (71) إنه يقترب شيئا فشيئا من الحالة السوية

7 . التَّشْخِيص

ربما تكون الاستعارات الأنطولوجية الأبده هي تلك الاستعارات التي نخصص فيها الشيء الفيزيائي كما لو كان شخصا. وهذه الاستعارات تسمح لنا بفهم عدد كبير ومتنوع من التجارب المتعلقة بكيانات غير بشرية عن طريق الحوافز والخصائص والأنشطة البشرية. وهذه بعض الأمثلة:

- (1) نظريته تفسر سلوك الدجاج المربى اصطناعيا
- (2) هذا الأمر يشجب النظريات السابقة
- (3) لقد خدعتني الحياة
- (4) التضخم يلتهم كل امتيازاتنا
- (5) ديانته تحرم عليه شرب الخمر
- (6) أنجبت تجربته نظرية فيزيائية جديدة
- (7) أخيرا، صرعه مرض السرطان

إننا في كل حالة من هذه الحالات نرى ما كان غير بشري بشريا. إلا أن التشخيص ليس عملية فريدة واحدة وعامة، فكل تشخيص يختلف عن الآخر باعتبار المظاهر التي ينتقيها الناس. لننظر، مثلا، إلى الجمل التالية:

- (8) هاجم التضخم أسس اقتصادنا
- (9) طرحنا التضخم على الأرض
- (10) إن ألد أعدائنا، حاليا، هو التضخم
- (11) لقد هد التضخم الدولار
- (12) ذهب التضخم بكل ما وفرناه
- (13) خدع التضخم أحسن الخبراء في البلد

ـ (14) أنجب التضخم جيلا من الانتهازيين

هنا يتم تشخيص التضخم، إلا أن الأمر لا يرتبط أساسا باستعارة التضخم عدو. فهذه الأخيرة أخص من الأولى. وهذه الاستعارة لا تعطينا فقط وسيلة دقيقة للتفكير في التضخم ولكنها تعطينا، في الوقت نفسه، وسيلة لمحاربته وضبطه. فالتضخم بالنسبة لنا عدو يمكن أن يهاجمنا، ويطعننا، ويسرقنا، وقد يدمرنا. فاستعارة التضخم عدو تُحدث، كما تبرر، إجراءات سياسية واقتصادية عند حكومتنا: فهي قد تعلن الحرب على التضخم، وقد تحدد الأهداف التي يجب الوصول إليها، وقد تدعونا إلى تقديم تضحيات، وقد تقيم سلسلة من التدابير. إلخ.

التشخيص، إذن، مقُولة عامة تغطي عددا كبيرا ومتنوعا من الاستعارات حيث تنتقي كل منها مظاهر مختلفة لشخص ما أو طرقا مختلفة للنظر إليه. وما تشترك فيه كل هذه الاستعارات أنها تمثل ما صدقات (extensions) لاستعارات أنطولوجية، وأنها تسمح لنا بأن نعطي معنى للظواهر في هذا العالم عن طريق ما هو بشري، فنفهمها اعتمادا على محفزاتنا وأهدافنا وأنشطتنا وخصائصنا. إن النظر إلى شيء مجرد، مثل التضخم، عن طريق ما هو بشري له سلطة تفسيرية تشكل، بالنسبة لغالبيتنا، الوسيلة الوحيدة لإعطائه معنى. إننا حين نتعرض إلى خسارات مالية مادية لأسباب اقتصادية وسياسية معقدة لا نفهمها حقا، فإن استعارة التضخم عدو تسمح لنا، على الأقل، بإعطاء تفسير متسق لسبب ابتلائنا بهذه الخسارات.

8 . الـكِـنَـايَـة

رأينا، في حالات التشخيص التي عالجناها، أننا نسند خصائص بشرية إلى أشياء غير بشرية كالنظريات والأمراض والتضخم . . إلخ. وفي هذه الحالات لا نحيل على كائنات بشرية واقعية فحين نقول «جردني التضخم من كل مدخراتي»، فإننا لا نستعمل لفظ «تضخم» للإحالة على شخص معين. ويلزم تمييز حالات من هذا النوع من حالات أخرى مثل: «ينتظر طبق الدجاج فاتورة الحساب»، حيث تستعمل عبارة «طبق الدجاج» للإحالة على شخص واقعي، أي ذلك الشخص الذي طلب طبق الدجاج فعلا. ولسنا، هنا، بصدد أمثلة لاستعارات تشخيصية، إذ لا نفهم «طبق الدجاج» بأن نفرض عليه خصائص بشرية، بل على العكس من ذلك، فنحن نستعمل كيانا معينا للإحالة على كيان آخر مرتبط به. ونسمي مثل هذه الصور كنايات. وفي ما يلي أمثلة أخرى:

- (1) يحب قراءة الماركيز دو ساد (أي كتابات الماركيز دو ساد)
- (2) إنه في السينما (أي في وظيفة السينما)
- (3) ثوّر الإسمنت الهندسة المعمارية (أي استعمال الإسمنت مادة للبناء)
- (4) لم تصل التايمز بعد إلى الندوة الصحفية (أي صحفي مجلة التايمز)
- (5) سيفرحه الحذاء الجديد (أي فعل امتلاك حذاء جديد)

ونعتبر ما أطلق عليه البلاغيون التقليديون مجازا مرسلا حالة كنائية خاصة، وهي صورة بلاغية يعبر فيها الجزء عن الكل، كما يتضح من الأمثلة التالية:

الجزء للكل:

- (6) ألقى الوزير كلمة ترحيب (أي عدة كلمات وجمل)
- (7) نحن في حاجة إلى سواعد قوية (أي رجال أقوياء)
- (8) هناك أدمغة ممتازة في جامعاتنا (أي أشخاص أذكياء)
- (9) نحتاج إلى دم جديد (أي أشخاص جدد)

ـ (14) أنجب التضخم جيلا من الانتهازيين

هنا يتم تشخيص التضخم، إلا أن الأمر لا يرتبط أساسا باستعارة التضخم عدو. فهذه الأخيرة أخص من الأولى. وهذه الاستعارة لا تعطينا فقط وسيلة دقيقة للتفكير في التضخم ولكنها تعطينا، في الوقت نفسه، وسيلة لمحاربته وضبطه. فالتضخم بالنسبة لنا عدو يمكن أن يهاجمنا، ويطعننا، ويسرقنا، وقد يدمرنا. فاستعارة التضخم عدو تُحدث، كما تبرر، إجراءات سياسية واقتصادية عند حكومتنا: فهي قد تعلن الحرب على التضخم، وقد تحدد الأهداف التي يجب الوصول إليها، وقد تدعونا إلى تقديم تضحيات، وقد تقيم سلسلة من التدابير. إلخ.

التشخيص، إذن، مقُولة عامة تغطي عددا كبيرا ومتنوعا من الاستعارات حيث تنتقي كل منها مظاهر مختلفة لشخص ما أو طرقا مختلفة للنظر إليه. وما تشترك فيه كل هذه الاستعارات أنها تمثل ما صدقات (extensions) لاستعارات أنطولوجية، وأنها تسمح لنا بأن نعطي معنى للظواهر في هذا العالم عن طريق ما هو بشري، فنفهمها اعتمادا على محفزاتنا وأهدافنا وأنشطتنا وخصائصنا. إن النظر إلى شيء مجرد، مثل التضخم، عن طريق ما هو بشري له سلطة تفسيرية تشكل، بالنسبة لغالبيتنا، الوسيلة الوحيدة لإعطائه معنى. إننا حين نتعرض إلى خسارات مالية مادية لأسباب اقتصادية وسياسية معقدة لا نفهمها حقا، فإن استعارة التضخم عدو تسمح لنا، على الأقل، بإعطاء تفسير متسق لسبب ابتلائنا بهذه الخسارات.

8 . الــكِــنَــايــة

رأينا، في حالات التشخيص التي عالجناها، أننا نسند خصائص بشرية إلى أشياء غير بشرية كالنظريات والأمراض والتضخم.. إلخ. وفي هذه الحالات لا نحيل على كائنات بشرية واقعية. فحين نقول «جردني التضخم من كل مدخراتي»، فإننا لا نستعمل لفظ «تضخم» للإحالة على شخص معين. ويلزم تمييز حالات من هذا النوع من حالات أخرى مثل: «ينتظر طبق الدجاج فاتورة الحساب»، حيث نستعمل عبارة «طبق الدجاج» للإحالة على شخص واقعي، أي ذلك الشخص الذي طلب طبق الدجاج فعلا. ولسنا، هنا، بصدد أمثلة لاستعارات تشخيصية، إذ لا نفهم «طبق الدجاج» بأن نفرض عليه خصائص بشرية، بل على العكس من ذلك، فنحن نستعمل كيانا معينا للإحالة على كيان آخر مرتبط به. ونسمي مثل هذه الصور كنايات. وفي ما يلي أمثلة أخرى:

- (1) يجب قراءة الماركيز دو ساد (أي كتابات الماركيز دو ساد)
- (2) إنه في السينما (أي في وظيفة السينما)
- (3) ثوّر الإسمنت الهندسة المعمارية (أي استعمال الإسمنت مادة للبناء)
- (4) لم تصل التايمز بعد إلى الندوة الصحفية (أي صحفي مجلة التايمز)
- (5) سيفرحه الحذاء الجديد (أي فعل امتلاك حذاء جديد)

ونعتبر ما أطلق عليه البلاغيون التقليديون مجازا مرسلا حالة كنائية خاصة، وهي صورة بلاغية يعبر فيها الجزء عن الكل، كما يتضح من الأمثلة التالية:

الجزء للكل:

- (6) ألقى الوزير كلمة ترحيب (أي عدة كلمات وجمل)
- (7) نحن في حاجة إلى سواعد قوية (أي رجال أقوياء)
- (8) هناك أدمغة ممتازة في جامعاتنا (أي أشخاص أذكياء)
- (9) نحتاج إلى دم جديد (أي أشخاص جدد)

في هذه الحالات، كما في الحالات الكنائية الأخرى، نستعمل كيانا معينا للإحالة على كيان آخر. وبهذا فالاستعارة والكناية تشكلان صنفين متباينين من حيث السيرورة [التي تنتج كلا منهما]. فالاستعارة، أساسا، وسيلة لتصور شيء ما من خلال شيء آخر، ووظيفتها الأولى الفهم. أما الكناية فوظيفتها إحالية قبل كل شيء. إنها تسمح باستعمال كيان معين مقام كيان آخر. إلا أنها ليست أداة إحالية فحسب، بل وظيفتها تيسير الفهم أيضا. ففي كناية الجزء للكل، مثلا، يمكن لعدد من الأجزاء أن يقوم مقام الكل، والجزء الذي نكني به يحدد مظهرا نركز عليه مقابل مظاهر أخرى في هذا الكل. فحين نقول «إننا في حاجة إلى أدمغة ممتازة في هذا المشروع»، فإننا نستعمل عبارة «أدمغة ممتازة» للإحالة على أشخاص أذكياء. إن الأمر لا يتعلق، إذن، باستعمال جزء (وهو الدماغ) فقط لإحلاله محل الكل (أي الشخص)، بل يتعلق الأمر، بالأحرى، بانتقاء خاصية محددة ـ وهي الذكاء ـ تربطها بالدماغ. وهذا صادق بالنسبة لأنواع أخرى من الكنايات. فعندما نقول «لم تصل التايمز بعد إلى الندوة الصحفية»، فإننا نستعمل «التايمز» ليس فقط للإحالة على صحفي أو آخر، وإنما لتبيان أهمية المؤسسة التي يمثلها الصحفي. وبهذا تفيد جملة «لم تصل التايمز بعد إلى الندوة الصحفية» شيئا مخالفا لما تفيده جملة مثل: «لم يصل ستيف روبرتز بعد إلى الندوة الصحفية»، وإن كان ستيف روبرتز هو صحفي التايمز المنتظر. إن الكناية تخدم، ولو في جزء منها، نفس الحاجات التي تخدمها الاستعارة بنفس الطريقة تقريبا. ولكن الكناية تسمح لنا بالتركيز بدقة على بعض مظاهر ما نحيل عليه. وهي، كالاستعارة، ليست مجرد أداة شعرية أو بلاغية، وليست أيضا ظاهرة لغوية صرف. إن التصورات الكنائية (مثل الجزء للكل) تشكل جزءا من الطريقة العادية التي نمارس بها تفكيرنا وسلوكنا وكلامنا.

ولدينا في نسقنا التصوري حالة خاصة من كناية الجزء للكل وهي الوجه للشخص:

ـ (10) إنها ليست سوى وجه جميل، وكفى

ـ (11) هذه الوجوه الجديدة تبعث عن الأمل

ـ (12) لا أحب هذه الوجوه الكئيبة

تشتغل هذه الكناية بشكل فعال داخل ثقافتنا. إن [تعاملنا] مع لوحة، في الرسم كما في فن التصوير، يرتكز على هذه الكناية. فإذا طلبت مني أن أريك صورة لابني وأريتك صورة لوجهه فإنك ستكون راضيا، وستعتبر نفسك قد رأيت صورة لابني. ولكن لو أريتك صورة لجسده دون وجهه فإنك ستعتبر ذلك غريبا وغير كاف، ويمكنك أن تذهب إلى حد التساؤل: «ولكن ما هو شكل ابنك إذن؟». إن كناية الوجه للشخص ليست، إذن، مسألة لغة فحسب. ففي ثقافتنا ننظر إلى وجه الشخص، عوض وضعه الجسمي أو حركاته، لنكون فكرة عنه. إننا ندرك العالم بواسطة الكناية عندما نحدد هوية الشخص من خلال وجهه، وعندما نتصرف وفق هذا الإدراك.

فالكنايات، شأنها شأن الاستعارات، ليست حالات عشوائية أو اعتباطية، ويجب ألا نتعامل معها باعتبارها أمثلة فريدة. فالتصورات الكنائية هي بدورها نسقية؛ وذلك ما تبينه الجمل التمثيلية التالية الموجودة في ثقافتنا:

الجزء للكل:

- (13) إننا لا نشغل القامات القصيرة
- (14) يحشر أحمد أنفه في كل شيء
- (15) يحتاج كلامي إلى آذان صاغية

المنتج للمنتوج:

- (16) اشتريت فورد
- (17) أكره قراءة هايدغر
- (18) يعلق زيد بيكاسو في غرفة نومه

الشيء المستعمل للمستعمل:

- (19) دخلت الحافلات في إضراب
- (20) كان العود يرسل أنغاما شجية
- (21) لا توجد أقلام جادة هنا

المسؤول للمنفذ:

- (22) قنبل نيكسون هانوي
- (23) انهزم نابليون في واترلو
- (24) بنى خوفو الهرم الأكبر

المؤسسة للأشخاص المسؤولين:

- (25) رفعت فيليبس أثمنتها من جديد
- (26) لن نتوصل إلى إقناع الجامعة بذلك
- (27) يعتقد البرلمان أن الإجهاض عمل لا أخلاقي

المكان للمؤسسة:

- (28) لم ينبس البيت الأبيض ببنت شفة
- (29) هدد الكرملين بوضع حد للمحادثات
- (30) اهتزت وول ستريت هذه الأيام

المكان للحدث:

- (31) غيرت واترغيت سياسة أمريكا
- (32) لن نجعل التايلاند تصير فيتناما آخر
- (33) لنتذكر دائما لبنان

إن تصورات كنائية كهاته لها نفس النسقية التي نجدها في التصورات الاستعارية. فالجمل الواردة أعلاه لا تنتج صدفة، إنها أمثلة لتصورات كنائية عامة ننظم بواسطتها أفكارنا وسلوكنا. فالتصورات الكنائية تسمح لنا بتصور شيء من خلال ارتباطه بشيء آخر. فعندما نفكر في [لوحة لـ] بيكاسو فإننا لا نفكر في عمل فني في ذاته ولذاته، بل نفكر في علاقته بالرسام وتصوره للفن وتقنياته ودوره في تاريخ الفن. . إلخ. إننا نبدي احتراما تجاه [لوحة لـ] بيكاسو ولو كانت تشبه خربشات طفل في العاشرة، وذلك بسبب العلاقة التي تربط هذه الخربشات بالفنان. وبهذا تؤثر كناية المنتج للمنتوج على أفكارنا وسلوكنا في الوقت ذاته. مثل هذا يحصل حين تقول النادلة: «إن طبق الدجاج ينتظر فاتورة الحساب»، فهي هنا لا تتحدث عن الشخص المذكور كما لو كان أي شخص، إنها تتحدث عنه باعتباره زبونا فقط وهذا هو السبب الذي يجعل استعمال جملة كهاته ذا أثر غير مؤنسن (dehumanizing). ونيكسون لم يكن ذلك الشخص الذي ألقى بالقنابل على هانوي، إلا أن كناية المسؤول للمنفذ لا تتيح لنا أن نقول: «قنبل نيكسون هانوي» فحسب، بل تجعلنا نعتقد، أيضا، أنه هو الذي قام بالعملية، ونجعله مسؤولا عنها. وهذا ممكن، مرة أخرى، بسبب طبيعة العلاقة الكنائية في كناية المسؤول للمنفذ حيث يتم التركيز على المسؤولية

وبهذا، فالتصورات الكنائية، شأنها شأن الاستعارات، لا تبنين لغتنا فحسب، بل أيضا أفكارنا وسواقفنا وأنشطتنا. والتصورات الكنائية، أيضا مثل التصورات الاستعارية، قائمة على تجربتنا. وفي الواقع، فأساس هذا التصورات يكون، عموما، أكثر مباشرة من التصورات الاستعارية لكونها تعقد عادة علاقات فيزيائية أو سببية مباشرة. فكناية الجزء للكل، مثلا، تنبثق عن تجاربنا بخصوص الكيفية التي ترتبط بها الأجزاء بالكل عامة. وتقوم كناية المنتج للمنتوج على العلاقة السببية (والفيزيائية عادة) بين المنتج ومنتوجه. أما كناية المكان للحدث فأساسها موجود في تجربتنا حيث نموقع فيزيائيا الأحداث. وهكذا.

تشكل الرموز الثقافية والدينية حالات خاصة للكناية. ففي المسيحية نجد، مثلا، كناية العذراء للروح القدس. إن هذه الرمزية - كما الكنايات النمطية - ليست اعتباطية، بل تقوم على صورة العذراء في الثقافة الغربية، وتصور الروح القدس داخل الفكر الديني المسيحي. وهناك سبب من أجله تعد العذراء، وليس الدجاجة أو النسر أو النعامة، رمزا للروح القدس. فالعذراء تتصور جميلة، ودودة، وهادئة فوق كل هذا. وهي كالطائر مقرها الطبيعي في السماء، التي تقوم كنائيا مقام الجنة، المقر الطبيعي للروح القدس. العذراء طائر يحلق بلطافة، ويحوم بهدوء؛ ويرى، عادة، نازلا من السماء ومقيما بين الناس.

إن الأنساق التصورية للثقافات والديانات استعارية من حيث طبيعتها. والكنايات الرمزية تعد روابط حاسمة بين التجربة اليومية والأنساق الاستعارية المنسجمة التي تسم الديانات والثقافات. إن الكنايات الرمزية التي تنشأ داخل تجربتنا الفيزيائية تقدم وسائل جوهرية تتيح فهم التصورات الدينية والثقافية.

9 . اعْتِرَاضَاتٌ عَلَى الانْسِجَامِ الاسْتِعَارِي

سبق أن اقترحنا أدلة على أن الاستعارات والكنايات ليست عشوائية، بل تشكل أنسقة منسجمة نبني بواسطتها تصورنا عن تجربتنا. إلا أنه من السهل العثور على تنافرات واضحة في تعابيرنا الاستعارية اليومية. لم نقم بدراسة كاملة لهذا الأمر، ولكن التجارب التي نظرنا فيها بتفصيل وضحت لنا أنها ليست متنافرة بالكل، رغم أنها تبدو كذلك في الوهلة الأولى. ولننظر إلى مثالين من هذه الحالات:

1. تناقض استعاري واضح:

نبهنا شارل فيلمور Fillmore,C[1] (خلال مناقشة خاصة) أنه يبدو أن للإنجليزية تنظيمين متناقضين للزمن[2]. في التنظيم الأول، يتموقع المستقبل في الأمام والماضي في الخلف:[3]

1) شارل فيلمور لساني أمريكي معروف بما سمي نحو الأحوال (Case Grammar)، وهو نظرية نحوية ذات طبيعة دلالية بالأساس. وقد كان فيلمور من بين أوائل منتقدي النحو التوليدي في صيغته الأولى، حيث ألغى شومسكي الدلالة باعتبارها مكونا حاسما في النحو. ولفيلمور، وآخرين أمثال لايكوف وغروبر وجاكندوف، الفضل في إدماج المكون الدلالي في النحو التوليدي بالشكل الذي هو عليه الآن (هـ م).

2) وكذلك الأمر في اللغة العربية، كما سيتبين من خلال الترجمة العربية الحرفية تقريبا لمعطيات الأنجليزية. ونلاحظ أن هناك تطابقا لافتا للنظر بين اللغتين في ما يخص عددا كبيرا من المعطيات التي نورد مقابلات لها (هـ. م).

3) لننظر إلى الجملتين التاليتين:
أ - حاولوا أن تنظروا نحو المستقبل
ب - في السياسة يجب أن تنظر أمامك ولا تلتفت إلى الوراء
المستقبل أمامنا في الجملة (أ)، والدليل أننا ننظر إليه، وما يُنظر إليه لا يمكن أن يكون خلفنا بل أمامنا لأن عيوننا تنظر باتجاه الأمام وليس باتجاه الوراء أو باتجاه اليمين أو الشمال... إلخ. وهذا ناتج عن هندسة أجسادنا وموقع عيوننا داخل هذه الهندسة. ولكن، لو أردت أن أنظر إلى الماضي فإنه علي أن ألتفت لأنه في الوراء، وذلك ما يوضحه الجزء الثاني من الجملة (ب). ففي هذا التنظيم نتصور ما يأتي من أمامنا (وليكن شخصا أو زمنا) مستقبلا، وحين يغادرنا ويمضي يصبح ماضيا. والزمن الذي نستقبله شيء متحرك باتجاه أمامنا (كي ننظر إليه، لأننا لا نتحرك في هذا التنظيم)، وحين يمضي يصبح وراءنا وذلك لأن الزمن له توجه واحد وهو أمام ـ وراء، فما يأتي من أمامنا ويظل متحركا ولا يغير اتجاهه ونحن لا نتحرك فإنه حين يمضي (أي يغيب عن نظرنا) لن يكون إلا وراءنا وليس بجانبنا أو فوقنا أو تحتنا. (هـ. م).

ـ (1) أمامنا بعض الأسابيع (مستقبل)
ـ (2) كل ذلك هو الآن وراءنا (ماض)

وفي التنظيم الثاني، يتموقع المستقبل في الخلف والماضي في الأمام:
ـ (3) في الأسابيع التالية (أي التي نتبع) (مستقبل)
ـ (4) في الأسابيع الماضية (أي التي مضت وذهبت) (ماض).[4]

يبدو أن الأمر هنا يتعلق بتناقض في التنظيم الاستعاري للزمن. وإضافة إلى ذلك، فهذه الاستعارات التي تبدو متناقضة قد تتآلف مع بعضها دون أن يكون لذلك أثر شيء، كما في:

ـ (5) لنلق نظرة أمامنا باتجاه الأسابيع التي ستتلو

يبدو أن عبارة «أمامنا»، هنا، تضع المستقبل في الأمام، في حين نضعه عبارة «نتلو» في الخلف

ولكي نرى أنه يوجد فعلا انسجام هنا، علينا أن نفحص، أولا، بعض المعطيات المرتبطة بالتنظيم أمام ـ خلف. فبعض الأشياء، مثل الناس والسيارات، تملك أماما وخلفا، وبعض الأشياء الأخرى لا تتوفر على ذلك. وقد نسند، أحيانا، إلى حجر التنظيم أمام ـ خلف في إطار ملابسات معينة. هب أنك تنظر إلى حجر من حجم متوسط، وأنه توجد كرة بينك وبين الحجر ـ ولتكن على بعد قدم من الحجر. إذن، من الملائم بالنسبة إليك أن تقول: «الكرة أمام الحجر» فقد تلقى الحجر التوجه أمام ـ خلف، كما لو كان له أمام يواجهك. وهذه الظاهرة ليست كلية. هناك لغات، مثل الهاوسا (Hausa) [وهي لغة إفريقية]، حيث يسند إلى الحجر توجه مناقض، فنقول إن الكرة توجد وراء الحجر إذا وُجد بينك وبين الكرة

تتلقى الأشياء المتحركة، عموما، التوجه أمام ـ خلف، فيكون الأمام موجودا في اتجاه الحركة (أو في الاتجاه العادي للحركة، بحيث تحتفظ سيارة متجهة نحو الوراء بأمامها) والقمر الصناعي الكروي الشكل، مثلا، ليس له أمام أثناء توقفه، ولكن يصبح له أمام حين يدخل في مداره، وذلك باعتبار الاتجاه الذي يتحرك فيه.

يتبين، الآن، أن الزمن في الأنجليزية [وفي العربية كما تبينه الأمثلة المترجمة] مُبَنْيَنٌ بواسطة استعارة الزمن شيء متحرك، والمستقبل يتحرك باتجاهنا:
ـ (6) سيأتي الوقت الذي...
ـ (7) لقد مر وقتٌ منذ...
ـ (8) جاء وقت العمل

4) إذا كانت الأسابيع المقبلة موالية أي تابعة فمعنى ذلك أنها في الوراء، أي أنها «تأتي بعد» الزمن الحاضر، وإذا غادرت موقع الوراء الذي تشغله فستكون في موقع الأمام لأن الزمن يسير في اتجاه واحد، وهو أمام ـ وراء ونرجو أن يُتم الانتباه، هنا، إلى المعنى «الحقيقي» للألفاظ المركزية في المعطيات التي نمثل بها. (هـ. م)

فقولنا «الوقت يمضي بسرعة مذهلة» يعد مثالا على استعرة الزمن شيء متحرك.

وبما أننا نواجه المستقبل [المتحرك نحونا] فإننا نقول:

ـ (9) ما سيحصل في الأسابيع القادمة هو ..

ـ (10) أنتظر قدوم عيد الميلاد بشغف

ـ (11) أمامنا فرصة، ويجب ألا ندعها تمر

يتلقى الزمن الاتجاه أمام ـ خلف، وأمامه يوجد في اتجاه الحركة، وذلك بمقتضى استعارة الزمن شيء متحرك؛ وهو في ذلك كباقي الأشياء المتحركة وبهذا يواجهنا المستقبل ويتحرك نحونا، ولهذا نجد عبارات من قبيل

ـ (12) لا أستطيع مواجهة المستقبل

ـ (13) وَجهُ الأشياء التي نأتي .

ـ (14) يجب ملاقاة المستقبل وجها لوجه

وإذا كانت تعابير مثل «أمامنا»، و«أنظر نحو»، و«قبلنا» تُوجه الأزمنة بالنظر إلى الناس، فإن تعابير مثل «يسبق» و«يلي» تُوجه الأزمنة بالنظر إلى الأزمنة وهكذا نجد أمثلة نحو:

ـ (15) الأسبوع القادم والأسبوع الذي يليه أو يعقبه

ولا نجد أمثلة من قبيل:

ـ (16) الأسبوع الذي يتبعني (أو يليني)

وبما أن الأزمنة القادمة تواجهنا، فالأزمنة التي نليها ستكون في المستقبل البعيد؛ وكل الأزمنة المستقبلة تلي الحاضر. ولهذا تفيد الأسابيع الموالية نفس ما تفيده الأسابيع التي أمامنا.

نستخدم هذا المثال، ليس للاستدلال على أنه لا يوجد تناقض بين الاستعارتين فحسب، بل لنبين كذلك كل التفاصيل الدقيقة المطلوبة: استعارة الزمن شيء متحرك، واتجاه أمام ـ خلف المسند إلى الزمن باعتباره شيئا متحركا. والانطباق المتلائم لألفاظ مثل يلي، ويسبق، ويواجه حين نُسقطها على الزمن اعتمادا على هذه الاستعارة. وكل هذه البنية الاستعارية المتلائمة التفاصيل تشكل جزءا من لغتنا الحرفية اليومية حول الزمن، وهي مألوفة لدينا إلى درجة أننا لا ننتبه إليها عادة.

2 . الانسجَام أو التّلاؤُم:

بينا أن لاستعارة الزمن شيء متحرك تلاؤما داخليا إلا أن هناك طريقة أخرى نتصور بها مرور الزمن:

الزمن ساكن ونحن نتحرك عبره:

ـ (17) إذا تقدمنا عبر السنوات. .

ـ (18) إذا دخلنا في الثمانينيات. . .

ـ (19) إننا نقترب من نهاية السنة

بهذا نكون قد أعطينا حالتين فرعيتين لمرور الزمن: في الأولى، نحن نتحرك والزمن ساكن؛ وفي الثانية، الزمن يتحرك ونحن ساكنون. وما يجمع بينهما هو نسبية الحركة بالنسبة لنا، ووجود المستقبل في الأمام والماضي في الوراء. ومعنى هذا أنهما حالتان فرعيتان داخل نفس الاستعارة، وذلك ما تبينه الخطاطة التالية:

من وجهة نظرنا، الزمن يتخطانا
من الأمام إلى الوراء

الزمن شيء متحرك
يتحرك باتجاهنا

الزمن ساكن ونحن
نتحرك عبره في اتجاه المستقبل

وبعبارة أخرى فإن الاستعارتين تشتركان في اقتضاء مهم. فكلاهما تقتضي، من وجهة نظرنا، أن يتجاوزنا الزمن من الأمام إلى الوراء.

ورغم أن الاستعارتين ليستا متلائمتين منطقيا (أي لا يشكلان صورة واحدة)، إلا أنهما «تتوافقان» باعتبارهما مقولتين فرعيتين داخل مقولة رئيسية، وبهذا تشتركان في اقتضاء مهم. هناك فرق بين الاستعارات التي تكون منسجمة (أي تلك التي «تتوافق») مع بعضها، وتلك الاستعارات التي تكون متلائمة منطقيا. ويبدو لنا أن الصلات بين الاستعارات صلات انسجام وليست صلات تلاؤم منطقي.

وللمزيد من الأمثلة، ننظر في استعارة أخرى:

الحب سفر:

ـ (20) انظر كم سرنا!

ـ (21) نحن في مفترق الطرق الآن

ـ (22) وكل منا سيختار طريقه

ـ (23) لن نتمكن من الرجوع إلى الوراء الآن

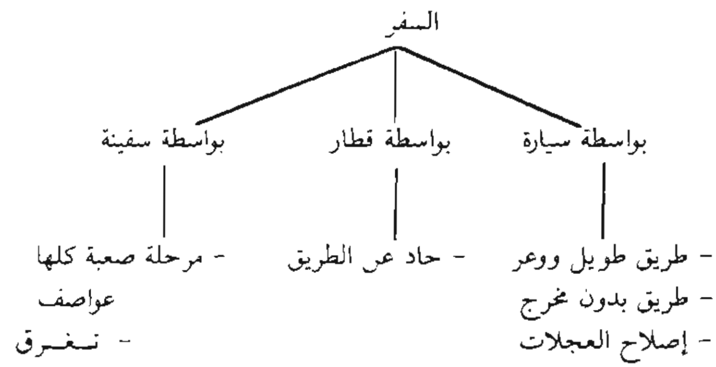
ـ (24) أعتقد أن هذه العلاقة لن تغادر مكانها

ـ (25) أين نحن؟

ـ (26) لقد أرهقنا المسير

ـ (27) لقد كان طريقا طويلا ووعرا
ـ (28) إنه ليس فراقا دائما، ولكننا توقفنا لإصلاح العجلات فقط
ـ (29) لقد حادت هذه العلاقة عن الطريق الذي رُسم لها
ـ (30) يجتاز حبنا الآن مرحلة صعبة كلها عواصف
ـ (31) علاقتنا تغرق الآن

الاستعارة الأساسية، هنا، هي استعارة السفر، ولكن يمكن للإنسان أن يسافر بطرق متعددة: بواسطة سيارة، أو بواسطة قطار، أو بواسطة سفينة



مرة أخرى، نجد أنه لا توجد صورة واحدة تتلاءم مع كل استعارات السفر. وما يجعل هذه الاستعارات منسجمة أنها كلها استعارات سفر، رغم أنها تعتمد على وسائل سفر مختلفة. ونفس الشيء يحصل بالنسبة لاستعارة الزمن شيء متحرك إذ إن الشيء قد يتحرك بطرق مختلفة. وبهذا نجد أن الزمن يذهب بسرعة، أو يزحف، أو يتقدم تدريجيا(5) وبصفة عامة، فالتصورات الاستعارية لا تحدد عن طريق صور ملموسة (كالإسراع، أو الزحف، أو السير على الطريق... إلخ)، ولكن عن طريق مقولات أعم مثل المرور.

5) ليست هذه هي الحركات الوحيدة التي يمكن أن يقوم بها الزمن. فهو قد «يطير» كما تعبر عن ذلك الجملة الأنجليزية التي لم أتمكن من ترجمتها نظرا إلى عدم حصولي على مقابل لها في العربية: "time flies"، أو الجملة الفرنسية: "le temps s'envole". وإذا كنا لا نجعل الزمن «يطير» في العربية فإنه «يطير» في الدارجة المغربية إذ نقول: «الوقت كيْطِيرْ» (أي ينقضي بسرعة). (هـ.م)

10 . بَعْضُ الأمْثِلَة الإضَافِية

رأينا، سابقا، أن الاستعارات تُبَنْيِن جزئيا تصوراتنا اليومية. وهذه البنية تُعْكَس في لغتنا الحرفية. وقبل إعطاء صورة عامة عن المقتضيات الفلسفية لما رأيناه، نحتاج إلى المزيد من الأمثلة وسنذكر في كل مثال من الأمثلة التي نوردها الاستعارة المعنية، ونتبعها بلائحة من التعابير العادية التي تعد حالات خاصة في هذه الاستعارة إن التعابير نوعان[1]: تعابير حرفية بسيطة وتعابير مسكوكة، وكلا النوعين يتطابق مع الاستعارة ويشكل جزءا من الكيفية اليومية العادية في الحديث عن الموضوع [المطروح]

النظريات والاستدلالات بنايات:

- (1) هل هذا هو أساس نظريتك؟
- (2) تحتاج النظرية إلى مرتكزات إضافية
- (3) هذه الحجة متصدعة
- (4) نحتاج إلى معطيات أخرى وإلا انهار استدلالنا وسقط
- (5) نحتاج إلى بناء استدلال متين على هذه الفكرة
- (6) لا أستطيع أن أعرف الشكل الذي ستتخذه هذه النظرية
- (7) هذه الوقائع قد تدعم النظرية
- (8) ستصمد النظرية أو تهوي بحسب قوة استدلالها
- (9) لقد هدموا آخر نظرياته
- (10) سنبين أن هذه النظريات لا ترتكز على أساس
- (11) ما فعلناه لحد الآن هو وضع الإطار العام لهذه النظرية

1) يقول المؤلفان: «إن التعابير في الإنجليزية نوعان» وقد حذفت «الإنجليزية» فالمؤلفان لا يسوقان هذه اللغة هنا باعتبارها اللغة الوحيدة التي تعرف هذين النوعين من التعابير، بل باعتبارها اللغة المدروسة لديهما فقط. فكل اللغات لها تعابير حرفية وتعابير مسكوكة أو متحجرة (أو جاهزة كما يسميها البعض) (هـ.م)

الأفكار أغذية:

- (12) لقد تذوقت تلك الأفكار
- (13) كل ما يتضمنه المقال أفكار فجة ومعطيات يلوكها كل الناس
- (14) إنهم يقتاتون على فتات الفلسفة الإغريقية القديمة
- (15) لم أهضم ما قاله لي
- (16) لا تكترث بهذ الأفكار المطبوخة فهي غالبا ما تكون مسمومة
- (17) أشم في حججه نتانة
- (18) هذا غذاء جيد للعقل
- (19) استعصى علي ابتلاع هذه النظرية
- (20) إنه قارئ نهم
- (21) لقد التهم هذا الكتاب
- (22) لا تقدم لي أفكارك على صحن من ذهب
- (23) دع هذه النظرية تنضج قليلا
- (24) كانت هذه الفكرة تختمر لمدة سنوات في ذهني

وفي ما يرتبط بالحياة والموت، تعد الأفكار كائنات حية، فهي تارة أشخاص وتارة أخرى نباتات.

الأفكار أشخاص

- (25) أنجبت النظرية النسبية عددا هائلا من الأفكار في حقل الفيزياء
- (26) إنه أب البيولوجيا الحديثة
- (27) انظر إلى أفكاره كيف تناسلت
- (28) لقد ماتت أفكاره في مهدها
- (29) ستظل أفكاره حية
- (30) لايزال علم النفس المعرفي طفلا الآن بالمقارنة مع علوم أخرى
- (31) يجب أن نبعث هذه الفكرة من جديد
- (32) لقد نفخ في هذه النظرية حياة جديدة

الأفكار نباتات

- (33) أما آن لأفكاره أن تعطي ثمارا؟
- (34) ماتت هذه الفكرة إذا لم تجد من يسقيها
- (35) هذه أول ثمار هذه النظرية
- (36) كان يجب أن ننتظر سنينا كي يزهر فكر هذا الفيلسوف
- (37) هناك من يعتبر الكيمياء فرعا من الفيزياء

ـ (38) للرياضيات عدة فروع وأغصان
ـ (39) لقد زرع بذور أفكاره منذ زمن طويل
ـ (40) لها خيال خصب
ـ (41) وهذه فكرة أردت أن أغرسها في ذهنك
ـ (42) خيالك قاحل، يا أخي

الأفكار منتوجات:

ـ (43) إننا بصدد وضع صنع، تخمير، مخض أفكار جديدة
ـ (44) دع هذه الأفكار تختمر في ذهنك
ـ (45) تمخضت عدة أفكار عن هذا الاجتماع
ـ (46) إنه سريع الإنتاج
ـ (47) لقد تصاعد إنتاجه الثقافي في السنوات الأخيرة
ـ (48) يجب أن تصقل هذه الفكرة جيدا
ـ (49) هذه فكرة خام ويجب أن تصفى قبل طرحها عليهم
ـ (50) لقد روجنا أفكاراً كثيرة

الأفكار بضائع

ـ (51) تم تبادل وجهات النظر حول الموضوع
ـ (52) هذه الفكرة لا قيمة لها
ـ (53) كان دائما مصدر أفكار قيمة
ـ (54) الأفكار الجيدة تجد دائما سوقا تتداول فيها
ـ (55) لن يشتري منك أحد هذه الأفكار
ـ (56) لن أعطي مقابل هذه الفكرة سنتيما واحدا
ـ (57) إنتاجك لا يصل إلى السوق الثقافية في المغرب

الأفكار موارد

ـ (58) نفذت أفكاره
ـ (59) لا تضيع أفكارك في المشاريع الصغيرة
ـ (60) يجب تجميع هذه الأفكار
ـ (61) لقد استنفذنا كل أفكارنا
ـ (62) هذه الفكرة لا تصلح لشيء

الأفكار مال

ـ (63) إنه غني بأفكاره
ـ (64) هذا الكتاب كنز نفيس

- (65) إنه ثروة فكرية هائلة
- (66) لقد كان في غنى عن أفكارك التوجيهية

الأفكار أدوات باترة

- (67) إنها فكرة قاطعة
- (68) له ذكاء حاد
- (69) أفكار حاسمة وجريئة
- (70) إنه يفصل بفكره الثاقب في جميع المواضيع الساخنة

الأفكار موضات

- (71) هذه الفكرة أكل الدهر عليها وشرب
- (72) إنها فكرة عتيقة
- (73) ما هي الاتجاهات الجديدة في النقد الأنجليزي؟
- (74) المفاهيم البالية لا مكان لها في مجتمعنا الحالي
- (75) إنه يظل مسايرا عن طريق قراءة جميع الإصدارات
- (76) معهد بيركلي هو مركز الفكر الطليعي
- (77) أصبحت السيميائيات أنيقة الآن
- (78) وصلت شهرة النحو التحويلي إلى أوربا في السنوات الأخيرة
- (79) لم تعد فكرة الثورة رائجة في أمريكا
- (80) لقد هجر الناس هذه الأفكار الآن

الفهم رؤية وإبصار، والأفكار مصادر ضوء، والخطاب ينقل الضوء

- (81) لقد عنتْ لي نفس الفكرة
- (82) في نظري، يبدو أن المسألة. . .
- (83) ما هي وجهة نظرك في الموضوع؟
- (84) إنني أرى الأمر بشكل مخالف
- (85) لقد أعطاني صورة واضحة عن المشكل
- (86) دعني أبين لك بعض الأشياء التي تجهلها
- (87) إنها إطلالة جيدة على الموضوع
- (88) كانت أفكارهم نيرة
- (89) الاستدلال ظاهر
- (90) كانت المناقشة غامضة
- (91) هل بإمكانك توضيح ملاحظاتك؟
- (92) لقد قدم استدلالا شفافا

الحب قوة فيزيائية مغناطيسية كهربائية، تمارس جاذبية... إلخ
- (93) كنت أحس بمرور التيار بيننا
- (94) لقد جذبت نحوها كما لو كانت مغناطيسا
- (95) لقد كنا مجذوبين بقوة نحو بعضنا
- (96) هناك طاقة كبيرة تحرك الصلات الموجودة بينهما
- (97) لقد فُقِد ذلك الزخم الذي كان يربطهما
- (98) كان الجو مشحونا بينهما
- (99) إنها جذابة

الحب مريض
- (100) إنها علاقة مرضية
- (101) كان زواجهما متينا ولا يشكو من شيء
- (102) حبهما الآن يحتضر
- (103) لقد مات حبهما ولا يمكن بعثه من جديد
- (104) علاقتهما في تحسن ملموس
- (105) تجتاز علاقتهما مرحلة فتور
- (106) أتمنى أن يكون زواجك في كامل العافية

الحب جنون
- (107) لقد جُنَّ بها
- (108) إنها أفقدته صوابه
- (109) إنه يهذي بها طول الوقت
- (110) لقد خبلت عقله
- (111) إنني أحبه بجنون

الحب سحر
- (112) لقد رمتني بسحرها
- (113) كان مفتونا بها
- (114) لقد سلبته لبه
- (115) سحرته بجمالها
- (116) أنت فاتنة
- (117) كان كالمسحور
- (118) تملكه الهوى

الحب حرب

ـ (119) هذا الرجل معروف بفتوحاته النسائية

ـ (120) قاومتْ من أجل الحفاظ عليه إلا أن المرأة الأخرى ربحت المعركة

ـ (121) لقد حاصرها طالبو الزواج

ـ (122) إنه يأسر قلوب النساء

ـ (123) جعلته تمهيداتها يفر

ـ (124) لقد طاردته بضراوة

ـ (125) جعل من أمها حليفا له

ـ (126) غنم قلبها

ـ (127) تم له إخضاعها أخيرا (= أسقطها في حبه)

ـ (128) هذا الحب غير متكافئ

الثروات أشياء مخفية

ـ (129) إنه يبحث عن الثروة

ـ (130) لقد عثر أخيرا على الغنى والمجد

ـ (131) لقد فقد ثروته

الشيء المهم كبير

ـ (132) إنه من كبار المستثمرين في صناعة اللباس

ـ (133) إنها أضخم فكرة ظهرت في الإشهار منذ سنين

ـ (134) هذا الشخص يشرف على كل أعضاء مهنته

ـ (135) إنها كذبة بيضاء صغيرة جدا

ـ (136) ذُهل من جسامة الجريمة

ـ (137) هذا حدث ضخم في تاريخ كأس العالم

الرؤية لمس، والعيون أعضاء من الجسم [مثل الأطراف]

ـ (138) لم أستطع إزالة عينيّ عن هذه اللوحة

ـ (139) لقد ألصق عينيه بالتلفزة

ـ (140) كانت عيناه تكشفان جسدها

ـ (141) إذا العين بالعين تلتقي

ـ (142) عيناها لم تفارقاه طوال الوقت

ـ (143) جال بنظره على محتويات الغرفة

ـ (144) لقد أصابته عين

العيون أوعية للأحاسيس

ـ (145) قرأت الخوف في عينيه

ـ (146) كانت نظراته مليئة بالحزن

ـ (147) رأيت في عينيه شغفا كبيرا

ـ (148) لم تفارق الدهشة عينيه

ـ (149) كانت عيناه تتدفقان حبا

ـ (150) وكان الحب ظاهرا في عينيه

الأثر العاطفي اتصال فيزيائي

ـ (151) كان موت أمه ضربة قاسية

ـ (152) كان فراقه لي طعنة لم أكن أنتظرها

ـ (153) لقد ترك بصماته على من عاشروه

ـ (154) قَلَب حياتي رأسا على عقب

ـ (155) لقد صدمتني صراحته

ـ (156) لقد طبع حياته حتى بعد وفاته

الحالات الفيزيائية والعاطفية كيانات داخل الشخص

ـ (157) أشكو من ألم في ذراعي

ـ (158) ذهب عني الألم فجأة

ـ (159) رجع إليه الاكتئاب من جديد

ـ (160) الشاي الساخن والعسل يخلصانك من السعال

ـ (161) لا أريد أن ترحل البسمة عنك

ـ (162) عاودته تخوفاته

ـ (163) لم تَسَعْهُ الفرحة

ـ (164) علي أن أتخلص من هذه الحالة التي تلازمني

ـ (165) العسل يطرد جميع الأمراض

ـ (166) يجب أن تحترس كي لا تنقل إلي الزكام

الحيوية مادة

ـ (167) إنه يفيض نشاطا

ـ (168) إنه يطفح بالحيوية (أو يزخر بها)

ـ (169) لا أوفر طاقاتي في العمل

ـ (170) إنه خال من كل حيوية

ـ (171) لقد استنفد كل طاقاته بعد أن أضناه العمل

الحياة وعاء

- (172) حياتي زاخرة بالأحداث
- (173) هذا الإنسان يشكو من فراغ في حياته
- (174) لم يعد ينتظر الشيء الكثير من هذه الحياة
- (175) خذ من الحياة ملذاتها
- (176) كانت حياته مليئة بالأسى
- (177) حياتنا مكدسة بالمشاكل

الحياة لعبة صدفة (أو قمار)

- (178) أضعت جميع الفرص
- (179) كل الحظوظ متكافئة في الحياة
- (180) إذا قمت بدورك أحسن قيام فلا شك ستنجح
- (181) لم يسعفني الحظ
- (182) كنت أحتكر كل الأوراق الرابحة
- (183) أنا الخاسر الوحيد
- (184) الآن، أكشف جميع أوراقي
- (185) لم يخرج الرئيس جميع أوراقه
- (186) إنه لا يصل إلى مآربه إلا بالخداع
- (187) إننا نراهن على المستقبل
- (188) ربحنا الرهان

لدينا، في هذه المجموعة الأخيرة من الأمثلة، سلسلة من «صيغ الخطاب»، أو «العبارات المسكوكة»، أو «الجمل الجاهزة». وهي تشتغل كل واحدة بطريقتها، كما لو كانت كلمات واحدة. وللغة آلاف التعابير من هذا القبيل. في هذه الأمثلة، تتم بَنْيَنَةُ صيغ جاهزة بطريقة منسجمة بواسطة تصور استعاري واحد. ورغم أن كل صيغة تعدّ مثالا لاستعارة الحياة لعبة صدفة، فإن هذه الصيغ تستخدم عادة للحديث عن الحياة وليس للحديث عن مواقف معينة في اللعبة. إنها طرق عادية في الحديث عن مواقف الحياة، كما هو الشأن بالنسبة لاستخدام لفظ «بنى» الذي يشكل طريقة عادية في الحديث عن النظريات. بهذا المعنى نُدخل هذه الاستعارة في ما سميناه العبارات الحرفية المبنيَنة بواسطة تصورات استعارية. فإذا قلتَ: «الحظ يعاكسني»، أو «سأجرب حظي» فإننا لا نقول إنك تتحدث استعاريا، ولكن سنقول إنك تستعمل اللغة العادية واليومية التي تليق بهذا الموقف، إلا أن طريقتك في الحديث، وفي الإدراك [والتصور]، وحتى في عيش وتجريب هذا الموقف، مُبَنْيَنَة استعاريا.

11 . الطّبيعَةُ الـجُزْئيّة للبَنْيَنة الاسْتِعَارِية

عالجنا، لحد الآن، الطابع النسقي للتصورات المحدَّدة استعاريا. هذه التصورات تُفهَم بواسطة استعارات مختلفة (مثل: الزمن مال، والزمن شيء متحرك... إلخ). والبنينة الاستعارية للتصورات جزئية بالضرورة، ويعكسها معجم اللغة، بما في ذلك جزؤه "المركب" الذي يتضمن عبارات متحجرة من قبيل: "هذا الشيء لا أساس له". ولكون التصورات مبنيَنة استعاريا بطريقة نسقية، كما في النظريات بنايات، فإننا نستعير عبارات مثل بنى وأساس من مجال خاص (هو البنايات) للحديث عن تصورات تقابلها في مجال آخر تم تحديده استعاريا (وهو النظريات). فما يفيده لفظ "أساس"، مثلا، في المجال المحدَّد استعاريا (أي النظرية) سيرتبط بالكيفية الدقيقة التي يُستعمل بها التصور الاستعاري النظريات بنايات لبنينة تصور النظرية.

إن العناصر التي تنتمي إلى تصور البناية والتي تُستعمل لبنينة تصور النظرية هي الأسس والهياكل، أما السقف والغرف الداخلية والسلالم والردهات فعناصر بناء مهملة في تصور النظرية. وبهذا فإن استعارة النظريات بنايات تملك جزءا مستعملا (وهو الأسس والهياكل) وجزءا مهملا (وهو الغرف والسلالم، ... إلخ). وتعد عبارات من قبيل بنى وأسس أمثلة على الجزء المستعمل من هذا التصور الاستعاري. وتشكل بذلك طريقة من طرقنا العادية والحرفية في حديثنا عن النظريات.

ولكن، ماذا عن العبارات اللغوية التي تنتمي إلى الجزء المهمل في استعارة النظريات بنايات؟ في ما يلي أربعة أمثلة:

- (1) نجد في نظريته عددا هائلا من الغرف الصغيرة والدهاليز الطويلة المتعرجة
- (2) تتخذ نظريته أسلوب بوهوس (المعماري) نظرا إلى بساطته الوظيفية
- (3) تشكو النظريات المعقدة دائما من مشاكل في الشبكة المائية
- (4) إنه يفضل النظريات القوطية المكسوة بالميازيب

تتموقع هذه الجمل خارج مجال طرق حديثنا الحرفية، وتنتمي إلى ما نسميه عادة اللغة "المجازية" أو "التخييلية". من هنا، فإن العبارات الحرفية (مثل "بنى نظرية") والعبارات التخييلية (مثل "نظرية مكسوة بالميازيب") قد تكون أمثلة داخل نفس الاستعارة العامة (وهي هنا النظريات بنايات).

وهنا يمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع فرعية داخل الاستعارة التخييلية (أو غير الحرفية):

1. توسيع الجزء المستعمل في الاستعارة، كأن نقول: «هذه الأشياء تشكل اللبنات والملاط في نظريتي». وهنا نشير إلى هيكل البناية، وإن كانت استعارة النظريات بنايات لا تذهب إلى حد الإشارة إلى المواد المستعملة في البناء.

2. استعمال أجزاء مهملة في الاستعارة الحرفية، كقولك مثلا: «تحتوي نظريته على غرف كثيرة ودهاليز طويلة متعرجة».

3. خلق استعارة جديدة، استعارة لا تُستعمل في بنية نسقنا التصوري العادي، بل تكون طريقة جديدة للتفكير في شيء معين. ومثال ذلك أن نقول: «النظريات التقليدية أبيسية، إنها تلد العديد من الأطفال الذين يحاربون بعضهم باستمرار».

إن كل فرع من هذه الفروع الثلاثة يتموقع خارج الجزء المستعمل من التصور الاستعاري الذي يبنين نسقنا التصوري العادي.

ونسجل، في عجالة، أن كل التعابير التي أتينا بها لتخصيص التصورات الاستعارية العامة تعابير مجازية، كما في الزمن مال، والزمن شيء متحرك، والسلطة فوق، والأفكار أغذية، والنظريات بنايات، ... إلخ. ولا واحدة منها حرفية. وهذا الأمر ناتج عن كون جزء منها فقط هو الذي يستعمل في بنية تصوراتنا العادية. وبما أنها تتضمن بالضرورة أجزاء مهملة في تصوراتنا العادية فإنها تتجاوز المجال الحرفي.

إن كل تعبير من التعابير الاستعارية التي تحدثنا عنها أعلاه (مثل: سيأتي الوقت، أو إننا نبني نظرية، أو نصارع فكرة) نجده مستعملا داخل نسق شامل من التصورات الاستعارية، وهي تصورات نستعملها عادة في حياتنا وتفكيرنا. وهذه التعابير، شأنها شأن كل الألفاظ والتعابير الجاهزة في اللغة، تثبت بالتواضع. وبالإضافة إلى هذه الحالات التي تشكل جزءا من الأنسقة الاستعارية الشاملة، نجد تعابير استعارية فُرادية (idiosyncratic) تبقى منعزلة ولا تستعمل بشكل نسقي في لغتنا أو فكرنا. وهناك أمثلة جد معروفة لهذه التعابير مثل قدم الجبل، ورأس الكرنب (أو الثوم)، ورجل الطاولة، ... إلخ. تشكل هذه التعابير حالات معزولة من التصورات الاستعارية، حيث نجد مثالا لجزء مستعمل واحد (وربما اثنين أو ثلاثة). وهكذا نجد أن قدم الجبل هو الجزء المستعمل من استعارة الجبل شخص. فنحن، في خطابنا العادي، لا نتحدث عن وجه الجبل أو كتفيه أو ساقه، مع العلم أنه في سياقات خاصة قد نبني تعابير استعارية جديدة ترتكز على هذه الأجزاء المهملة. فمتسلقو الجبال، مثلا، يتحدثون عن كتف الجبل (أي ذلك الجزء الناتئ في جانب الجبل قرب قمته)، ويتحدثون عن قهر الجبل وغزوه، وأن الجبل قد يذهب إلى حد قتل أحدهم. وهم في ذلك يستعملون مظهرا من مظاهر استعارة الجبل شخص. كما نجد في الرسوم المتحركة مواضعات معينة تجعل الجبال تصير كائنات حية فتظهر قممها

وجوها. إن المسألة هنا ترتبط باستعارات (مثل الجبل شخص) تكون هامشية في ثقافتنا ولغتنا، والجزء المستعمل من هذه الاستعارات قد يتكون من عبارة واحدة متحجرة تم التواضع بشأنها في اللغة. وهذه الاستعارات لا تتفاعل نسقيا مع تصورات استعارية أخرى لأن جزءا صغيرا جدا منها هو الذي يتم استعماله وهذا يجعل هذه الاستعارات غير مهمة نسبيا بالنسبة لما نرومه، ولكنها ليست غير مهمة على الإطلاق، وذلك لأنه قد يتم توسيعها لتشمل أجزاء مهملة، وتساهم في بناء عبارات استعارية جديدة، أو في صنع ألعاب ذهنية، ... إلخ. وقدرتنا على توسيعها لتشمل الأجزاء المهملة تدل على أنه رغم كونها هامشية فإن لها وجودا.

إن أمثلة من قبيل «قدم الجبل» أمثلة فُرادية وغير نسقية ومعزولة. فهي تتفاعل مع الاستعارات الأخرى، ولا تلعب أي دور مهم في نسقنا التصوري. وهي بذلك ليست استعارات نحيا بها. إن العلامات الوحيدة للحياة في هذه الاستعارات أنه بالإمكان توسيعها في الثقافات الفرعية، كما أن الأجزاء المهملة منها قد تنفع كأساس لبناء استعارات جديدة (مهمة نسبيا). وإذا كانت هناك تعابير استعارية تستحق أن ننعتها بكونها "ميتة" فهي هذه. وإذا كانت عليها بعض علامات الحياة فذلك لكونها تُفهَم جزئيا بواسطة تصورات استعارية هامشية مثل الجبل شخص.

ومن الأهمية بمكان أن نميز هذه الحالات المعزولة وغير النسقية من العبارات الاستعارية النسقية التي ناقشناها سابقا فعبارات مثل تضييع الوقت، أو مهاجمة رأي فلان، أو ليمش كل في طريقه، ... إلخ، تعتبر انعكاسات للتصورات الاستعارية النسقية التي تُبنين أنشطتنا وفكرنا. إنها "حية" بالمعنى الجوهري للكلمة: فهي استعارات تجعلنا نحيا. ولأنها مثبتة بالتواضع في معجم اللغة، فإن هذا لا يحرمها من الحياة [فينا].

12 . كَيْفَ يَتِمُّ تَأْسِيسُ نَسَقِنا التَّصَوُّري؟

دافعنا عن كون جزء كبير من نسقنا التصوري العادي مُبَنْيَنَ استعاريا، أي أن جل التصورات تُفهَم، جزئيا، بواسطة تصورات أخرى وهنا يطرح سؤال مهم يرتبط بأساس نسقنا التصوري. وهذا السؤال هو: هل هناك تصورات نفهمها مباشرة بدون استعارة؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فكيف نتمكن من فهم أي شيء على الإطلاق؟

إن أول ما نرشحه من التصورات التي تُفهَم بشكل مباشر هي التصورات الفضائية البسيطة، مثل فوق. فالتصور الفضائي فوق نابع من تجربتنا الفضائية. فنحن نملك أجسادا، ونقف منتصبين، وكل حركة نقوم بها تتطلب، في الغالب، برنامجا حركيا قد يغير من اتجاهنا فوق-تحت، أو يحافظ عليه، أو يقتضيه، أو يأخذه بعين الاعتبار بشكل من الأشكال. فنشاطنا الفيزيائي المستمر في العالم قائم، حتى خلال نومنا، على الاتجاه فوق-تحت الذي ليس واردا في نشاطنا الفيزيائي فحسب، بل إنه مركزي فيه. ومركزية هذا الاتجاه في برامجنا الحركية، وفي "اشتغالنا" [وفعلنا] اليومي، قد يجعلنا نعتقد أنه لا يمكن أن يوجد ما يعوضه. موضوعيا، توجد رغم ذلك أطر ممكنة عديدة في الاتجاه الفضائي، بما في ذلك التناظرات الديكارتية (Cartesian coordinates) التي لا تملك في ذاتها الاتجاه فوق-تحت. فالتصورات الفضائية البشرية تتضمن، بالإضافة إلى الاتجاه فوق-تحت، الاتجاهات أمام - وراء، وداخل - خارج، وقريب - بعيد، . . إلخ. وهذه التصورات هي التي نستخدمها في اشتغالنا الجسدي اليومي المستمر. وهذا الاشتغال هو الذي يعطي أسبقية لهذه التصورات على بَنْيَنات فضائية أخرى ممكنة لدينا. وبعبارة أخرى، فإن بنية تصوراتنا الفضائية تنبثق من تجربتنا الفضائية المستمرة، أي من تفاعلنا مع محيطنا الفيزيائي. والتصورات التي تنبثق بهذه الكيفية تجعلنا نعيش بالطريقة الأكثر جوهرية.

وبهذا، لا نفهم [التصور] فوق عن طريق [تصور] العلو المجرد فحسب، بل كذلك باعتباره منبثقا من مجموع الوظائف الحركية التي تنتج عن وضعنا المنتصب بالنظر إلى حقل الجاذبية الذي نعيش فيه. هَبْ أن هناك كائنا بيضاوي الشكل يعيش خارج أي حقل جاذبية، ولا يمكنه أن يعرف أو يتخيل نوعا آخر من التجربة. ماذا ستعنيه فوق عند هذا

الكائن؟ إن الإجابة عن هـذا السؤال لن ترتبط فقط بفيزيولـوجية هذا الكـائن البيضاوي الشكل، بل بثقافته أيضا

وبعبارة أخـرى، فإن ما نسميه «التجـربة الفيزيائيـة المباشرة» لا يُختزل أبـدا في امتلاك جسـد من نـوع معين، بل نقـول إن كل تجربـة تقـوم على أسـاس عـدد من الاقتضـاءات الثقافية. وسنكون مخطئين، إذن، إن تحدثنـا عن التجربة الفيزيائية المباشرة كما لـو أنه توجد نواة للتجربة المبـاشرة «نؤوله» عن طريق جهازنا التصـوري. ربما يكون الأصح أن نقول إن كل تجربة هي كليا ثقافية، وأننا نقوم بتجربة «عالمنا» بطريقة تكون بها ثقافتنا حاضرة في هذه التجربة نفسها.

إلا أنه وإن اعتـبرنا أن كـل تجـربة تـتطلب اقـتضاءات ثقافية، فإنه يمكن أن نحافظ على تمييـز هام بين التجـارب التي يكون فيهـا الجانب الفيـزيائي أكثـر حضورا، كأن ننجز وضعية الانتصاب [بأجسادنا]، وتلك التجارب التي يكون فيها الجانب الثقافي أكثر حضورا، كأن نشارك في حفل زفـاف. فعندما نتحدث، في مـا سيتبع، عن التجربة "الفيزيـائية" في مقابل التجربة «الثقافية»، فإننا سنستعمل المصطلحين بهذا المعنى.

يتم رسم بعض التصـورات المركـزيـة التي تشتغل بها أجسـادنـا (مثل: فـوق-تحت، وداخل-خارج، وأمام-خلف، ومضيء-مظلم، وساخن-بارد، وذكر-أنثى) بشكل أدق من تصورات أخـرى. ورغم أن تجربتنا العاطفيـة أساسيـة مثل تجربتنا الفضائيـة الإدراكية، فإن تجاربنا العاطفية مـرسومة بشكل أقل وضوحا ودقة بالقياس إلى مـا يمكن أن ننجزه بواسطة أجسادنا. وإذا كانت البنيـة التصورية الفضائية المرسومة بدقـة منبثقة من أنشطتنا الإدراكية الحركية، فإنـه لا تنبثق أي بنية من هـذا النوع من فعلنـا العاطفي وحـده. وبما أنه تـوجد تعالقات نسقية بين عواطفنا (مثل السعـادة) وتجاربنـا الحسية الإدراكية (مثل وضعية انتصاب الجسد)، فإن هذه التعـالقات تشكل أساس تصوراتنا الاتجاهيـة الاستعارية (مثل السعادة فوق). فاستعارات كهاته تسمح لنا ببناء تصورات عواطفنا بأشكال محددة بوضوح، وربطها بتصورات أخـرى تتعلق برفـاهنا الشامل (مثـلا: الصحة، والحيـاة، والهيمنة، . . . إلخ) وبهذا المعنى، يمكن أن نتحدث عن استعارات منبثقة وعن تصورات منبثقة.

وبهذا، فتصورات الشيء، والمادة، والوعاء تصورات منبثقـة بشكل مباشر. فنحن نقوم «بتجربة أنفسنا» بـاعتبارنا كيانات منفصلة عن باقي العالم، وبـاعتبارنا أوعية لها داخل وخارج. إننا ندرك أيضـا الأشياء الخارجية باعتبارها كيـانات، ولهذه الكيانات دائما [بحسب إدراكنا إياها] داخلٌ وخارجٌ. فنحن نـدرك ذواتنا باعتبارنا مكـوَّنين من مواد، من لحم وعظم مثلا. كما ندرك الأشيـاء باعتبارها مكونـة من أنواع مختلفة من المواد، من خشب أو طين أو معدن، . . إلخ. كما ندرك، عن طريق البصر واللمس، عـددا كبيرا من الأشياء باعتبارها تمتلك حدودا جلية. وحين لا تـتوافر لهذه الأشياء حدود جليـة نُسقط عليها حدودا، وذلك عن طريق تصورها باعتبارها كيانات. وغـالبا ما تكون هذه الكيانات أوعية (مثل الغابات، والفجوات، والسحب، . . . إلخ).

وكما هو الشأن بالنسبة للاستعارات الاتجاهية، تتأسس الاستعارات الأنطولوجية القاعدية على علاقات نسقية داخل حقل تجربتنا. وهكذا تتأسس استعارة مجال الرؤية وعاء، كما رأينا، على التعالق القائم بين ما نراه وبين فضاء فيزيائي له حدود. وتتأسس استعارة الزمن شيء متحرك على التعالق القائم بين شيء يتنقل باتجاهنا وبين الزمن الذي يتطلبه هذا الشيء كي يصل إلينا. والتعالق نفسه يؤسس استعارة الزمن وعاء (كما في قولنا: «لقد قام بذلك في عشر دقائق»): فالفضاء المحدود الذي يعبره الشيء يعالق الزمن الذي يتطلبه عبور هذا الشيء. إن الأحداث والأعمال تُعالق مراحل زمنية محدودة مما يجعلها أشياء/ أوعية.

ونعطي تجربة الأشياء الفيزيائية أساس الكنايات. فالتصورات الكنائية تنبثق من التعالقات الحاصلة في تجربتنا بين كيانين فيزيائيين (الجزء للكل، والشيء لمستعمله مثلا)، أو بين كيان فيزيائي وشيء متصور استعاريا باعتباره كيانا فيزيائيا (المكان للحدث، والمؤسسة للمسؤول مثلا)

لربما يكون الشيء الأهم الذي يجب التركيز عليه بخصوص أساس [هذه الاستعارات] هو التمييز بين التجربة والطريقة التي نبني بها تصور التجربة. لا ندعي أن التجربة الفيزيائية أكثر قاعدية من أشكال أخرى للتجربة كالتجربة العاطفية، أو الذهنية، أو الثقافية، أو غير ذلك. فكل هذه التجارب يمكن أن تكون قاعدية، شأنها شأن التجارب الفيزيائية. وسندافع عن كوننا نتصور عادة ما ليس فيزيائيا من خلال ما هو فيزيائي. وبعبارة أخرى، فنحن نتصور ما هو محدود بوضوح أقل عن طريق ما هو محدود بوضوح أكثر. لننظر إلى الأمثلة التالية:

- (1) هنري في المطبخ
- (2) هنري في الطيران
- (3) هنري في حالة وجْد

تحيل هذه الجمل على ثلاثة مجالات للتجربة مختلفة: المجال الفضائي، والمجال الاجتماعي، والمجال العاطفي. وليس لمجال من هذه المجالات أسبقية على المجالين الآخرين. فهذه الثلاثة كلها أنواع من التجربة قاعدية.

إلا أنه، من وجهة نظر البنينة التصورية، هناك اختلاف. فالتصور في ينبثق، في الجملة الأولى، مباشرة من التجربة الفضائية بشكل واضح المعالم والحدود. وهو هنا ليس تصورا استعاريا. إلا أن نفس الشيء لا يصدق بالنسبة للجملتين الأخريين اللتين تتضمنان تصورين استعاريين. فالجملة الثانية مثال لاستعارة المجموعات الاجتماعية أوعية، التي تبنين تصور المجموعة الاجتماعية. وتسمح لنا هذه الاستعارة «بالقبض على» تصور المجموعةَ الاجتماعية عن طريق جعله فضاء. واللفظ «في» والتصور في يعتبران شيئا واحدا في الجمل الثلاث إذ ليس لدينا ثلاثة تصورات مختلفة للتصور في، أو ثلاثة مشتركات لفظية للفظ «في». لدينا تصور منبثق واحد هو في، ولدينا لفظ واحد لتمثيل هذا التصور. إلا أنه لدينا

تصوران استعاريـان يحددان جزئيا المجموعـات الاجتماعية والحالات العاطفية. هـذه الأمثلة تبين، إذن، أنه من الممكن أن تكون لدينا أنواع من التجـربة تتساوى من حيث قاعديتها، وأننا نملك بنـاءات تصوريـة (conceptualizations) لهذه التجـارب لا تتسـاوى من حيث قاعديتها

13 . أَسَاسُ الاسْتِعَارَاتِ البِنْيَوِيَةِ

الاستعارات التي ترتكز على التصورات الفيزيائية البسيطة (مثل فوق-تحت، وداخل-خارج، والشيء، والمادة، . . . إلخ)، والتي تعد أساسية كباقي الأشياء الأخرى في نسقنا التصوري، وبدونها لا نتمكن من الاشتغال في العالم [والفعل فيه]، كأن نفكر أو نتواصل، ليست غنية في حد ذاتها. فأن نقول إن شيئا ما يُتصور باعتباره شيئا/ وعاء وله توجه داخل/ خارج لا يفيدنا كثيرا بخصوص هذا الشيء. إلا أنه، كما رأينا مع استعارة الذهن آلة واستعارات التشخيص المختلفة، بإمكاننا توسيع استعارات التفضية بشكل أدق. وهذا يسمح لنا ليس بتوسيع تصور معين (مثل الذهن) بتفصيل ملحوظ فحسب، ولكنه يتيح لنا أيضا إيجاد وسائل ملائمة لتسليط الضوء على بعض مظاهر هذا التصور وإخفاء بعضها الآخر. فالاستعارات البنيوية (مثل الجدال العقلي حرب) تشكل مصدرا أغنى للقيام بهذا التوسيع. إنها تسمح لنا بأن نقوم بأكثر من وضع تصورات اتجاهية، أو الإحالة عليها، أو تكميمها، . . . إلخ، كما رأينا في الاستعارات الاتجاهية البسيطة والاستعارات الأنطولوجية. إنها تسمح، بالإضافة إلى ذلك، باستعمال تصور جد مبنينَ وجد واضح في بنينة تصور آخر.

تتأسس الاستعارات البنيوية، شأنها شأن الاستعارات الأنطولوجية والاتجاهية، على ترابطات نسقية داخل تجربتنا. ولكي نفهم ما يعنيه [كلامنا هذا] بدقة، سندرس أساس استعارة الجدال العقلي حرب. تسمح هذه الاستعارة بإقامة تصور لما هو الجدال العقلي بالاستعانة بشيء نفهمه بسهولة أكبر، وهو الصراع الفيزيائي. إننا نجد العراك في مملكة الحيوان، ولانجده بهذا الشكل في مكان آخر إلا عند الحيوانات البشرية. فالحيوانات تتعارك من أجل الحصول على ما تحتاج إليه (من أكل وجنس أوملكية إقليم أو سلطة، . . . إلخ). لأن حيوانات أخرى ترغب في نفس الأشياء وتريد منع الآخرين من الحصول عليها. ونفس الشيء بالنسبة للبشر، باستثناء أننا طورنا تقنيات دقيقة جدا لنوال مآربنا. وبما أننا «حيوانات عاقلة» فقد جعلنا صراعاتنا مؤسساتية بطرق متعددة، ومنها الحرب. إلا أنه وإن كنا قد جعلنا المعارك مؤسسية على مر العصور، واستخدمنا عباقرتنا في إيجاد الوسائل الفعالة

في القتال، فإن البنية الأساس للمعركة تظل في العمق ثابتة لا تتغير. ففي المعارك التي تدور بين حيوانين، لاحظ العلماء عددا من الممارسات: التحدي قصد تخويف العدو، وغزو مساحة العدو، والدفاع عن الموقع، والهجوم، والهجوم المضاد، والانسحاب أوالاستسلام والمعركة البشرية تتضمن كل هذا

إلا أنه رغم كل هذا، فمن حسنات أن نكون حيوانات عاقلة أننا قد نحصل على ما نريده دون اللجوء إلى صراع مادي حقيقي. ولهذه الغاية ابتكرنا، نحن البشر، مؤسسة الجدال الكلامي الاجتماعية. إننا نتجادل باستمرار في سبيل نوال ما نريده، وأحيانا فقط تتحول هذه الجدالات إلى عنف فيزيائي. إننا نعيش هذه المعارك الكلامية بنفس صيغة المعارك الفيزيائية تقريبا. ففي خصام بين زوجين، مثلا، يسعى الزوج والزوجة كلاهما إلى تحقيق غاياتهما، وذلك عن طريق حمل الآخر، مثلا، على تبني رأي معين بصدد إحدى المشاكل، أو حمله على التصرف آخذا بعين الاعتبار ذلك الرأي على الأقل. فكلاهما يتصور أن هناك شيئا سيربحه أو سيخسره، وأن هناك مساحة يغزوها ومساحة يدافع عنها. ففي الجدال، حيث لا تشحذ السيوف، نهاجم، وندافع، ونقوم بهجوم مضاد، . . . إلخ، باستعمال كل الوسائل الكلامية المتاحة: التحدي، والتهديد، والتسلط، والشتم، والتلميحات الجارحة، وتحدي التسلط، والتهرب، والمساومة، والإطراء، وكذلك محاولة تقديم "حجج عقلية". إلا أن هذه الوسائل التكتيكية قد تُقدَّم -وفي الغالب تُقدَّم- باعتبارها أسبابا. ومثال ذلك:

- (1) . . . لأنني أقوى منك (تَحَدٍّ)
- (2) . . . لأنك إن لم تفعل فسأضطر إلى كذا وكذا (تهديد)
- (3) . . . لأنني أنا الرئيس (تسلط)
- (4) . . . لأنك غبي (شتم)
- (5) . . . لأنك تتصرف عادة بشكل سيء (استخفاف)
- (6) . . لأنني، مثلك تماما، لي الحق في ذلك (تحدي التسلط)
- (7) . . . لأنني أحبك (تهرب)
- (8) لأنك إذا فعلت كذا، فإنني سوف . . . (مساومة)
- (9) . . . لأنك الرجل المناسب للقيام بذلك (إطراء)

إن الجدالات التي تستعمل هذا النوع من الوسائل التكتيكية هي الجدالات الشائعة بكثرة في ثقافتنا. وبما أنها ترتبط بشكل وثيق بحياتنا اليومية فإننا لا ننتبه إليها أحيانا. إلا أننا نجد أنه في قطاعات مهمة ومؤثرة من ثقافتنا، تكون هذه الوسائل التكتيكية -على الأقل مبدئيا- معرَّضة للشجب لأنها تعتبر "غير عقلية" و"جائرة". وتؤكد الأوساط الأكاديمية والقانونية والدبلوماسية والدينية والصحفية أنها تنهج صيغة مثالية أو "أسمى" في الجدال العقلي حيث كل الوسائل التكتيكية محرمة. والوسائل التكتيكية الوحيدة المسموح بها هي.

مبدئيا، إقامة مقدمات منطقية، وسرد براهين تؤكد ما نذهب إليه، ورسم استنتاجات منطقية. إلا أنه حتى في الحالات المثالية، حيث تتوافر هذه الشروط، فإن الجدال العقلي يدرَك وينفَّذ بواسطة الحرب. فتمة دائما مساحة نغزوها أو ندافع عنها، ويمكن أن نربح أو نخسر، ولنا عدو نهاجمه ونحاول تقويض موقفه، أو نحاول هدم استدلاله. وإذا نجحنا في ذلك يكون العدو قد سُحق.

المشكل، إذن، أنه ليس تصورنا عن الجدال وحده يرتكز على معرفتنا وتجربتنا مع المعركة الفيزيائية، فطريقتنا في إنجاز الجدال ترتكز بدورها على ذلك(1). وإذا لم تكن قد شاركت في شجار أو حرب فإنك تشارك في جدالات منذ اللحظة التي بدأت تتكلم فيها. فأنت تتصور الجدالات وتدركها وتنجزها بالرجوع إلى استعارة الجدال حرب، لأنها تشكل جزءا من النسق التصوري للثقافة التي تعيش فيها. والأمر لا يقتصر على كون الجدالات "العقلية"، التي يفترض أنها تصل إلى مستوى مثالي من الجدال العقلي، تُتَصور وتُدرَك باعتبارها حربا، بل إنها كلها تقريبا تتضمن بشكل خفي الأساليب التكتيكية "غير العقلية" و"الجائرة" التي يفترض أن الجدالات العقلية، بشكلها المثالي، تتجاوزها. وهذه بعض الأمثلة النموذجية:

ـ (10) التحدي:
- من المعقول أن نفترض أن ...
- يتضح أن ...
- من البدهي أن ...

ـ (11) التهديد:
- سيكون من غير العلمي الادعاء بأن ...
- إذا قلنا ذلك فسنرتكب جرما لا يغتفر

ـ (12) التسلط:
- وكما بيّن ديكارت، ..
- لاحظ هيوم أن ...
- الهامش 347: انظر فيرشلوغنهايمر (1954)

ـ (13) الشتم:
- يفتقر هذا العمل إلى الضبط الضروري لكي ...
- لنُسمّ نظرية كهاته عقلانية "ضيقة"
- في محاولة إظهار "الموضوعية العلمية"، تذهب إلى أن ...

1) لو لم تكن طريقتنا في إنجاز الجدال ترتكز على معرفتنا بالمعركة الفيزيائية لما كان بالإمكان أن تتحول بعض جدالاتنا إلى ضرب وعنف فيزيائيين أحياناً. هنا يتبين أنه لا توجد حدود فاصلة على مستوى الإنجاز بين الجدال والصراع الفيزيائي. (هـ.م).

ـ (14) الاستخفاف : - هذا العمل لا يسمح لنا بالوصول إلى نظرية مُصَوْرَنة
- لا يمكن قياس نتائجه
- قليل من الناس فقط يدافعون بجدية عن هذا الرأي

ـ (15) تحدي التسلط : - خوفا من السقوط في أخطاء المقاربات الوضعية، . .
- أدت المدرسة السلوكية إلى كذا وكذا. .

ـ (16) التهرب : - إنه لم يقدم لنا أية نظرية جديدة
- ولكن الأمر هنا يتعلق بكذا وكذا
- يقدم المؤلف فعلا بعض المعطيات التي تناقَش، ولكن.

ـ (17) المساومة : - موقفك صحيح في حدود معينة
- إذا تبنينا نظرة واقعية، يمكن أن نقبل الافتراض الذي يقول . . .

ـ (18) الإطراء : - في مقال مثير، يتحدث فلان عن كذا وكذا
- إنه يطرح في مقاله مشاكل جديرة بالاهتمام

تتيح هذه الأمثلة إعادة رسم تاريخ جدالنا العقلي منذ بدايته كمعركة فيزيائية مرورا بمرحلة الجدال "غير العقلي" (=الجدال اليومي) إن هذه الوسائل التكتيكية، مثل التحدي والتهديد واللجوء إلى السلطة . . إلخ، وإن كانت أحيانا تستتر خلف تراكيب مهذبة، فهي حاضرة في الجدال العقلي كما في الجدال اليومي، وكما في الحرب. وسواء كنا في إطار علمي أكاديمي، أو في جلسة محكمة، حيث نصبو إلى تحقيق الصيغة المثالية للجدال العقلي، أو كنا نحاول -فقط- أن نبدي سلطتنا داخل الأسرة فنتكلم بخشونة، فإننا ندرك جدالاتنا ونتصورها وننجزها، بل ونتحدث عنها بالاعتماد على استعارة الجدال حرب.

لننظر الآن إلى استعارتين بنيويتين أخريين لهما أهميتها في حياتنا، وهما: العمل مورد، والزمن مورد. هاتان الاستعارتان كلتاهما تتأسسان على تجربتنا بصدد الموارد المادية، وبالخصوص المواد الأولية وموارد الطاقة. وهذان الموردان يستعملان من أجل أغراض محددة. فالوقود قد يستعمل في التدفئة أو النقل، وقد يكون مصدرا للطاقة في صنع منتوجات جاهزة. والمواد الأولية تتحول إلى منتوجات. في الحالتين معا (أي حالتي المواد الأولية وموارد الطاقة) يمكن تكميم هذه الموارد المادية، وإعطاؤها قيمة ما. وفي الحالتين معا تُعتبر نوعية المادة المعنية، حين نقابلها بالقطع المصنوعة منها أو بكمية هذه القطع، هي الحاسمة في تحقيق الهدف الذي نسعى إليه. كما أن انتقاء قطع معينة من الفحم الذي سنستعمله لتدفئة البيت ليس مهما إذا كان الفحم المذكور من النوع الممتاز. ففي الحالتين ينفُذ المورد تدريجيا باعتبار استعماله في أغراضنا لنلخص ما سبق:

المورد المادي: نوع من المادة،
يمكن تكميمه بشكل معين،
يمكن أن نسند قيمة لوحداته،
يخدم غرضا نافعا،
ينفُذ تدريجيا كلما خدم الغرض المرتبط به.

لنأخذ مثالا بسيطا حيث نصنع منتوجا انطلاقا من مادة أولية. هذا الأمر يتطلب قدرا من العمل. وبصفة عامة، بقدر ما يكثر العمل تكثر المنتوجات. وإذا افترضنا أن ذلك صحيح -أي أن كمية العمل تناسب كمية المنتوج- فإنه بالإمكان أن نسند قيمة إلى العمل باعتبار الوقت اللازم لصنع وحدة من هذا المنتوج. وتعد سلسلة التجميع (assembly line) نموذجا مثاليا لتفسير ذلك. فالمادة الأولية تبدأ رحلتها من أحد طرفي السلسلة، ويُنجَز العمل عبر مراحل تدريجية، وتحدَّد مدة تحقيق العمل عن طريق سرعة السلسلة، وتخرج المنتوجات من طرف السلسلة الآخر. وهذا المثال يعطينا أساس استعارة **العمل مورد**:

العمل: نوع من النشاط (تذكروا استعارة النشاط مادة)،
يمكن أن نكممه بشكل معين (عن طريق الزمن)،
يمكن أن نسند قيمة لوحداته،
يخدم غرضا نافعا،
ينفُذ تدريجيا كلما خدم الغرض المرتبط به.

وبما أن العمل يمكن أن يكمَّم عن طريق الزمن، وهو ما يحصل عادة في المجتمعات الصناعية، فإننا نحصل على أسس استعارة **الزمن مورد**:

الزمن: نوع من المادة (المجردة)،
يمكن تكميمه بشكل معين،
يمكن أن نسند قيمة لوحداته،
يخدم غرضا نافعا،
ينفُذ تدريجيا كلما خدم الغرض.

إننا، حين نعيش باستعارتي **العمل مورد** و**الزمن مورد**، وذلك ما نفعله في ثقافتنا، ننزع إلى عدم إدراكهما باعتبارهما استعارتين. إلا أنه، كما يتبين من خلال رصد أسسهما في التجربة، فكلتاهما استعارتان بنيويتان أساسيتان في المجتمعات الغربية المصنعة.

هاتان الاستعارتان البنيويتان المركبتان تستخدمان استعارتين أنطولوجيتين بسيطتين: تَستخدم استعارةُ **العمل مورد** استعارةَ **النشاط مادة**، وتستعمل استعارةُ **الزمن مورد** استعارةَ **الزمن مادة**. واستعارتا المادة هاتان تجعلان العمل والزمن يكمَّمان، أي يقاسان، ويتُصوران كما لو كانا ينفُذان تدريجيا، ونسند إليهما قيمة مالية. إنهما تسمحان، أيضا، باعتبار الزمن والعمل شيئين بالإمكان "استخدامهما" من أجل أغراض متنوعة.

ليست استعارتا العمل مورد والزمن مورد، على الإطلاق، استعارتين كليتين (universal). لقد انبثقتا بصورة طبيعية من ثقافتنا بسبب طريقة نظرنا إلى العمل، وبسبب ولعنا بالتكميم، وحاجتنا الملحة إلى تحديد أغراض دقيقة. وهاتان الاستعارتان تلقيان الضوء على مظاهر العمل والزمن التي تعتبر مركزية في ثقافتنا. وهما، بهذا، تخفيان بعض مظاهر العمل والزمن الأخرى. ويمكن أن نرى ما تخفيه الاستعارتان عن طريق فحص ما تركزان عليه.

عندما تَعتبر الاستعارةُ العملَ نوعا من النشاط فإنها تفترض أنه بالإمكان تحديد العمل بدقة وتمييزه من أشياء أخرى ليست عملا. إنها تضع افتراضات مفادها أنه بالإمكان تمييز العمل من اللعب، والنشاط المنتج من النشاط غير المنتج وهذه الافتراضات بعيدة عن ملاءمة الواقع في غالب الأحيان، ربما باستثناء ما نجده في حالة سلسلة التجميع، والأعمال الشاقة، . . . إلخ. إن اعتبار العمل نوعا من النشاط مستقلا عن الذي ينجزه، وعن كيفية معاناته، وعما يعنيه في حياته، يخفي كيف يكون العمل ذا معنى أو مرضيا أو إنسانيا عند من ينجزه

إن تكميم العمل عن طريق الزمن، في ارتباطه باعتبار الزمن صالحا لخدمة غرض معين، يعطينا تصور وقت الفراغ الذي يوازي تصور وقت العمل. ففي مجتمعاتنا، حيث تُعتبر العطالة غير ذات جدوى محددة، نشطت صناعة حقيقية مخصصة لأنشطة أوقات الفراغ. ونتيجةً لهذا أصبح وقت الفراغ هذا موردا بدوره إذ نستثمره بطريقة منتجة، أو ننفقه بحذر، أو نوفر منه، أو نقسمه، أو نبذره، أو نضيعه، . . . إلخ. إن ما تخفيه استعارتا المادة في العمل والزمن هو كيف يؤثر تصورا الزمن والعمل في تصورنا لوقت الفراغ فيحولانه إلى شيء يشبه كثيرا العمل

تخفي استعارتا المادة المرتبطتان بالعمل والزمن كل أنواع التصورات الممكنة حول الزمن والعمل التي يمكن أن توجد في ثقافات أخرى، أو في بعض الثقافات الفرعية داخل مجتمعنا. مثال ذلك فكرة أن يكون العمل لعبا، وأن تكون العطالة منتجة، وأن يكون قدر كبير من الأشياء التي نصنفها باعتبارها عملا تخدم إما أغراضا غير واضحة أو أغراضا عديمة الشأن.

تملك الاستعارات البنيوية الثلاث التي تأملنا فيها في الفقرات السابقة (وهي الجدال العقلي حرب، والعمل مورد، والزمن مورد) أساسا ثقافيا قويا. وقد انبثقت بشكل طبيعي داخل هذه الثقافة التي هي ثقافتنا لأن ما تضيئه يطابق بدقة ما نعانيه (أي ما نجربه) جماعيا، ولأن ما تخفيه لا يطابق سوى القليل [من تجاربنا]. إلا أن هذه الاستعارات لا تكتفي بأن يكون لها أساس داخل تجربتنا الفيزيائية والثقافية، إنها تؤثر أيضا في تجربتنا نفسها وفي سلوكاتنا.

14. السّببيةُ: الجزءُ الـمُنْبثِقُ والجزءُ الاسْتِعاريّ

أوضحنا، خلال مناقشتنا لأسس الاستعارات، أنه توجد تصورات منبثقة بشكل مباشر (مثل: فوق-تحت، وداخل-خارج، وشيء، ومادة، . . .إلخ)، وتصورات منبثقة من استعارة مؤسسة على تجربتنا (مثل: مجال الرؤية وعاء، والنشاط وعاء. . .إلخ) وانطلاقا من مجموعة الأمثلة المحدودة التي رأيناها، يبدو أن هناك فرقا واضحا بين التصورات المنبثقة مباشرة والتصورات المنبثقة استعاريا، وأنه يجب أن يكون التصور إما من هذه وإما من تلك. إلا أن الأمر ليس كذلك. فرغم أن السببية تصور أساسي فإنه ليس تصورا منبثقا صرفا ولا تصورا استعاريا صرفا[1]. بل أكثر من هذا، إذ يبدو أن تصور السببية يملك نواة انبثاق مباشر يتم تحديدها استعاريا.

العلاج المباشر باعتباره طراز السببية[2]

تفترض نظريات المعنى التقليدية أن كل التصورات المركبة يمكن أن تجزأ وتفكّك إلى عناصر بدائية [وأولية] غير قابلة للانشطار. وهذه العناصر هي المكونات النهائية للمعنى. كما يتم التأكيد على أن السببية هي إحدى هذه العناصر. ويبدو لنا أن هذه النظريات التقليدية مخطئة تماما حين تدافع عن كون التصورات القاعدية (basic) عناصر بدائية غير قابلة للتجزيء.

1) سنطلق تسمية التصورات المنبثقة على تلك التصورات التي لا نجدها تتأسس على الاستعارة، بل نجدها تنبثق بشكل طبيعي ومباشر من تجربتنا. وسنطلق تسمية التصورات الاستعارية على تلك التصورات التي تتأسس على تصورات استعارية لها أساسها في تجربتنا. وسيتوضح هذا الفرق عندما نتقدم في قراءة هذا الفصل. (هـ م).

2) المقصود بالعلاج المباشر الاتصال الفيزيائي المباشر مع الأشياء. وهذا المعنى قريب من معنى قدماء النحاة إذ "العلاج ما يفتقر في إيجاده إلى استعمال جارحة ونحوها، نحو ضربت زيدا وقتلت بكرا، وغير العلاج ما لم يفتقر إلى ذلك، بل يكون مما يتعلق بالقلب، نحو ذكرت زيدا وفهمت الحديث" (ابن يعيش، شرح الكافية، ج،7 ص،62 إدارة الطباعة المنيرية). ونقول "عالج الشيء معالجة وعلاجا زاوله [. . .]. وكل شيء زاولته ومارسته فقد عالجته" (ابن منظور، لسان العرب، ج،2 مادة "علج"، ص،327 دار صادر (هـ م).

نتفق على القول إن السببية تصور إنساني جوهري. فهو من التصورات المستعملة بكثرة عند البشر في بنينة واقعهم الفيزيائي والثقافي. إلا أن هذا ليس معناه أنه عنصر بدائي غير قابل للتجزيء. ويبدو لنا أنه بالإمكان الحصول على فهم جيد لهذا التصور لو حللناه باعتباره جشطلتا تجريبيا (experiential gestalt) (3)، إذ يقتضي الفهم الكافي للسببية أن نجعلها تجميعا لعناصر أخرى، إلا أن هذا التجميع يشكل جشطلتا، وهذا الجشطلت عبارة عن كـلٍّ نجده - نحن البشر - أهم من الأجزاء التي تشكله.

لكي نفهم هذه الأشياء بوضوح، نسوق حالة الأطفال. افترض بياجي Piaget أن كل الأطفال الصغار يستعملون أول الأمر علاقة السببية حين يعون أنه بإمكانهم أن يعالجوا بشكل مباشر الأشياء التي توجد حولهم: فبإمكانهم إزاحة لحافهم، أو رمي قارورة رضاعهم على الأرض، أو ترك لُعبهم تسقط. ويصل الأطفال، بالفعل، إلى مرحلة يبدون فيها "مطبقين" لهذه العلاجات إذ يكررون، مثلا، إسقاط ملاعقهم. إن علاجات كهاته، وإن أتت من الأطفال، تتضمن بعض السمات المشتركة التي تحدد مفهوم السببية المباشرة الذي يعتبر جزءا من "اشتغالنا" اليومي المستمر في محيطنا: حين نضغط على زر معين، أو نزرر قمصاننا، أو نفتح بابا، ... إلخ. ورغم أن هذه الأعمال التي نقوم بها مختلفة عن بعضها، فإن أغلبها يشترك في خصائص تنتمي إلى ما يمكن أن نسميه الحالة "الطرازية" (prototypical) أو "المركبية" (paradigmatic) في السببية المباشرة. ويدخل في هذه السمات المشتركة ما يلي:

- للمنفذ هدف، وهو تغيير حالة الضحية (patient)
- التغيير الذي يلحق حالة الضحية تغيير فيزيائي
- للمنفذ "مخطط" لتحقيق هذا الهدف.
- يتطلب هذا المخطط أن يقوم المنفذ ببرنامج حركي.
- يراقب المنفذ هذا البرنامج الحركي.
- المنفذ هو المسؤول الرئيسي عن تحقيق المخطط.
- المنفذ هو مصدر الطاقة (بحيث يوجه طاقته نحو الضحية). والضحية هو مرمى هذه الطاقة (فالتغيير الذي يحصل لدى الضحية ناتج عن مصدر طاقة خارجي عنه).

3) مصدر مفهوم الجشطلت علمُ النفس الجشطلتي (Gestalt Psychology). ونجد من يترجم اسم هذا العلم بسيكولوجيا "الكل". وهذه الترجمة بعيدة عن إيراد المقصود بالمفهوم. ونجد من يترجمه بالشكل أو الصورة (الكلية). إلا أننا آثرنا تعريب هذا المصطلح صوتيا نظرا إلى إساءة الفهم التي قد تحصل لو ترجمناه بشكل أو صورة أو كل. والمقصود بعلم النفس الجشطلتي ذلك التيار النفسي الذي يهتم بدراسة الإدراك والسلوك انطلاقا من استجابة البشر لوحدات أو صور متكاملة آخذا بعين الاعتبار تطابق الأحداث النفسية والفيزيولوجية، ويرفض التحليل الذي يقوم على المنبهات والاستجابات إلى عناصر متفرقة يتم جمعها داخل هذا الكل (الجشطلت). والجشطلت شكل أو صورة من الظواهر الطبيعية الفيزيائية أو البيولوجية أو النفسية المتكاملة، بحيث تكون الوحدة الوظيفية (أي الشيء المدرَك) ذات خصائص لا يمكن استمدادها من أجزائها بمجرد ضم بعضها إلى بعض. (هـ م)

- يلمس المنفذُ الضحيةَ سواء بجسده أو بأداة (ويوجد ارتباط مكاني زمني بين ما يقوم به المنفذُ والتغيير الحاصل لدى الضحية).
- يحقق المنفذ المخطط بنجاح.
- يدرك التغيير الحاصل في الضحية.
- يراقب المنفذ التغيير الحاصل في الضحية بوسائل إدراكه الحسي.
- هناك منفذ نوعي واحد وضحية نوعية واحدة.

يحدّد مجموعُ هذه الخصائص العلاجات المباشرة الطرازية، وهي تمثل بامتياز لعلاقة السببية. ونستعمل هنا لفظ «طرازي» بنفس المعنى الذي استعملته روش Rosch في نظريتها المتعلقة بالمقولة البشرية (1977). فالتجارب التي أجرتها هذه الباحثة تشير إلى أن البشر لا يُمَقْولون الأشياء باعتبار المجموعات، ولكن باعتبار الطرازات والتشابهات الأسرية. فمثلا، العصافير الصغيرة المغردة كالدوري وأبي الحن ... إلخ، طيور طرازية؛ أما الدجاج والنعام والبطريق، فهي وإن كانت طيورا إلا أنها ليست أعضاء مركزية في مقولة الطيور. إنها طيور غير طرازية. ورغم ذلك، فهي طيور لأن لها ما يكفي من التشابهات الأسرية مع الطراز، أي أنها تملك ما يكفي من الخصائص الواردة لكي نضعها في خانة الطيور.

إن الخصائص الإثنى عشر أعلاه تخصص طراز السببية بالمعنى الذي نورده هنا. فهي تظهر باستمرار مجتمعة في عدد لا يحصى من الأعمال التي ننجزها خلال حياتنا اليومية. إننا "نعانيها" جملةً باعتبارها جشطلتا، أي أن ظهور الخصائص مجتمعة أكثر قاعدية في تجربتنا من ظهورها منفصلة. وبسبب ظهورها الدائم في حياتنا اليومية، فإن مقُولة السببية تنبثق من هذه الخصائص المركبة التي تطبع علاقة السببية الطرازية. وهناك أنواع أخرى من السببية الأقل طرازية، وهي الأعمال أو الأحداث التي تلتقي مع الطراز في تضمن تشابهات أسرية كافية. وتدخل فيها الأعمال المنجزة عن بُعد، والتنفيذ غير البشري، واستعمال منفذ وسيط، وظهور منفذين أو أكثر، والاستعمال غير المتعمد أو غير المراقَب للبرنامج الحركي، ... إلخ. (في السببية الفيزيائية، المنفذ والضحية حدثان، والقانون الفيزيائي يحل محل المخطط والهدف والنشاط الحركي، وكل المظاهر البشرية الصرف تغيب). وحين يوجد تشابه أسري غير كاف مع الطراز، فإننا لن نصف ما يحدث باعتباره سببية. لنفرض، مثلا، أن هناك منفذين متعددين، وأعمال هؤلاء المنفذين متباعدة في المكان والزمان في علاقتها بتغيير حالة الضحية، ولا توجد رغبة أو مخطط أو مراقبة يقوم بها المنفذ. إننا لن نقول، قطعا، إن الأمر يتعلق بحالةِ سببية هنا، أو سيكون لدينا على الأقل بعض التساؤلات بخصوص هذا العمل.

ورغم أن لمقولة السببية حدودا غامضة، فإنها محددة بشكل دقيق في عدد كبير من الحالات. فنجاح أنشطتنا في هذا العالم يقتضي أن نكون مطبقين باستمرار لتصور السببية في مجالات أنشطة جديدة، وذلك عن طريق القصد، والتخطيط، ورسم الأهداف، ... إلخ.

فهذا التصور ثابت بها أننا نستمر في "الاشتغال" [ومباشرة الحياة] بنجاح بالاعتماد عليه ويمكن أن نطبق تصور السببية هذا، الذي ينبثق من تجربتنا، على تصورات استعارية. ففي جملة مثل: «لقد رفع هنري معنوياتنا بدعابته»، لدينا حالة سببية إذ إن ما قام به هنري جَعل معنوياتنا ترتفع، وذلك اعتمادا على استعارة السعادة فوق.

وإذا كان تصور السببية أساسيا وجوهريا في النشاط البشري، فليس معنى ذلك أنه تصور بدائي [أو أولي] بالمعنى العادي للكلمة، إذ تعني أنه عنصر نهائي. فهذا التصور ليس غير قابل للتفكيك والتجزيء. وإذا كنا نصف تصور السببية عن طريق طراز مؤلف من خصائص مركبة متواترة، فإن التصور الذي نقترحه إجمالي وقابل للتحليل والتفكيك باعتبار هذه الخصائص، كما أنه مفتوح على حقل واسع من التغيرات في نفس الوقت. إن العبارات التي حللنا طراز السببية بواسطتها (مثل المراقبة، والبرنامج الحركي، والإرادة، ... إلخ) قد يتم تحديدها نفسها، وبدون شك، عن طريق طرازات أخرى. وهي بذلك قابلة للتحليل الإضافي. وهذا يسمح لنا بالتوفر على تصورات قاعدية، وكذلك إجمالية وقابلة للتحليل بلا نهاية.

توسعات استعارية للسببية الطرازية

تعد الأمثلة البسيطة لصنع شيء ما (مثل طائرة من ورق، أو كرة ثلج، أو قصر من الرمال، ... إلخ) حالات خاصة للسببية المباشرة. إنها تتطلب كلها علاجا مباشرا، مع احترام كل الخصائص المصفوفة أعلاه. إلا أن هذه الأمثلة تمتلك خاصية إضافية تجعلها مستقلة، وذلك لكونها تُعَد أمثلة صنع: فناتج العلاج أننا نصبر ننظر إلى الشيء باعتباره من نوع مختلف. فما كان رقعة ورق صار طائرة ورق نمقوها بشكل مخالف إذ أصبح لها شكل ووظيفة مخالفان. وهذا هو الشيء الأساسي الذي يميز مجموعة أمثلة الصنع من الأنواع الأخرى من العلاجات المباشرة. إن مجرد تغيير حالة بسيط، مثل تغيير شكل الماء ليصير ثلجا، قد يُنظَر إليه باعتباره مثالا للصنع، بما أن للثلج وظيفة وشكلا مختلفين عن الماء. وهكذا نجد أمثلة من قبيل:

- (1) بإمكانك صنع الثلج من الماء إذا قمت بتجميده

وهذا المثال يوازي أمثلة نحو:

- (2) صنعت من صفحة الجريدة طائرة ورق
- (3) صنعت من الصلصال تمثالا

إننا نتصور تغيرات من هذا القبيل (أي تغيرات من حالة إلى أخرى، والحصول على شكل ووظيفة جديدين) بفضل الاستعارة التالية: **الشيء يأتي من المادة**. ولهذا نستعمل اللفظ «من» في الأمثلة أعلاه: فالثلج آت من الماء، والطائرة آتية من الورق، والتمثال آت

من الصلصال[4]. ففي الجملة التالية: «صنعت من الصلصال تمثالا»، نُعتبر مادة الصلصال وعاء (عبر استعارة **المادة وعاء**)[5]. إن الشيء -وهو التمثال- «يخرج منها». وبهذا يكون تصور الصنع، جزئيا وليس كليا، تصورا استعاريا؛ أي أن الصنع مثال للتصور المنبثق مباشرة، وهو العلاج المباشر الذي تم توسيعه عن طريق استعارة **الشيء يأتي من المادة**

وهناك طريقة أخرى لتصور نشاط الصنع، وتتمثل في تحديد تصور العلاج المباشر باستعمال استعارة أخرى. هذه الاستعارة هي: **المادة تدخل في الشيء**. وهكذا نعثر على أمثلة نحو:

- (4) حولت صفحة الجريدة إلى طائرة
- (5) حولت الصلصال إلى تمثال

وفي هذه الحالة، نجعل الشيء وعاء للمادة التي تدخل في صنعه[6].

4) يبدو أن الأمر أوضح في الأنجليزية التي تستعمل الحرف المركب out of (حرفيا: «خارج من») لننظر إلى هذا المثال الذي يورده المؤلفان في الأصل الأنجليزي: "the statue is made out of clay" (حرفيا: «التمثال يُصنع خارجا من الصلصال» والمعنى: «التمثال مصنوع من الصلصال»). تستعمل اللغة العربية «مِن» في هذا المكان، وهو يؤدي المعنى نفسه تقريبا. هذا المعنى من بين معاني «من» المتعددة، وهو المسمى بيان الجنس عند النحاة العرب القدماء. هكذا نقول إن الخاتم من ذهب، وإن الكأس من زجاج، وإن التمثال من صلصال، ... إلخ. وهو يفيد المادة التي تدخل في صنع الشيء المعني. وإذا كان أصل معاني «من» معناها الفضائي إذ تفيد مسافة الابتعاد من مكان معين، أي الخروج منه، حيث أقول «أتيتُ من فاس» فأصف أنني اتجهت في مسافة من خصائصها أنها تبتعد عن فاس إلى أن وصلت إلى المكان الذي أتحدث منه والذي يجب أن يكون فضاء «لا فاس»، فإن الشيء نفسه يحصل في الاستعارة التي نحن بصددها. إن الشيء يُتصور خارجا من المادة مبتعدا عنها ليصير شيئا آخر. وبهذا الربط بالمعنى الفضائي نفهم كيف ولماذا يكون الشيء يخرج من المادة أو يأتي منها استعاريا. (هـ م)

5) إذا صح ما قلناه في الهامش السابق فإن الصلصال يكون وعاء، لأن الشيء المصنوع (التمثال) خرج منه أو أتى منه (كما أتيت من فاس إذ خرجت منها، في الهامش أعلاه). وما يُخْرَج منه هو ما له داخل وخارج. وما كان كذلك فهو وعاء. (هـ م)

6) إذا كانت «من» تصف مسافة الخروج من الوعاء فإن «إلى» تصف مسافة الدخول إلى الوعاء. فأن نقول إن المادة س تتحول إلى الشيء ص، فمعنى ذلك أن س تدخل في تكوين ص. وتعبر «إلى» عن هذا الاتجاه حين نقول «تحول إلى»، فكأن المادة انتقلت إلى مكان هو الشيء ص وحلت فيه (بالمعنى الفضائي المجرد). وتعبر الأنجليزية عن هذا الدخول بواسطة "into" التي تفيد، من جهة، معنى «في» ("in")، ومعنى «إلى»("to") من جهة أخرى. و«إلى» في العربية تعبر عن "into"، لأنها تتضمن مسافة الاقتراب من الشيء ثم الحلول فيه، فهي «إلى في» في الحقيقة. فقولنا: «ذهبت إلى بيتي» لا تعني أنني لم أحلّ في هذا الوعاء الذي هو بيتي. فإذا أردتُ أن أبين أنني لم أحلّ في هذا الوعاء، وأنني اكتفيت بالمسافة والاتجاه فقط، فإنني أقول عوض ذلك: «ذهبت نحو بيتي». وهنا لا أكون حللت في هذا الوعاء. (هـ.م).

وتظهر استعارة المادة تدخل في الشيء في تصورات أخرى كثيرة، ناهيك عن تصور الصنع. فنحن نتصور مجموعة واسعة من التغيرات، سواء الطبيعية منها أو تلك الطارئة التي يحدثها الإنسان، انطلاقا من هذه الاستعارة. لننظر، مثلا، إلى الجمل التالية:

- (6) صار الثلج ماء (أي تحول إلى ماء)
- (7) تحولت الدودة إلى فراشة
- (8) إنها تتحول شيئا فشيئا إلى امرأة هادئة وجميلة

وتُستعمل استعارة الشيء يأتي من المادة في تصورات أخرى غير تصور الصنع. إلا أن ذلك لا يظهر إلا في وقائع محدودة نوعا ما، وهي تلك التي ترتبط بتصور التطور:

- (9) تنحدر الثدييات من الزواحف
- (10) النظام القانوني الحالي آت من القانون الأنجليزي القديم

وبهذا فإن الاستعارتين المستعملتين لوصف العلاج المباشر بشكل دقيق، في أمثلة تصور الصنع، تُستعملان مستقلتين لوصف تصورات التغيير المختلفة.

وهاتان الاستعارتان، اللتان تُستعملان باعتبارهما جزءا من تصور الصنع، تنبثقان بشكل طبيعي من تجربة الولادة التي تُعد، بدون شك، التجربة الإنسانية الأكثر قاعدية. ففي الولادة يخرج شيء (وهو الوليد) من وعاء (وهو الأم)، وفي نفس الوقت فإن مادة الأم (أي لحمها ودمها) يوجدان في الوليد (الشيء الوعاء). فتجربة الولادة (وتجربة نمو النباتات) تعطي أساسا لتصور الخلق، الذي يشمل تصور صنع شيء فيزيائي أو صنع كيانات مجردة. وارتكاز تصور الخلق على تجربة الولادة يظهر من استعارات الولادة التالية:

- (11) خُلقت أمتنا من أجل الحرية
- (12) كتاباته وليدة عن خياله الخصب
- (13) لقد فرخت تجربته الكثير من الملاحظات
- (14) أنشطتك لن تولد إلا العنف
- (15) كانت ولادة المشروع عسيرة
- (16) لقد خلق نظرية فذة حول حركة الذرات
- (17) تحبل الجامعات بالأفكار الجديدة
- (18) رأت النظرية النسبية النور عام 1905
- (19) جامعة شيكاغو هي مسقط رأس العصر النووي
- (20) إدوار تيلر هو أب القنبلة الهيدروجينية

كل هذه الجمل أمثلة للاستعارة العامة التالية: الخلق ولادة. ولنا في ذلك مثال آخر على الطريقة التي نبني بها تصور مظهر خاص للسببية استعاريا.

وأخيرا، فإننا نتصور حالة أخرى خاصة في السببية عن طريق استعارة الانبثاق. إنها الحالة الذهنية أو العاطفية حين تكون سببا في نشاط أو حدث ما:

- (21) قتلَ العمدة من فرط اليأس
- (22) من كثرة حبه لعائلته أضاع مستقبله'

- (23) جُنت زوجته مں العزلة
- (24) لقد سقط مں الإجهاد
- (25) ينبع اهتمامه بالرياضيات من حبه للنظام

هنا تُعتبر الحالة (مثل اليأس أو العزلة، . إلخ) وعاء، والعمل أو الحدث يعتبر شيئا ينبثق مں الوعاء. هنا يُنظر إلى السببية باعتبارها انبثاقا للحدث من الحالة.

ملخص

كما رأينا قبل قليل، يتأسس تصور السببية على طراز العلاج المباشر الذي ينبثق مں تجربتنا. ويتم تطوير النواة الطرازية بفضل الاستعارة لتوسيع تصور السببية، الذي يتفرع إلى العديد مں الحالات الخاصة. والاستعارات المستعملة هي **الشيء يخرج من المادة، والمادة تدخل في الشيء، والخلق ولادة**، والسببية انبثاق (أي تسبيب حدث بواسطة حالة، وانبثاق الحدث/ الشيء من الحالة/ الوعاء).

وقد رأينا، أيضا، أن النواة الطرازية لتصور السببية، أي العلاج المباشر، ليست بدائيا دلاليا غير قابل للتفكيك والتحليل، بل إنها جشطلت يتضمن خصائص تظهر مجملة بشكل طبيعي في تجربتنا اليومية وفي إنجازنا لعلاجات مباشرة. والعلاج المباشر الطرازي قاعدي وبدائي في تجربتنا، ولكں ليس بالمعنى النظري المألوف للبدائي الذي لا يتجزأ. ففي النظريات التي تتبنى هذا الموقف، كل تصور هو إما جزء نهائي غير قابل للتجزيء أو أنه جزء بالإمكان تقسيمه إلى أجزاء أخرى نهائية غير قابلة للتجزيء، ويتم ذلك بطريقة واحدة وواحدة فقط. وتقترح النظرية التي سنعرضها في الفصل القادم، عوض ذلك، أن تكون هناك أبعاد طبيعية للتجربة، وأن التصورات يمكن أن تحلَّل عبر هذه الأبعاد بأكثر من طريقة. وفوق كل هذا، فعبر كل بعد يمكن للتصورات أن تحلَّل دائما بشكل أدق يناسب تجربتنا، إذ لا توجد دائما أجزاء نهائية لاتنشطر.

وبهذا نقول إنه توجد ثلاث طرق لا تكون بها السببية بدائيا غير قابل للتجزيء:

- إنها تحدَّد من خلال تشابهاتها الأسرية انطلاقا من طراز العلاج المباشر،
- وطراز العلاج المباشر نفسه جشطلت مں الخصائص التي تظهر بشكل طبيعي، وبذلك فهو قابل للتفكيك بشكل غير نهائي،
- ويتم توسيع النواة الطرازية لتصور السببية استعاريا بطرق مختلفة.

15 . البِنْيَةُ الـمُنْسَجِمَة للتَّجْرِبَة

الجشطلتات التجريبية وأبعاد التجربة

دافعنا، طوال الفصول السابقة، عن التصورات الاستعارية باعتبارها طرقا تُبَنْيِن جزئيا تجربة ما من خلال أخرى ولكي نرى بتفصيل ما تقتضيه البنينة الاستعارية، علينا أولاً أن نكوّن فكرة واضحة عما يعنيه انسجام تجربة ما أو مجموعة من التجارب بمقتضى توافرها على بنية. فقد افترضنا أن الجدال حديث مبنين جزئيا بواسطة تصور الحرب (وذاك ما أعطانا استعارة الجدال حرب). هَبْ أنك كنت تتحدث إلى أحدهم وانتبهتَ فجأة إلى أن الأمر تحول إلى جدال. فما هو الشيء الذي جعل هذا الحديث يصير جدالا؟ وما علاقة كل هذا بالحرب؟ لكي نرسم الفرق بين الحديث والجدال، علينا أن ننظر، أولاً، في معنى أن يكون الإنسان منهمكا في حديث.

يتطلب النوع الأكثر قاعدية في الحديث شخصين يتحدثان إلى بعضهما. ما يحصل نموذجيا هو أن يمهد أحدهما للحديث، فيأخذ كل واحد دوره في الكلام في موضوع مشترك أو في مجموعة من المواضيع. ويتطلب الحفاظ على دور كل واحد في الكلام وعدم تغيير الموضوع (أو تغييره بطريقة مباحة) قدرا كبيرا من التعاون. ومهما تكن الغايات الأخرى التي ترمي إليها الأطراف [المتحدثة] من الأحاديث، فإن هذه الأخيرة تخدم عموما غاية التفاعل الاجتماعي الرفيع.

ويمكن أن نلاحظ، في أبسط حالة لحديث لطيف بين طرفين، عددا من الأبعاد التي تقوم عليها بنية هذا الحديث [ونسميها أبعاد البنية]:

الأطراف : الأطراف نوع طبيعي معين، أي شخصان. ويلعبان هنا دور المتحدثين. ويحدَّد الحديث بما يفعله الطرفان وهما يلعبان هذا الدور طوال الحديث.

المقاطع : تتشكل المقاطع من نوع طبيعي من الأنشطة. وهذا النوع هو الكلام. ويُعتبر كل دور في الكلام مقطعا من الحديث ككل. وعلى هذه المقاطع أن توضع مجتمعة بشكل معين يجعلها تشكل حديثا منسجما.

الأطوار : يتضمن الحديث نموذجيا مجموعة من الشروط التمهيدية، وبعد ذلك يتم المرور إلى أطوار أخرى بما فيها، على الأقل، بداية وجزء مركزي ونهاية. وهكذا نجد عددا من الأشياء التي تقال في تمهيد الحديث (مثل «السلام!»،

أو «كيف الحال؟»، . . .إلخ)، وأشياء أخرى تحرك الحديث نحو الجزء المركزي، وأشياءأخرى تجعله ينتهي.

التعاقب الخطي: تنتظم أدوار الطرفين في الكلام في تعاقب خطي مع احترام قيد عام، وهو تناوب المتكلمين ويُسمح، أحيانا، ببعض التداخلات، كما تجد بعض الانحرافات حين لا ينتظر متكلم معين دوره فيما يستمر الآخر في الكلام. وبدون هاته القيود على التعاقب الخطي فإنه يكون لدينا حديث أحادي أو خليط من الألفاظ، وليس حديثا.

الترابط السببي: يُنتظر أن تَنتج نهاية الدور في الكلام عن بداية الدور الموالي.

الغـايـة: قد تخدم الأحاديث أيّ نوع من الغايات، إلا أن كل الأحاديث النموذجية تشترك في غاية الحفاظ على التفاعل الاجتماعي الرفيع عن طريق تعاون معقول.

ويمكن إضافة العديد من التفاصيل التي تخصص الحديث بشكل أدق، إلاّ أن أبعاد البنية الستة هاته تعطي الخطوط الرئيسية لما هو مشترك في الأحاديث النموذجية.

إذا كنتَ منهمكا في حديث (له على الأقل أبعاد البنية الستة هاته)، ثم أدركتَ أنه تحول إلى جدال، فما الذي أدركتَ أنه تغير في الحديث وأنت فيه؟ يكمن الاختلاف الأساسي في الإحساس بأنك تدخل معركة. إنك تنتبه إلى أن لك رأيا له أهميته عندك، وأن الطرف الآخر لا يقبله؛ أو على الأقل، فإن أحد الطرفين يريد أن يتخلى الآخر عن رأيه. وهذا الأمر يخلق وضعا يتم فيه ربح شيء ما أو خسرانه. فأنت تحس أنك دخلت في جدال عندما تجد أن رأيك يهاجَم، أو حين تشعر بحاجة إلى مهاجمة موقف الطرف الآخر. ويصبح الأمر جدالا تاما حين ترصد أهم جزء في طاقتك في الحديث لمحاولة تكذيب موقف الطرف الآخر فيما تحافظ على موقفك. إلا أن الجدال يظل حديثا رغم أن عنصر التعاون اللطيف في الحفاظ على البنية الحديثية قد يتوتر حين يصبح الجدال ساخنا.

ويأتي الإحساس بأنك تدخل معركة من رؤية نفسك في وضع يشبه الحرب، وإن لم تكن هناك معركة فعلية - ما دمتَ تحافظ على «مدنيات» الحديث. إنك «تجرِّب» [وتعيش تجربة] الطرف الآخر باعتباره خصما، فتهاجم موقفه، وتحاول أن تدافع عن موقفك، وتفعل كل ما في وسعك كي تجعله يستسلم. فبنية الحديث تتخذ مظاهر من بنية الحرب، وسلوكك يطابق ذلك. فإدراكاتك وأنشطتك توافق، في جزء منها، إدراكات وأنشطة من يكون داخلا حربا. ويمكن أن نرى ذلك بكيفية مفصلة في لائحة خصائص الجدال التالية:

- لك رأي له أهميته عندك (= لك موقع، أي موقف).
- الطرف الثاني لا يتفق مع رأيك (= له موقع مخالف).
- ما يهمك، أو ما يهمكما، هو أن يتخلى الآخر عن موقفه (= هزم)، ويقبل رأيك (= نصر)، (= إنه عدوك).

- يصبح اختلاف الرأي صراعا بين الرأيين (= صراع).
- تفكر في الطريقة الجيدة التي تمكنك من إقناعه برأيك (= تخطيط استراتيجي)، وتبحث عن الحجة التي يمكن أن تقدمها كي تجد منفذا (= قوات الاستطلاع).
- انطلاقا مما تتصور أنه يشكل نقط قوة في موقفه، نطرح أسئلة وتقدم اعتراضات هدفها حمله على التخلي نهائيا عن موقفه وتبني موقفك (= هجوم)
- تحاول تغيير المقدمات في الحديث بشكل يجعلك تحتل موقفا أقوى (= مناورة).
- في إجابتك على أسئلته واعتراضاته، تحاول أن تحافظ على موقفك (= دفاع).
- مع نطور الجدال، قد يقتضي حفاظك على رأيك العام بعض المراجعة (= تراجع)
- وقد نقدم أسئلة واعتراضات جديدة (= هجوم مضاد)
- قد تتعب وتقرر توقيف الجدال (= هدنة)، أو قد تقنع الطرف الآخر بذلك (= توريط)، أو قد يستسلم أحدكما (= هزيمة).

إن ما يسبغ الانسجام على هذه اللائحة من الأشياء التي تنقل حديثا إلى جدال أنه نوافق عناصر من تصور الحرب وما أضيفَ من تصور الحرب إلى تصور الحديث يمكن أن يُنظَر إليه انطلاقا من نفس أبعاد البنية الستة التي قدمناها في وصفنا لبنية الحديث.

- الأطراف: نوع الأطراف شخصان أو مجموعتان من الأشخاص، ويلعبان دور الخصمين
- المقاطع: الموقفان (=الموقعان)،
  التخطيط الاستراتيجي،
  الهجوم،
  الدفاع،
  التراجع،
  المناورة،
  الهجوم المضاد،
  التوريط،
  الهدنة،
  الهزيمة/ النصر.
- الأطوار: - شروط تمهيدية: للطرفين موقفان مختلفان، وأحدهما أو كلاهما يريد هزم الآخر، وكل طرف يعتقد أنه بإمكانه الدفاع عن رأيه.
  - البداية: أحد الطرفين يهجم.
  - الوسط: تأليف بين: الدفاع،
    المناورة،
    التراجع،
    الهجوم المضاد.

/

- النـــهايـــــة: الهدنة أو التوريط؛ الهزيمة أو النصر.
- المرحلة النهائية: السلم، والمنتصر له سلطة على المنهزم.
- التعاقب الخطي: التراجع بعد الهجوم،
الدفاع بعد الهجوم،
الهجوم المضاد بعد الهجوم.

- الترابط السببي: ينتج عن الهجوم الدفاع أو الهجوم المضاد أو التراجع أو التوقف.
- الـــغـــايـــة: النصر.

يقتضي فهم الحديث باعتباره جدالا أن نسحب البنية المتعددة الأبعاد من جزء من تصور الحرب فنلبسها بنية الحديث الموافقة لها. وتخصص البنيات المتعددة الأبعاد جشطلتات تجريبية، وهي كيفيات يتم بها تنظيم التجارب داخل كلّ مبنيَن. ففي استعارة الجدال حرب يبنيَن جشطلت الحديث، أيضا، عن طريق توافقات مع عناصر منتقاة من جشطلت الحرب. وهكذا، فإن نشاطا واحدا، وهو الكلام، يُفهَم من خلال نشاط آخر، وهو الصراع الفيزيائي. فبنينة تجربتنا من خلال هذه الجشطلتات المتعددة الأبعاد هو ما يجعل تجربتنا منسجمة. إننا نعيش تجربة الحديث باعتبارها جدالا حين يطابق جشطلت الحرب إدراكاتنا وأنشطتنا في الحديث.

إن فهم هذه الجشطلتات المتعددة الأبعاد والتعالقات الموجودة بينها هو مفتاح فهم الانسجام في تجربتنا. وكما رأينا سابقا، فالجشطلتات التجريبية كُلٌّ مبنيَن متعدد الأبعاد. وهذه الأبعاد تحدَّد بدورها من خلال تصورات منبثقة بشكل مباشر. ومعنى ذلك أن الأبعاد المتنوعة (مثل الأطراف، والمقاطع، والأطوار، ... إلخ) مقُولات تنبثق بشكل مباشر من تجربتنا. وقد رأينا سابقا أن السببية تصور منبثق بشكل مباشر، والأبعاد الأخرى التي نُمَقْوِلُ بواسطتها تجربتنا لها أسس تجريبية واضحة تماما:

- الأطراف: ينتج هذا البعد عن تصور النفس [أو الذات] باعتبارها عاملا (actor) نميزه من الأعمال التي ينجزها هذا العامل. كما نميز بين أنواع من الأطراف (أشخاص، أو حيوانات، أو أشياء).
- المقاطـــع: إننا نعيش تجربة ذواتنا باعتبارنا لنا مقاطع وأجزاء (أياد، وأرجل، ... إلخ) نتمكن من مراقبتها والسيطرة عليها بشكل مستقل. وبطريقة مماثلة، نعيش تجربة الأشياء سواء انطلاقا من الأجزاء التي تكونها طبيعيا أو من الأجزاء التي نفرضها عليها طبقا لإدراكاتنا وتفاعلاتنا معها أو لاستعمالاتنا إياها. وبشكل مشابه، نفرض بنية الجزء/ الكل على الأحداث والأنشطة. كما نميز، كما في حالة الأطراف أعلاه، بين أنواع من المقاطع (أنواع من الأشياء، أو أنواع من الأنشطة، ... إلخ).

- الأطوار: تتطلب وظائفنا الحركية البسيطة معرفة أين نوجَد، أي معرفة المواقع التي نتواجد فيها (الشروط التمهيدية)، ثم الشروع في التحرك (البداية)، ثم تنفيذ وظيفة الحركة (الوسط)، ثم التوقف (النهاية) الذي يجعلنا نصل إلى مرحلة النهاية.
- التعاقب الخطي: يتطلب منا التحكم في وظائفنا الحركية البسيطة أن نضعها في تعاقب خطي صحيح
- الـغاية: منذ ولادتنا (بل قبلها)، لنا حاجيات ورغبات. ونفقه بشكل جد مبكر أنه بإمكاننا إنجاز بعض الأنشطة (مثل البكاء، أو القيام بحركة معينة، أو علاج الأشياء) لتحقيق هذه الحاجيات والرغبات.

هذه بعض الأبعاد الأساسية في تجربتنا. فنحن نصنف تجاربنا بهذه الكيفية، ونرى الانسجام في تجارب متنوعة ما دمنا نُمَقْولِهُا من خلال جشطلتات لها هذه الأبعاد على الأقل

ما معنى أن يوافق تصور ما تجربة معينة؟

لنرجع إلى تجربة الحديث التي تتحول إلى جدال. إن التواجد في الحديث، كما رأينا، يعتبر تجربة مبنيَـة. فأن نعيش تجربة الحديث معناه أن نصنِّف بشكل آلي وغير واع تجربتنا باعتبار الأبعاد الطبيعية لجشطلت الحديث: من يشارك فيه؟ دورُ من في الكلام (أيُ أيُّ مقطع)؟ ما هو الطور الذي نجتازه في حديث ما؟ . . . وهلم جرا. فبفرض جشطلت الحديث على ما يحصل نعيش تجربة الكلام والاستماع باعتبارها نوعا خاصا من التجربة، أي باعتبارها تجربة الحديث. وعندما ندرك أبعاد تجربتنا باعتبارها توافق، زيادة على ذلك، جشطلت الحرب نصبح واعين بكوننا نشارك في نوع تجربة آخر، وهو الجدال. بهذه الوسائل نصنف التجارب الخاصة، ونحتاج إلى تصنيف تجاربنا من أجل أن نفهم، وذلك لكي نتمكن من معرفة ما يجب أن نفعله.

وبهذا نصنف التجارب الخاصة من خلال الجشطلتات التجريبية الموجودة في نسقنا التصوري. وهنا يجب أن نميز بين: 1) التجربة في ذاتها كما نُبنينها، و 2) التصورات التي نستعملها في بنينتها، أي تلك الجشطلتات المتعددة الأبعاد مثل الحديث والجدال. إن تصورا ما، وليكن تصور الحديث، يحدِّد بعض الأبعاد الطبيعية (مثل الأطراف، والمقاطع، والأطوار، . . . إلخ)، وكيف تترابط هذه الأبعاد في ما بينها. ويتم الترابط على مستوى كل بعد على حدة بين تصور الحديث ومظاهر النشاط الفعلي للتحدث. هذا ما نعنيه حين نقول إن تصورا ما يوافق تجربة معينة.

إننا ببنائنا تصورنا لتجاربنا بهذه الطريقة ننتقي «أهم» مظاهر تجربة ما. وبانتقائنا لما هو «مهم» في التجربة نتمكن من تصنيفها وفهمها وتذكرها. لو قلنا لك، مثلا، إنه كان

لنا جدال أمس فإن ذلك سيكون صحيحا إذا كان تصورنا للجدال يوافق، في كل المستويات وفي كل بعد من أبعادها، التجربة التي أنجزناها أمس باعتبارنا طرفين [في هذا الجدال].

البنينة الاستعارية في مقابل التفريع المقولي

عندما ناقشنا تصور الجدال افترضنا وجود تمييز واضح جدا بين التفريع المقولي والبنينة الاستعارية. فمن جهة، نعتبر قولنا الجدال حديث مثالا للتفريع المقولي لأن الجدال هو أساسا نوع من الحديث. وفيهما معا (أي الجدال والحديث) يظهر نفس النوع من النشاط، وهو الكلام والجدال يقدم كل السمات البنيوية الأساسية للحديث. وبذلك ـ فإن معيارنا للتفريع المقولي أن نكون بصدد: 1) نفس النوع من النشاط، و2) ما يكفي من السمات البنيوية. وفي مقابل هذا، نعتبر الجدال حرب استعارة لأن الجدال والحرب نوعان من الأنشطة مختلفان للغاية. والجدال مبنين من خلال الحرب. والجدال نوع من الأنشطة تختلف لأنه يتطلب نشاط الكلام وليس نشاط العراك الفيزيائي. والبنينة جزئية لأننا لا نستعمل سوى عناصر منتقاة من تصور الحرب. وبهذا كان معيارنا في رصد الاستعارة: 1) الاختلاف في نوع النشاط، و2) البنينة الجزئية (أي استعمال بعض الأجزاء المنتقاة ليس غير).

إلا أنه ليس بإمكاننا دائما تمييز التفريع المقولي من الاستعارة اعتمادا على هذين المعيارين. والسبب في ذلك أنه لا يتضح دائما متى ينتمي نشاطان (أو شيئان) إلى نفس النوع أو إلى نوعين مختلفين. خذ، مثلا، الجدال قتال. هل يتعلق الأمر هنا بتفريع مقولي أم باستعارة؟ المشكل هنا هو معرفة ما إذا كان الجدال والقتال من نفس النوع من النشاط. إنه ليس مشكلا بسيطا. فالقتال محاولة للهيمنة؛ ويقتضي، نموذجيا، ممارسة الضرب، والإيلام، وإلحاق الضرر، . . .إلخ. إلا أنه يدخل في ذلك أيضا الألم النفسي وما يمكن أن نسميه الهيمنة النفسية. وإذا كان تصورك للقتال يتضمن الهيمنة النفسية والألم النفسي، مساويَيْن في ذلك الهيمنة الفيزيائية والألم الفيزيائي، فإنك قد تعتبر الجدال قتال تفريعا مقوليا وليس استعارة ما دام كلاهما يقتضي الرغبة في الهيمنة النفسية. وإذا تبنّينا هذا الرأي سيكون الجدال نوعا من القتال مبنيًا بواسطة الحديث. أما إذا تصورت القتال، من جهة أخرى، باعتباره فيزيائيا صرفا، ونظرتَ إلى الألم النفسي كما لو كان ألما استعاريا فحسب، فإنك ستعتبر الجدال قتال استعارة.

ما يجب التركيز عليه أن التفريع المقولي والاستعارة نقطتانِ تحدان خطا متصلا. فعلاقة من قبيل أ هو ب (كما في الجدال هو القتال، أو الجدال قتال) ستكون تفريعا مقوليا واضحا إذا كان أ وب من نفس نوع الأشياء أو الأنشطة، وستكون هذه العلاقة استعارة واضحة إذا كانا نوعين من الأشياء أو الأنشطة واضحي الاختلاف. إلا أنه في الحالات غير الواضحة حيث لا نعرف هل أ وب من نفس نوع الأشياء أو الأنشطة أم لا، فإن علاقة أ هو ب تتموقع في مكان ما وسط الخط المتصل الآنف الذكر.

إن أهم شيء يجب تسجيله أن النظرية التي عرضناها في الفصل الرابع عشر تتيح الحالات غير الواضحة كما تتيح الحالات الواضحة. وتتطلب الحالات غير الواضحة نفس النوع من البنيات (مع نفس الأبعاد ونفس التعقيدات الممكنة)، شأنها في ذلك شأن الحالات الواضحة. ففي حالة غير واضحة من قبيل أ هو ب، سيكون أ وب جشطلتين يبنيان بعض أنواع الأنشطة (أو الأشياء) والسؤال الوحيد الذي سيطرح هو معرفة هل هذه الأنشطة أو الأشياء التي يبنيها هذان الجشطلتان هي من نفس النوع أم لا

لقد حددنا سابقا الانسجام عن طريق الجشطلتات التجريبية التي تتضمن أبعادا متنوعة تنبثق بشكل طبيعي من التجربة. بعض الجشطلتات بسيطة نسبيا (مثل الحديث)، وبعضها مطور إلى أبعد الحدود (مثل الحرب). وهناك، بالإضافة إلى ذلك، الجشطلتات المعقدة التي تبنيها جزئيا جشطلتات أخرى. وهذه هي التي أطلقنا عليها اسم التصورات المبنينة استعاريا وبعض التصورات تبنى تقريبا كليا بواسطة الاستعارة. فتصور الحب، مثلا، مبنيٌ أساسا بالاستعارات التالية: الحب سفر، والحب مريض، والحب **قوة فيزيائية**، والحب جنون، والحب حرب، ... إلخ إن لتصور الحب نواة مبنينة بشكل أدنى بواسطة التفريع المقولي التالي: **الحب عاطفة**، وبواسطة الارتباط بالعواطف الأخرى، مثل الميل [نحو أحدهم]. وهذه الأشياء نموذجية في التصورات العاطفية التي ليست مرسومة بوضوح في تجربتنا المباشرة. وبهذا يتم فهمها بدءا بشكل غير مباشر، أي عبر الاستعارة.

وإذا أردنا أن نتحدث من خلال الجشطلتات التجريبية فإن المشكل يكون مشكل انسجام أكثر منه مشكل بنينة. فحين يكون تصور ما مبنيناً بواسطة أكثر من استعارة واحدة فإن البنيات الاستعارية المختلفة تتوافق، في الغالب، بشكل منسجم. وسننظر الآن في مظاهر انسجام أخرى سواء في إطار بنينة استعارية واحدة أو عبر استعارتين أو أكثر.

16. الانْسِجَامُ الاسْتِعَاري

المظاهرُ المتخصّصة في تصوُّر ما

تطرقنا، في ما سبق، إلى تصور **الجدال** بطريقة مفصلة تجعلنا نحصل على فكرة عامة بخصوص بنيته الشاملة. وتصور الجدال، شأنه شأن كثير من تصوراتنا العامة، لـه مظاهر متخصصة تستعمل في بعض الثقافات الفرعيـة أو في بعض الأوضاع. لقد رأينا، مثلا، أن تصور الجدال يتخصص داخل الأوساط الأكاديميـة أو عـالم القانـونيين . . .إلخ، فيصبح جدالا عقليا يختلف عن تصور الجدال «الـلاعقلي» الذي نستعملـه في حياتنا اليـومية. ففي الجدال العقلي تتقيـد التكتيكـات *بشكل مثالي*، وذلك بإقـامة المقـدمات وإيـراد البراهين المدعمة ورسم النتائج المنطقية. أما على المستـوى العملي، فكما رأينا سابقا، تظهر تكتيكات الجدال اليومـي (مثل التحدي، واللجوء إلى السلطـة، . . .إلخ) في الجدال «العقلي» الفعلي بشكل متنكر أو مهذّب. وهذه القيود الإضافية تجعل من **الجدال العقلي** فرعا متخصصا من التصور العام لـجدال. وبالإضـافة إلى ذلك، فإن الهدف من الجدال يتقيد بدوره في حـالة **الجدال العقلي**. ففي الحالة المثلى، ننظـر إلى هدف ربح الجدال باعتباره يخدم هـدفا أسمى، وهو الفهم.

وهناك تخصص إضافي داخل **الجدال العقلي** نفسـه. فبما أن الخطاب المكتوب لا يسمح بقيام حوار له عناصر الجدالات ذات الطرفين، فإنه ينشأ شكل خاص للجدال ذي الطرف الواحـد. وهنا يصبـح الكلام، نمطيـا، كتابة. ولا يـواجه المؤلـف، في هذه الحالـة، غريما حقيقيا، بل مجموعة من الغرماء المفترضين، أو مجموعة من الغرماء الحقيقيين غير الحاضرين للـدفـاع عن أنفسهم، أو للقيـام بهجوم مضـاد، أو غير ذلك. هنـا نحصل على التصـور المتخصص التالي: **الجدال العقلي ذي الطرف الواحد**.

وأخيرا، يمكن أن نميـز بين الجدال بـاعتبـاره *سيرورة* (أي فعــلُ الجدال) والجدال باعتباره *منتوجا* (أي ما كُتب أو قيل أثناء الجدال). هنا، تكون السيرورة والمنتوج مظهرين مترابطين بشكل وثيق داخل نفس التصور العام، ولا يمكن أن يـوجد أحدهما دون الآخر، إلا أنه يمكن أن نركز على أحدهما. وبهذا يمكن أن نتحدث عن أطـوار جدال ما باعتبارها تنسحب على السيرورة أو على المنتوج.

يُعتبر **الجدال ذو الطرف الواحد** فرعا متخصصا داخل التصور العام للجدال. وبذلك يخضع لعدة قيود خاصة به. فما دام لا يوجد [في هذا التصور الفرعي] أي عدو مخصوص، فإنه يجب افتراض عدو مُـؤَمثَل (idealized). وإذا كـان الهدف في كليهما هــو النصر، فإن النصر في التصور الفرعي يتـم ضد عدو مؤمثَل غير حاضر. والسبيـل الوحيد لضمان النصر هـو القدرة على هـزم كل الأعداء المحتملين، و«ربـح» الأطراف المحـايدة وجعلهـا في صف [المؤلف]. ومن أجل ذلك، يجب استباق الاعتراضـات المحتملة، والدفاعـات، والهجومات . إلخ، وأخذها بعين الاعتبار في بنـاء هذا الجدال. ومادمنا في إطار **جدال عقلي**، فكل الخطوات ليس القصد منها إحراز النصر فحسب، بل إنها تخدم هدفا أسمى هو الفهم.

وتتطلب القيـود الإضافيـة الموضـوعة على الجدالات العقليـة ذات الطـرف الواحـد أن ننتبـه، بشكل خـاص، إلى بعض مظـاهـر الجدال التي تكـون غير ذات أهميـة (وربما غير حاضرة) في الجدال اليومي. ومن هذه المظاهر ما يلي:

المحتوى: عليك أن تتوافر على أكبر عدد من الحجج المدعِّمـة، وأن تقول أكبر عدد من الأشياء الصحيحة لكي تُقِيم رأيك وتهزم كل الاعتراضات المحتملة.

التقدم: عليك أن تبـدأ بمقدمات متفـق عليها عمومـا، وتتقدم بشكل خطـي نحو النتائج.

البنية: يتطلب الجدال العقلي ترابطات منطقية ملائمة بين مختلف المقاطع.

القوة: تـرتبط قدرة الجدال على الصمـود في وجه الهجـومات بـوزن الحجج وبتراصِّ الترابطات المنطقية.

القاعدية (basicness): تكون بعض المزاعم أهم من أخـرى فيتم التشبث بها والدفاع عنها دون الأخرى. فالمزاعم اللاحقة ترتكز عليها.

البدهية: في كل جـدال، هنــاك أشيـاء ليســت بــدهيــة. ونحتــاج إلى تحديــدهــا واستكشافها بالتفصيل الكافي.

المباشَرَة(directness): قد ترتبـط قوة جدال ما بالطـريقة الصريحة التي يتم المرور بها من المقدمات إلى النتائج.

الوضوح: يجب أن تكون المزاعـم وترابطـاتها المنطقية واضحة بـالقدر الكـافي حتى يفهمها القارئ.

هذه المظاهر من الجدال العقلي ذي الطرف الـواحد لا تحضر بالضرورة في جدال يومي عادي. كما أن تصور الحوار واستعارة الجدال حرب لا يركزان على هـذه المظاهر التي تُعتبر حاسمة في الجدال العقلي المؤمثَل. ويُستخلص من هــذا أن الجدال العقلي يحدَّد أكثر عن طـريق استعـارات أخـرى *تجعلنا* قـادرين على التركيـز على هـذه المظاهـر المهمـة. وهـذه الاستعارات هي: **الجدال سفر، والجدال وعاء، والجدال بناء**. وكما سنرى، فكل واحدة من

هذه الاستعارات تسمح لنا بالقبض على بعض المظاهر السابقة في تصور **الجدال العقلي**. ولا تتيح لنا إحدى هذه الاستعارات بمفردها فهم كل هذه المظاهر بشكل شامل ومتماسك. أما إذا نظرنا إليها مجتمعة فإنها تعطينا فهما منسجما للجدال العقلي. وسنشرع الآن في معالجة مسألة بنينة استعارات مختلفة لتصور ما، حيث تُبنينُه كل منها بشكل جزئي، وتعطي مجتمعة فهما منسجما لهذا التصور في كليته.

الانسجام داخل استعارة واحدة

يمكن أن نكون فكرة عن آلية الانسجام في إطار بنينة استعارية واحدة إذا انطلقنا من استعارة **الجدال سفر**. ترتبط هذه الاستعارة بهدف الجدال، إذ يكون للجدال بداية ويتواصل بشكل خطي ويتطور عبر مراحل نحو ذلك الهدف. وهذه بعض الأمثلة التي توضح هذه الاستعارة:

الجدال سفر

- (1) لقد **سلكنا طريقا** يسمح لنا بأن نستدل على أن الخفافيش طيور
- (2) **حين نصل إلى النقطة الموالية** سنرى أن الفلسفة ماتت
- (3) **إلى حد الآن**، رأينا أن النظريات المتداولة لا تحل المشكل
- (4) والآن سوف **نكمل خطوةً خطوةً**
- (5) **هدفنا** أن نبين أن الطيور الطنانة أساسية في الدفاع العسكري
- (6) هذه الملاحظة **تفتح الطريق** أمام حل أنيق
- (7) **وصلنا إلى** نتيجة مزعجة

والشيء الوحيد الذي نعرفه عن الأسفار هو أن **السفر يعينِّ مسارا**:

السفر يعين مسارا

- (8) وحصل أن **تاه عن الطريق**
- (9) لقد **جنح نحو الاتجاه السيء**
- (10) إنهم **يتبعوننا ويقتفون آثارنا**
- (11) **ضللنا السبيل**، **فأين المسار**

وإذا جمعنا بين استعارة **الجدال سفر** واستعارة **السفر يعين مسارا** حصلنا على ما يلي:

الجدال يعين مسارا

- (12) لقد **ابتعد عن خط الاستدلال**
- (13) **هل تتبع استدلالي أم لا؟**
- (14) **نَحَونا نحوا سيئا**
- (15) **ضللت السبيل**
- (16) **إنك تدور في حلقة**

وعلاوة على هذا، فإن المسارات تُتَصور باعتبارها مساحات (فَكِّرْ في بساط يمتد أمامك كلما تقدمتَ مكوِنا بذلك مسارا خلفك):

مسار السفر مساحة

- (17) قد غطينا مساحة لا بأس بها
- (18) إنه على الطريق
- (19) لقد حاد عن الطريق
- (20) رجعنا إلى المنطلق

وبما أن الجدال يعين مسارا، ومسار السفر مساحة، فإننا نحصل على ما يلي:

مسار الجدال مساحة(1)

- (21) غطينا كل أجزاء الموضوع
- (22) غطينا مجالا مهما في استدلالنا
- (23) إنك تخرج باستمرار عن الموضوع
- (24) إنك على النهج الصحيح
- (25) سنقف على بعض الأشياء المهمة

لدينا هنا مجموعة من الحالات التي تدخل في استعارة الجدال سفر. وما يجعل هذه الحالات نسقية اقتضاءان استعاريان يستندان إلى أمرين مرتبطين بالأسفار:

أمران مرتبطان بالأسفار:

- السفر يعين مسارا
- مسار السفر مساحة

الاقتضاءان الاستعاريان:

- 1. الجدال سفر،
والسفر يعين مسارا،
إذن، الجدال يعين مسارا.

1) ويمكن أن ندرج هنا عدة أمثلة نضيفها إلى ما أثبته المؤلفان، وذلك مثل قولنا:
أ. هذه الأمور تنسحب على عدة مجالات
ب. قد يغطي هذا الافتراض كل المعطيات الواردة
إلا أن هذين المثالين لا يركزان على كون مسار الجدال مساحة بقدر ما يركزان على اعتبار الشيء الذي يكون موضوع الجدال مساحة. والاستعارة التي يوردها المؤلفان لا يمكن أن تتم بدون هذا الاعتبار. ففي قطع المتجادلين مسارا معينا فإنهما يسيران على مساحة معينة هي المساحة التي يعينها المسار (أي طريق السفر استعاريا)، وهذه المساحة تتكون من مقاطع محتوى الجدال وأطواره. (هـ. م)

ـ 2 الجدال سفر،
ومسار السفر مساحة،
إذن، مسار الجدال مساحة.

يحدد الاقتضاءان الاستعاريان هنا النسقية *الداخلية* لاستعارة **الجدال سفر**، أي أنهما يجعلان كل الأمثلة التي تقع ضمن هذه الاستعارة منسجمة مع بعضها.

الانسجام بين مظهري تصور واحد

ليست استعارة **الجدال سفر** سوى استعارة من الاستعارات المرتبطة بالجدال فهي الاستعارة التي نستعملها لتسليط الضوء على هدف الجدال، أو اتجاهه، أو للتحدث عن تقدمه. أما حين نريد التحدث عن مضمون الجدال فإننا نستعمل الاستعارة المعقدة بنيوياً **الجدال وعاء**. فالأوعية يمكن أن ينظر إليها باعتبارها تحدد فضاء منتهيا (له مساحة ذات حدود، وله مركز وهامش)، وحاوية لمادة (قد تتنوع من حيث مقدارها، وقد تكون لها نواة تتموقع في المركز). ونستعمل استعارة **الجدال وعاء** حين نريد تسليط الضوء على إحدى مظاهر الجدال هاته:

الجدال وعاء

ـ (26) ليس لاستدلالك **محتوى**
ـ (27) هذا الاستدلال **منخور (وفيه ثقوب)**
ـ (28) لم تقدم **الكثير** في استدلالك، والاعتراضات تفتقد إلى المزيد من المادة
ـ (29) هذا البرهان **فارغ**
ـ (30) تعبت من براهينك **الجوفاء**
ـ (31) استدلالك **خال من كل محتوى**
ـ (32) لن **تجد** هذه الفكرة **في** استدلاله
ـ (33) **تقع** هذه الخلاصة **خارج** استدلالي
ـ (34) هذه النقط **مركزية**، أما الباقي **فهامشي**
ـ (35) لم أنفذ إلى **نواة** الاستدلال

وبما أن الغرضين من استعارتي **السفر** و**الوعاء** مختلفان، أي بما أن الاستعارتين تستعملان للتركيز بتفصيل على مظاهر مختلفة من الجدال (الهدف والتقدم في مقابل المحتوى)، فإننا لن ننتظر أن تتداخل هاتان الاستعارتان بشكل تام. إلا أنه من الممكن، في بعض الحالات، أن نركز على كل من السفر (التقدم) والوعاء (المحتوى)، في نفس الآن، باعتبارهما مظهرين في الجدال. وبهذا نحصل على استعارات مختلطة تبرز كلا المظهرين في نفس الآن.

التداخل بين استعارتي السفر والوعاء

- (36) **في هذه النقطة**، يخلو استدلالنا من **المحتوى**
- (37) ما فعلناه في **السابق** هو عرض **نواة** استدلالنا
- (38) إذا **استمررنا على هذه الطريق** ستتمكن من **إدخال** كل المعطيات

إن ما يجعل هذا التداخل ممكنا هو كون استعارتي السفر والوعاء تشتركان في الاقتضاء. فالاستعارتان تسمحان لنا بتمييز شكل الجدال عن محتواه إذ يوافق المسارُ، في استعارة السفر، شكلَ الجدال؛ وتوافق المساحة «التي تمت تغطيتها» المحتوى. وحين ندور في حلقة فنعين بذلك دائرة فإننا قد نسلك مسارا طويلا، إلا أننا لا «نغطي» مساحة كبيرة: أي أنه لن يكون للجدال قدر كبير من حيث المحتوى. وبعكس ما سبق، ففي جدال جيد يتم استعمال كل عنصر من عناصر شكل الجدال للتعبير عن بعض المحتوى. فبقدر طول المسار (أي بقدر طول الجدال)، في استعارة السفر، تغطى مساحة أكثر أي يكبر محتوى الجدال). وفي استعارة **الوعاء** توافق مساحةُ حدود الوعاء شكلَ الجدال، وما يوجد في الوعاء يوافق محتوى الجدال. وفي وعاء مُعَدّ للاستعمال بشكل فعال، تُستعمل مساحة حدود الوعاء كلها لاحتواء المحتوى. وفي الحالة المثالية، بقدر كِبر المساحة (أي بقدر طول الجدال) يحتوي الوعاء على مادة أكثر (أي يكون للجدال محتوى أكثر). وكلما انبسط مسار السفر [وطال] تم خلق المساحة التي يحددها هذا المسار شيئا فشيئا. إن التداخل الحاصل بين الاستعارتين يكمن في الخلق التدريجي للمساحة. فكلما غطى الجدال مساحة أكثر (أي كلما كبرت مساحة السفر) أصبح له محتوى أكثر (أي زادت مساحة الوعاء).

إن ما يخصص هذا التداخل اقتضاء مشترك ينشأ بالشكل التالي:

اقتضاء غير استعاري بخصوص الأسفار

يخلق حدث السفر مسارا [أي يعينه]؛

والمسار مساحة؛

إذن، يخلق حدث السفر مساحة [ويعينها]

اقتضاء استعاري بخصوص الجدالات (مرتكز على الأسفار):

الجدال سفر؛

وحدث السفر يخلق مساحة؛

إذن، كلما تقدمنا في جدال خلقنا مساحة

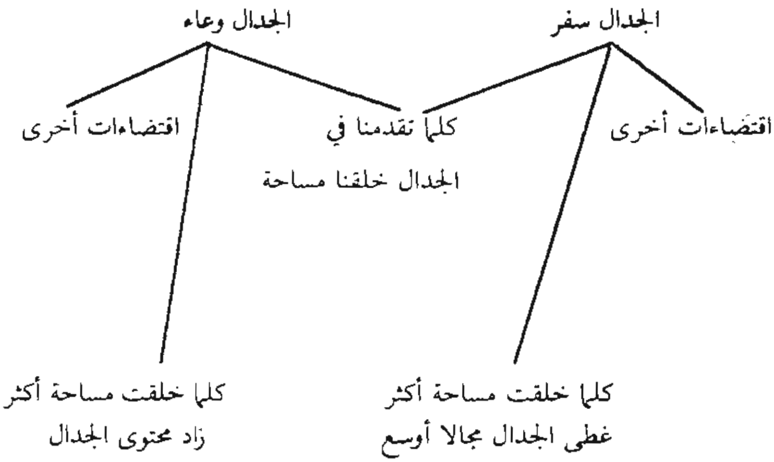
اقتضاء استعاري بخصوص الجدالات (مرتكز على الأوعية):

الجدال وعاء؛

وحين نصنع وعاء نخلق مساحة؛

إذن، حين نواصل جدالا نخلق مساحة.

للاقتضاءين الاستعاريين أعلاه نفس النتيجة تقريبا وهذا ما يمكن أن نمثل له بواسطة الجدول التالي:



إن التداخل في الاقتضاءين بين الاستعارتين هو الذي يحدد الانسجام بينهما ويتيح الترابط بين مقدار المساحة التي يغطيها الجدال وبين مقدار المحتوى الذي يكون له. وهذا ما يسمح لهما بأن تتآلفا وإن لم تكونا متناغمتين تماما، أي وإن لم توجد «صورة واحدة» تحيل عليها الاستعارتان معا. فمساحة وعاء ما ومساحة مجال ما مساحتان باعتبار خصائصهما الطوبولوجية المشتركة. إلا أن صورتنا عن مساحة مجال ما (أي مساحة أرض) تختلف كثيرا عن صورنا عن الأنواع المختلفة لمساحات الأوعية فالتصور الطوبولوجي المجرد للمساحة، والذي يشكل التداخل بين هاتين الاستعارتين، ليس ملموسا بالقدر الكافي حتى نشكل له صورة ما. وبصفة عامة فإنه حين تكون استعارتان منسجمتين، ولكن غير متلائمتين، فإنه يجب ألا ننتظر أن تكوّنا صورة متلائمة.

إن الاختلاف بين الانسجام والتلاؤم حاسم. فكل استعارة تركز على مظهر من مظاهر تصور الجدال. وبهذا فإن كلا منهما تخدم غرضا فريدا وعلاوة على ذلك تسمح لنا كل استعارة من الاستعارتين بفهم مظهر معين من التصور من خلال تصور أوضح، أي من خلال **السفر** أو **الوعاء**. والسبب الذي يبرر احتياجنا إلى استعارتين أنه لا تكفي إحداهما لوحدها لتحيل، في نفس الوقت، على اتجاه الجدال ومحتوى الجدال. ولا يمكن لإحدى هاتين الاستعارتين أن تستوفي هذين الغرضين. وحين لا يختلط الغرضان لا تختلط الاستعارتان. وبهذا نعثر على أمثلة لاستعارات مختلطة غير مسموح بها نظرا إلى استحالة استعارة محدَّدة وواضحة تستوفي كلا الغرضين في نفس الوقت. وهكذا يمكن أن نتحدث، مثلا، عن *اتجاه* الجدال، وعن *محتوى* الجدال، وليس عن *اتجاه محتوى* الجدال أو *محتوى اتجاه* الجدال. وبهذا لا نجد جملا من قبيل:

- (39) يمكن أن نتبع الآن **مسار نواة** الجدال
- (40) **محتوى** الجدال **يتواصل** كالتالي
- (41) ليس **لاتجاه** استدلاله **مادة**
- (42) أزعجني **المسار الأجوف** لاستدلالك

تكون الاستعارتان متلائمتين إذا كان هناك سبيل لاستيفاء الغرضين بشكل *تام* عن طريق تصور واحد محدَّد بوضوح. إلا أنه، عوض ذلك، لدينا انسجام إذ نجد استيفاء جزئيا للغرضين. فاستعارة **السفر**، مثلا، تسلط الضوء على المحتوى باعتبار مقداره وكثافته ومركزيته وحدوده. ومظهر *التقدم* في استعارة السفر، ومظهر *المقدار* في استعارة **الوعاء**، يمكن إبرازهما في نفس الوقت لأن المقدار يزيد كلما تقدم الجدال. وهذا ما يقودنا، كما رأينا سابقا، نحو استعارات مختلطة مسموح بها

نظرنا، إلى حد الآن، في الانسجامات بين بُنيتَيْنِ استعاريتين لتصور الجدال. وقد عثرنا على العناصر التالية:

- تلعب الاقتضاءات الاستعارية دورا جوهريا إذ تربط بين كل تحققات بنية استعارية *واحدة* لتصور ما (كما في التحققات المتنوعة لاستعارة **الجدال سفر**).

- تلعب الاقتضاءات الاستعارية دورا جوهريا كذلك في الربط بين بُنيتَيْنِ استعاريتين *مختلفتين* لتصور واحد (كما في استعارتي **السفر والوعاء** بالنسبة **للجدال**).

- يمكن أن يقيم اقتضاء استعاري مشترك توافقا بين الاستعارات. فمثلا، يقيم الاقتضاء المشترك التالي: **كلما تقدمنا في الجدال خلقنا مساحة أكبر** نوافقا بين مقدار المساحة التي يغطيها الجدال (بحسب استعارة **السفر**) ومقدار محتوى الجدال (بحسب استعارة **الوعاء**).

- تخدم البنينات الاستعارية لتصور ما أغراضا مختلفة عن طريق تسليط الضوء على مظاهر مختلفة لهذا التصور.

- حين يكون لدينا تداخل في الأغراض يكون لدينا تداخل في الاستعارات. وبهذا نحصل على الانسجام بين الاستعارات. والاستعارات المختلطة المسموح بها تندرج ضمن هذا التداخل

- بصفة عامة، التلاؤم التام بين الاستعارات نادر، أما الانسجام فنموذجي.

17 . الانسِجَامَاتُ الـمُعَقّدةُ بين الاسْتعَارَات

إن الشيء الأهم الذي ينبغي أن نستحضره أثناء مناقشتنا للانسجام هو الدور الذي يلعبه الغرض. فالبَنْيَة الاستعارية لتصور ما، كما في استعارة السفر المبنِية للجدالات، تسمح لنا بالإمساك بمظهر واحد من هذا التصور. وبهذا تنجح استعارة ما حين ترضي غرضا معينا، وهو فهم مظهر واحد من هذا التصور. وحين ترضي استعارتان بنجاح غرضين، فإن التداخل بين الغرضين سيوافق التداخل بين الاستعارتين. ونعتقد أن تداخلات كهاته يمكن أن تخصَّص من خلال اقتضاءات استعارية مشتركة، ومن خلال التوافقات الاستعارية التي تقيمها بينها.

لقد اطلعنا على ذلك انطلاقا من مثال بسيط في الفصل السابق. ونود الآن أن نبين أن نفس الآليات مطلوبة في الأمثلة المعقدة. ولهذا التعقيد مصدران اثنان: 1) غالبا ما تشترك عدة استعارات في البنية الجزئية لتصور واحد؛ وحين نتحدث عن تصور ما نستعمل تصورات أخرى تُفهَم بدورها بطريقة استعارية، الشيء الذي يؤدي إلى المزيد من التداخل بين الاستعارات. ويمكن أن نعزل العوامل التي تؤدي إلى مثل هذه التعقيدات بفحصنا لتصور الجدال بشكل أعمق.

عموما، للجدالات غرض هو الفهم (1). فنحن نبني استدلالات حين نكون بحاجة إلى تبيين الترابطات القائمة بين أشياء بدهية نعتبرها من المسلمات وأشياء أخرى غير بدهية.

1) بعد أن أدرج المؤلفان تصور الجدال العقلي في إطار تصور الجدال عامة، أصبحا يعطيان الاستعارات المرتبطة به مدلولا آخر قريبا من السابق المرتبط بتصور الجدال اليومي. وبهذا أصبحت كلمة argument تحيل على البناءات العقلية المجردة أو على الاستدلال الخاضع لمنطق عقلي. وبذلك يكون ما يقابل استعارات الجدال هنا هو الاستدلال. وهذا يطرح مشكلا للترجمة العربية التي تعبر عن كلمة argument بعدة ألفاظ كالجدال والاستدلال والخلاف، ... إلخ. أما الأنجليزية فيمكن أن تعبر عن كل هذه الألفاظ العربية المترابطة باللفظ المشترك argument. فحين نكون بصدد الجدال اليومي أو غير العقلي فإن ما يقابله قد يكون الخلاف الحاصل بين شخصين حول أمر ما. أما حين نكون بصدد الجدال العقلي فإن مقابله هو الاستدلال. إذن، فحين نتحدث عن الجدال هنا فإننا نعني به الاستدلال، لذلك ترد أغلب المعطيات متضمنة لألفاظ مثل «استدلال» أو« برهان» كما نحتفظ بالمعنى العام للجدال، بحيث يدخل فيه العقلي وغير العقلي. (هـ.م)

ونقوم بهذا عن طريق وضع الأفكار مع بعضها. وهذه الأفكار تشكل محتوى الاستدلال. أما الأشياء التي نعتبرها من المسلمات فتشكل نقطة انطلاق الاستدلال، والأشياء التي نود إثباتها تعتبر أهدافا علينا أن نصل إليها. وكلما توجهنا نحو هذه الأهداف تقدمنا في إقامة الترابطات. والترابطات قد تكون قوية أو ضعيفة. وشبكة الترابطات ذات بنية شاملة. وفي كل استدلال نجد أن بعض الأفكار أو بعض الترابطات تكون أكثر قاعدية من أخرى، وبعض الأفكار تكون أبعده من أخرى. وترتبط جودة الاستدلال بمحتواه، وبقوة ترابطاته، وبمدى المباشرة في إقامة الترابطات، وبسهولة فهمها. وبإيجاز، فإن مختلف استعارات الجدال تسعى إلى خدمة غرض توفير فهم للمظاهر التالية من التصور:

المحتوى	القاعدية
التقدم	البدهية
البنية	المباشَرة
القوة	الوضوح

رأينا، في الفصل السابق، أن استعارة السفر تركز على المحتوى والتقدم على الأقل، وأن استعارة الوعاء تركز على المحتوى على الأقل، وأن هناك تداخلا يستند على التركيم التقدمي للمحتوى. إلا أن هاتين الاستعارتين تخدمان كذلك غرضين. كما أنهما مستلزمتان في انسجامات معقدة. ويمكن أن نرى ذلك إذا نظرنا إلى استعارة ثالثة تخص الجدالات:

الجدال بناء

- (1) تمكنّا من وضع إطار استدلال متين
- (2) إذا لم تدعم حجتك بمعطيات صلبة فإن كل شيء سينهدم
- (3) إنه يحاول تقديم سِناد لاستدلاله عن طريق معطيات غير واردة، ومن ثَمّ يظل استدلاله متصدعا وعرضة للانهيار أمام الانتقادات
- (4) انطلاقا من الأساس الذي أقمته يمكنك بناء استدلال قوي

تركز استعارات السفر والوعاء والبناء جميعها على كل مظاهر تصور الجدال المشار إليها أعلاه. وذلك ما توضحه المصفوفات التالية:

السفر	الوعاء	البناء
المحتوى	المحتوى	المحتوى
التقدم	التقدم	التقدم
المباشَرة	القاعدية	القاعدية
البدهية	القوة	القوة
	الوضوح	البنية

وهذه بعض الأمثلة التي توضح الكيفية التي نفهم بها كل مظهر من هذه المظاهر عن طريق هذه الاستعارات:

السفر

- (5) لم نتمكن، لحد الآن، من **الذهاب بعيدا** (*التقدم*، و*المحتوى*
- (6) هذا الاستدلال **يسلك طريقا ملتويا** (*المباشرة*)
- (7) نحتاج إلى **التوغل** أكثر لكي **نرى بوضوح** ما هو مطلوب (*التقدم والبدهية*)

الوعاء

- (8) **يتضمن** استدلالك كل الأفكار الجيدة، إلا أنه ليس **شفافا حتى الآن** (*المحتوى*، و*الوضوح*، و*التقدم*)
- (9) تشكل هذه الأفكار **النواة الصلبة في** الاستدلال (*القوة*، و*القاعدية*)

البناء

- (10) **أقمنا أساس** الاستدلال ونحتاج إلى **إطار متين** (*القاعدية*، و*البنية*، و*القوة*)
- (11) **بنينا الآن أهم ما في** الاستدلال (*التقدم*، و*المحتوى*)

رأينا، في الفصل السابق، أن كلا من الأسفار والأوعية تحدد المسافات، ومن هنا التداخل الحاصل بين استعارتي **السفر والوعاء**. ولأن للبناية أيضا مساحة تشغلها أسسها وجدرانها الخارجية، فإن ذلك يسمح بوجود تداخلات إضافية مع استعارة **البناء**. ففي كل حالة من هذه الحالات تحدِّد المساحةُ المحتوى. إلا أن ذلك يتم بطرق مختلفة:

السفر: المساحة التي يحددها مسار الجدال *تغطي مجالا*، والمحتوى هو المجال الذي يغطيه الجدال.

الوعاء: يوجد المحتوى داخل الوعاء، وتخوم الوعاء تعيّنها مساحته

البناء: المساحة هي الجدران الخارجية والأسس التي تعين داخلا للبناية. إلا أنه في استعارة البناء لا يكون المحتوى في الداخل، خلافا لاستعارة **الوعاء**، بل تشكل الأسس والجدران الخارجية المحتوى. ويمكن أن نرى ذلك في أمثلة من قبيل: «أسس استدلالك لاتتضمن محتوى يكفي لدعم ادعاءاتك»، أو «ليس لإطار استدلالك ما يكفي من المادة لمقاومة الانتقادات».

لنُسمِّ هذه المساحات «مساحات محددة للمحتوى». إن مفهوم المساحات المحددة للمحتوى لا يكفي لتفسير كل أمثلة الانسجام التي نعثر عليها بين الاستعارات لدينا. مثلا، حالات تداخل استعاري ترتكز على مفهوم العمق. وبما أن العمق يحدَّد باعتبار المساحة كذلك، فإنه يمكن أن نفكر في أن المساحة التي تحدد العمق ستكون بالنسبة لكل استعارة هي المساحة نفسها التي تحدد المحتوى ورغم ذلك فإن الأمر لا يتم دائما بهذا الشكل. وذلك ما توضحه الأمثلة التالية:

- (12) هذا الاستدلال ليس **عميقا** ويتطلب **أسسا** جيدة (البناء)
- (13) لقد **استكشفنا** هذه الأفكار **بشكل عميق** (السفر)
- (14) لم نصل إلى **العمق** بعد، أي إلى **صلب** الاستدلال (الوعاء)

ففي استعارتي **البناء** و**السفر** تكون المساحة التي يحددها العمق هي مستوى المجال [أي مستوى الأرض]. أما في استعارة **الوعاء** فإن تلك المساحة هي من جديد مساحة المحتوى

	السفر	الوعاء	البناء
المساحة المحددة للمحتوى	المساحة التي يخلقها المسار	مساحة الوعاء	أسس البناء وجدرانه الخارجية
المساحة المحددة *للعمق*	المساحة الأرضية	مساحة الوعاء	المساحة الأرضية

وقبل أن نصل إلى الانسجامات، فإنه من المهم أن نعترف بأنه لدينا هنا مفهومان للعمق. ففي استعارتي **البناء** و**الوعاء** ما هو أعمق يأتي أولاً. والمقاطع التمهيدية في الاستدلال هي الأعمق، وهي الأسس والنواة أو الصُّلب. أما في استعارة **السفر**، فالأشياء العميقة هي تلك التي ليست واضحة. فالأشياء التي لا توجد على السطح (=المساحة) لا تُرى مباشرةً، وعلينا أن نذهب بعيدا باتجاه عمق الأشياء. وأهداف الاستدلال تقتضي أن نجتاز بعض المجالات، بل وأن نجتازها بما يكفي من العمق. ولا يقتضي التقدم في استدلال ما أن نجتاز نطاق هذه المجالات فحسب، بل وأن **نحفرها** بما فيه الكفاية. إن «استكشاف موضوع ما بعمق» يشكل جزءا من السفر:

- (15) كلما **سبرنا** هذا الموضوع **بعمق أكثر** وجدنا أن . . .
- (16) **وصلنا** الآن إلى **النقطة** التي يجب أن نستكشف فيها الأمور في **مستوى أعمق**

وبما أن أهم شيء في السفر يقع على مساحة من الأرض، فإن هذه المساحة هي التي تحدد عمق المواضيع التي يتم اجتيازها. إلا أنه كلما ذهبنا في النظر في موضوع ما بعمق تركنا ممرا (أي مساحة) خلفنا، مثلما نفعل حين نمر بالأمكنة خلال السفر. وبتركنا هذه المساحة وراءنا نكون قد اجتزنا موضوعا ما بعمق معين. وذلك ما يفسر الأمثلة التالية:

- (17) **سوف نتقدم بعمق** في رصد مواضيع مختلفة
- (18) كلما **ذهبنا بعيدا** اخترقنا هذه المشاكل **بعمق**
- (19) **اجتزنا** الآن كل المشاكل في **إطار مستويات ملائمة**

وبهذا فإن الاتجاه الاستعاري للعمق يوافق [مظهرَ] القاعدية في استعارتي **البناء** و**الوعاء**. إلا أنه يوافق، في استعارة **السفر**، ما ليس بدهيا. وبما أن العمق والتقدم مظهران

مختلفان في الاستدلال، فإنه لا توجد أية صورة ملائمة ممكنة [تجمعها] داخل استعارات الجدال. إلا أنه، وكما سبق، إذا كانت الملاءمة غير ممكنة هنا، فإننا نجد انسجاما استعاريا.

الآن، وقد وضحنا الفرق بين المساحات المحددة للمحتوى والمساحات المحددة للعمق، بإمكاننا أن ننظر في عدد من الانسجامات المعقدة الأخرى. فكما رأينا في حالة الانسجام بين استعارتي السفر والوعاء، يرتكز الانسجام الحاصل بين الاستعارات الثلاث على كونها كلها تتوافر على مساحات محددة للمحتوى. وكلما تقدم الجدال تم خلق مساحة إضافية. وبذلك يكون للجدال محتوى أكثر. وهذا التداخل بين البنيات الاستعارية الثلاث لهذا التصور يسمح باستعارات مختلطة من قبيل:

- (20) لقد بنينا لحد الآن نواة الاستدلال

نتتمي عبارة «لحد الآن» أعلاه إلى استعارة السفر، وتنتمي عبارة «بنينا» إلى استعارة البناء، وتنتمي عبارة «نواة» إلى استعارة **الوعاء**. وينبغي أن نسجل أنه بالإمكان أن نقول نفس الشيء تقريبا لو استعملنا «أساس» التي تنتمي إلى استعارة البناء، عوض «نواة»، أو لو استعملنا التصور المحايد التالي: «الجزء الأكثر قاعدية» عوض «نواة»:

- (21) بنينا لحد الآن **أساس** الاستدلال
- (22) بنينا لحد الآن **الجزء الأكثر قاعدية** في الاستدلال

إن ما يجعل هذا الاستبدال ممكنا كونُ العمق يخصص القاعدية في كل من استعارة **البناء** واستعارة **الوعاء**. فلكليهما جزء أعمق، أي أكثر قاعدية. وهذا الجزء هو «النواة» في استعارة **الوعاء**، وهو «الأساس» في استعارة **البناء**. وبهذا نحصل على توافق بين هاتين الاستعارتين. ويمكن أن نلاحظ ذلك في الأمثلة التالية، حيث يمكن لاستعارتي **الوعاء** و**البناء** أن تختلطا بكل حرية نظرا إلى هذا التوافق:

- (23) هذه النقط **مركزية** بالنسبة لاستدلالنا، وتشكل **أساس ما** سيتبعها
- (24) يمكن أن نهدم هذا الاستدلال إذا استطعنا أن نبين أن نقطه **المركزية** ضعيفة
- (25) الأفكار المهمة التي **تستند عليها** كل الأشياء الأخرى تشكل **نواة** الاستدلال

يرتكز التوافق هنا على الاقتضاء المشترك التالي:

الجدال بناء
وللبناء جزء أعمق،
إذن، **للجدال جزء أعمق**.
الجدال وعاء
وللوعاء جزء أعمق،
إذن، **للجدال جزء أعمق**.

وبما أن العمق يخصص القاعدية في كلتا الاستعارتين فإن الجزء الأعمق هو الجزء الأكثر قاعدية. وبهذا فإن ***الجزء الأكثر قاعدية*** مشترك بين الاستعارتين، وينطبق على هذه وتلك

وبما أن الغرض من الجدال هو أن نفهم، فإننا لن نفاجأ بتداخل استعارة الفهم إبصار مع مختلف استعارات الجدال. فحين نسافر نرى عددا أكبر من الأشياء كلما واصلنا السفر وهذا الأمر تترجمه استعارة الجدال سفر. فكلما تقدمنا في جدال رأينا عددا أكبر من الأشياء، وطالما أن الفهم إبصار فإننا نفهم أكثر. وهذا ما يفسر وجود تعابير مثل:

- (26) لاحظنا قبل قليل أن أكيناس Akinas يستعمل بعض المفاهيم الأفلاطونية
- (27) بوصولنا إلى هذه الفكرة يمكن أن نرى الآن الأشياء التي أخطأ فيها هيغل

ولأن السفر يمكن أن يتم بواسطة مرشد يدلنا على الأشياء ذات الأهمية طوال طريق سفرنا، فإننا نحصل على تعابير مثل:

- (28) سنبين الآن أن غرين Green أولَ خطأ التفسير الكانطي للإرادة
- (29) لاحِظوا أن س لا تنتج عن ص بدون إضافة بعض المقدمات
- (30) ويجب أن نشير إلى أن حججا كهاته لم يتم التوصل إليها

وفي كل هذه الحالات يكون المؤلف ذلك المرشد الذي يقودنا عبر الجدال[2]

يستلزم جزء من استعارة السفر أنْ «نذهب بعمق في موضوع ما» واستعارة الفهم إبصار تنطبق في هذه الحالة أيضا. ففي جدال ما تكون الأمور السطحية (أي تلك التي توجد على السطح، أي على المساحة) بدهية ومن السهل رؤيتها وإبصارها. أما الأمور العميقة فليست كذلك. إنها تتطلب مجهودا (وهو مجهود الحفر) لكي نكشفها فنتمكن من رؤيتها. وكلما تعمقنا في مشكل ما كشفنا عددا أكبر من الأشياء، وذلك ما يتيح لنا رؤية - أي فهم - عدد أكبر من الأشياء. وهذا التحليل يرصد تعابير من قبيل:

- (31) احفر أكثر في حججه وستكتشف خطة جيدة
- (32) لا يمكن أن نرى ذلك إلا إذا سبرنا أعماق المسألة
- (33) الاستدلالات غير العميقة لا قيمة لها لأنها تُبرز أشياء قليلة

إن لاستعارة الفهم إبصار، إذن، جزءا مشتركا مع استعارة البناء إذ إن ما يُرى هو بنية الجدال (أي شكله، ومظهره، وخطوطه العامة، ... إلخ):

- (34) يمكن أن نرى الآن خطوط الاستدلال العامة
- (35) إذا نظرنا بتمعن إلى بنية براهينه وجدناها .

وأخيرا، فإن استعارة الفهم إبصار تتداخل مع استعارة الوعاء، حيث يكون ما يُرى هو المحتوى (عبر مساحة الوعاء)، كما في:

- (36) هذا الاستدلال شفاف

2) يُعتبر المؤلف، كما ورد سابقا، طرفا في الجدال العقلي الذي يخوضه، والطرف الثاني عبارة عن غرماء مفترَضين هم القراء. وهذا ما تم الاصطلاح عليه سابقا بأنه الجدال العقلي ذو الطرف الواحد. وهو فرع متخصص من الجدال العقلي الذي يُعتبر، بدوره، فرعا متخصصا من تصور الجدال العام (انظر فصل 16). (هـ.م.).

- (37) إنني لا أرى هذه النقطة في استدلالك
- (38) بما أن استدلالك غير واضح فإنني لا أرى ما يمكن أن نستخلصه من نتائج
- (39) نرى بوضوح أنه ليس لبراهينك أي محتوى

ويبرز انسجام آخر بين استعارتين حين نتحدث عن نوعية جدال ما [كأن يكون جيدا أو ضعيفا أو غير هذا]. إن عددا من مظاهر الجدال التي يتم التركيز عليها من خلال مختلف استعارات الجدال يمكن أن تكمّم. فالمحتوى والوضوح والقوة والمباشرَة كلها مظاهر قابلة للتكميم. [وهنا] تتداخل استعارة الأكثر أجود مع كل استعارات الجدال، وتسمح لنا بالنظر إلى النوعية من خلال الكمية. وبهذا نعثر على أمثلة من قبيل:

- (40) لم تقدم الكثير من الاستدلال
- (41) استدلالك ليس له مضمون
- (42) هذا الاستدلال غير جيد لأنه لا ينسحب على أي شيء إطلاقا
- (43) استدلالك سيء، فهو ليس واضحا بما فيه الكفاية
- (44) ضعف استدلالك كبير، ولذلك لن تتمكن من تبرير ما تذهب إليه
- (45) استدلالك كثير الالتواءات، لذلك لن يسايرك أحد
- (46) استدلالك لا يعالج الموضوع بعمق كبير

وكل هذه الأمثلة تقيّم النوعية من خلال الكمية.

لم نستنفذ، على كل حال، كل الانسجامات عبر-الاستعارية التي تحيط باستعارات الجدال. لننظر، مثلا، إلى الشبكة الهائلة من الانسجامات المرتكزة على استعارة الجدال حرب. فهنا يمكن أن نربح أو نخسر، نهاجم أو ندافع، نخطط ونتبع استراتيجية... إلخ. وهنا قد تكون الاستدلالات قلاعا، عبر استعارة البناء ومنها قد نشن هجوما على استدلال ما، أو نشق نقط ضعفه، أو نهدمه وندمره. والاستدلالات قد تكون أيضا قذائف، عبر استعارة الوعاء. وهكذا يمكن أن نهدد متحدين: «أطلق النار!!». والاستدلال الذي يرد على ذلك قد يصيب الهدف. وفي دفاعنا قد نحاول إسقاط حجج خصمنا.

يبدو واضحا، منذ الآن، أن الانسجامات التي عثرنا عليها في أمثلة بسيطة ترد أيضا في الأمثلة الأكثر تعقيدا التي فحصناها قبل قليل. فأمثلة من قبيل «اجتياز نقط معينة»، و«دعمُ الاستدلال»، و«الوصول إلى صلب الموضوع أو نواته»، و«الحفر بشكل أعمق»، و«مهاجمة موقف ما»، و«إسقاط حجج العدو»، ... إلخ، التي يمكن أن تبدو في الوهلة الأولى وكأنها ليست سوى تعابير استعارية معزولة واعتباطية، يتبين أنها ليست صدفوية في شيء. فهي تشكل، بخلاف ذلك، جزءا من كل. وهذا الكل هو الأنسقة الاستعارية التي - إذا نظرنا إليها مجتمعة - تخدم غرضا معقدا، وهو تخصيص تصور الجدال في كل مظاهره كما نتصورها. ورغم أن هذه الاستعارات لا تزودنا بصورة ملموسة واحدة، ورغم أنها ليست

متلائمة في ما بينها، فإنها مع ذلك منسجمة وتتآلف مع بعضها حين تتداخل اقتضاءاتها إن الاستعارات تنتج عن تجاربنا الملموسة والمرسومة بوضوح ودقة، وتفتح لنا بذلك الباب لبناء تصورات موغلة في التجريد ومتطورة، كما هو الحال بالنسبة لتصور الجدال.

18 . بعضُ مُسْتتْبعات نَظريّات البِنْية التّصوُّرية

على نظرية كافية للنسق التصوري البشري أن ترصد الكيفية التي 1) تتأسس بها التصورات، و2) تُبنين بها، و3) تتعالق بها في ما بينها، و4) تُحدُّ بها [أي يكون لها حد، أو تعريف]. وقد قدمنا سابقا رصدا مؤقتا بصدد التأسيس والبنينة والعلاقات بين التصورات (مثل التفريع المقولي، والاقتضاء الاستعاري، والمقاطع، والأطراف، . . . إلخ)، منطلقين مما اعتبرناه حالات نموذجية. كما استدللنا على أن أغلب أجزاء نسقنا التصوري مبنيَنة استعاريا، وقدمنا تحليلا موجزا لما يعنيه ذلك [بالنسبة لنا]. وقبل أن نستثمر مستلزمات آرائنا بالنظر إلى الحد، نحتاج إلى عرض استراتيجيتين أساسيتين دأب اللسانيون والمناطقة على استعمالهما في معالجة ما اصطلحنا على تسميته بالتصورات الاستعارية، وذلك دون أن يحيلوا البتة على الاستعارة.

هاتان الاستراتيجيتان هما *التجريــــد*(abstraction) *والاشتراك اللفظي* (homonymy) ولكي نرى كيف تختلف هاتان الاستراتيجيتان عما قدمناه سابقا، سننظر في اللفظ «دعم» في الجملتين التاليتين:

- (1) **دعم** الحائطَ
- (2) **دعم** استدلاله بمعطيات إضافية

فبحسب رصدنا، نفهم «دعم»، في «دعم استدلالـه»، انطلاقا من التصور **دعم** الذي يُعتبر جزءا من جشطلت **البناء**. وبما أن تصور الجدال [أو الاستدلال] يُفهَم جزئيا من خلال استعارة **الجدال بناء**، فإن معنى «دعم»، في تصور **الجدال**، سينتج عن المعنى الذي يفيده في تصور **البناء**، مع إضافة الكيفية التي تبنين بها استعارة **البناء** عامة تصور **الجدال**. وهكذا لا نحتاج إلى حد مستقل بخصوص التصور **دعم** في «دعم استدلاله».

على عكس هذا، تزعم نظرية التجريد أن هناك تصورا مجردا واحدا وعاما جدا، وهو التصور **دعم**، وهو محايد سواء بالنسبة لـ «دعم» الموجودة في **البناء** أو «دعم» الموجودة في **الجدال**. وتبعا لهذا الرأي، تُعَد كل من «دعم الحائط» و«دعم الاستدلال» حالتين خاصتين داخل نفس التصور المغرق في التجريد. أما نظرية الاشتراك اللفظي فتسلك سبيلا مناقضا. فعوض أن تزعم أن هناك تصورا مجردا واحدا محايدا هو **دعم**، تدّعي أن هناك تصورين مختلفين مستقلين: **دعم**$_1$ **ودعم**$_2$. وفي هذا الإطار، نجد طرح الاشتراك اللفظي *القوي* الذي

يعتبر دعم1 ودعم2 مختلفين تمام الاختلاف، ولا علاقة لأحدهما بالآخر، بما أن أحدهما يحيل على أشياء فيزيائية (وهي أجزاء البناء) فيما يحيل الثاني على تصور مجرد (جزء من الجدال).
كما نجد طرح الاشتراك اللفظي *الضعيف* الذي يؤكد على وجود تصورين مختلفين مستقلين هما دعم1 ودعم2 إلا أن هذا الطرح يسمح بأن يكون معنيا هذين التصورين متشابهين من نواح معينة، وأن التصورين مترابطان بموجب المشابهة. وهذا الطرح ينكر، رغم ذلك، أن يكون أحد التصورين يُفهَم من خلال الآخر. فكل ما يدَّعيه هو أن للتصورين شيئا مشتركا: المشابهة المجردة وهنا يلتقي طرح الاشتراك اللفظي الضعيف بنظرية التجريد، إذ إن للمشابهة المجردة - تدقيقا - نفس خصائص نواة التصور التي تفترضها نظرية التجريد.

ونود الآن أن نبين لماذا لا يمكن لنظرية التجريد أو نظرية الاشتراك اللفظي، على السواء، أن ترصدا المعطيات التي قادتنا إلى نظرية التصورات الاستعارية، وبخاصة تلك المعطيات التي تخص الأنماط الاستعارية (الاتجاهية، والفيزيائية، والبنيوية) وخصائصها (النسقية الداخلية، والنسقية الخارجية، والأسس، والانسجام).

عدم كفاية نظرية التجريد

ليست نظرية التجريد كافية من عدة وجوه. أولا، لا تبدو هذه النظرية معقولة بصدد الاتجاه الإستعاري **فوق-تحت** الذي نجده في استعارات مثل: **السعادة فوق، والأكثر فوق، والفضيلة فوق، والمستقبل فوق، والعقل فوق،** إلخ. ما هو التصور الواحد العام الفارغ من المحتوى الذي يمكن أن يكون تجريدا للعلو، أهو **السعادة**، أم **السلطة**، أم **الفضيلة**، أم **المستقبل**، أم **العقل**، ويسري على هذه جميعها؟ وإضافة إلى ذلك، سنجد أن **فوق** و**تحت** لن تتمكنا من التموقع على نفس مستوى التجريد، بما أن **فوق** تنسحب على **المستقبل** [في الأنجليزية] في حين أن **تحت** لا تنسحب على **الماضي**. ونحن نفسر ذلك عن طريق البنية الاستعارية الجزئية، بخلاف ما تدعيه نظرية التجريد، إذ على **فوق** أن يكون **أكثر** تجريدا، بوجه من الوجوه، من **تحت**. وهذا ما يبدو لنا غير ذي معنى إطلاقا.

ثانيا، لن تميز نظرية التجريد بين الاستعارات ذات الشكل **أ هو ب** والاستعارات ذات الشكل ب هو أ. إنها ستقول إنه توجد مفاهيم محايدة تغطي المجالين معا. فمثلا، نجد استعارة **الحب سفر**، ولا نجد استعارة **الأسفار حب**. ستنكر نظرية التجريد أن يكون الحب يُفهَم من خلال الأسفار، وستجد نفسها أمام زعم يرفضه الحدس، وهو أن كلا من الحب والأسفار يُفهَمان من خلال تصور مجرد محايد [يربط] بينهما.

ثالثا، يمكن لاستعارات مختلفة أن تبنين مظاهر مختلفة في تصور واحد، كما في: **الحب سفر، والحب حرب، والحب قوة فيزيائية، والحب جنون**. فكل واحدة من هاته الاستعارات تعطينا منظورا واحدا لتصور الحب، وتبنين مظهرا من مظاهر هذا التصور المتعددة. أما فرضية التجريد فستذهب إلى القول بوجود تصور واحد عام، وهو تصور الحب. وسيكون هذا التصور مجردا بقدر يجعله ينسحب على كل هذه المظاهر. وحتى إذا

كان هذا الرأي صحيحا، فإنه سيخفق في رصد كون هذه الاستعارات لا تخصص مجتمعة نواة تصور الحب، ولكنها تخصص منعزلة مظاهر مختلفة من تصور الحب.

رابعا، إذا نظرنا إلى الاستعارات البنيوية ذات الشكل **أ هو ب** (كما في: **الحب سفر**، **والذهن آلة**، **والأفكار أغذية**، **والجدال بناء**)، نجد أن ب (أي التصور الذي يعطي الحد) تصور له حدود أوضح في تجربتنا، وهو نموذجيا ملموس مقارنة بالتصور **أ** (ذلك التصور المحدَّد). وعلاوة على ذلك، نجد أن التصور المحدِّد يحتوي على عدد من العناصر يفوق ما ينطبق على التصور المحدَّد. لنأخذ مثال **الأفكار أغذية** هنا نجد ***الأفكار*** *المطبوخة*، ***والأفكار*** *الفجة والنيئة*، *والأفكار المجترة*، ولكننا لا نجد ***الأفكار*** *المشوية*، أو *المسلوقة*، أو *المقلية* كما أنه، في استعارة **الجدال بناء**، وحدها الأسس والجدران الخارجية تلعب دورا في الاستعارة، فنحن لا نجد الغرف الداخلية أو السقف أو الردهات، . إلخ. وقد فسرنا عدم التوازي هذا [بين عناصر التصور المحدِّد وعناصر التصور المحدَّد] بالطريقة التالية: التصورات التي لها حدود مرسومة بوضوح أقل (وعادة ما تكون ملموسة أقل) تُفهَم جزئيا من خلال التصورات التي لها حدود مرسومة بوضوح أكثر (وعادة ما تكون ملموسة أكثر). وهذه الأخيرة هي التي تنشأ مباشرة من تجربتنا. ونظرية التجريد لا تقدم تفسيرا لعدم التوازي هذا، لأنها لا تتمكن من تفسير ميلنا إلى فهم الأشياء الملموسة أقل من خلال الأشياء الملموسة أكثر.

خامسا، لا نجد في اقتراح التجريد تصورات استعارية بالكل، وبالتالي فلا شيء يحفزه للتنبؤ بهذا النوع من النسقية الذي عثرنا عليه. فحسب هذا الاقتراح لن يوجد محفز، مثلا، يدعونا إلى التنبؤ بنسق كامل من تصورات الغذاء ينسحب على الأفكار، أو بنسق كامل من تصورات البناء ينسحب على الجدالات. وليس هناك من سبب، إذن، للتنبؤ بذلك التلاؤم الداخلي الذي نعثر عليه في الحالات التي تندرج في استعارة **الزمن شيء متحرك**. وعموما، فنظرية التجريد لا يمكن أن تفسر الأمور المرتبطة بالنسقية الداخلية.

والتجريد يخفق أيضا في تفسير النسقية الخارجية أما اقتراحنا فيفسر الكيفية التي تتداخل بها فعليا استعارات مختلفة في بنينة تصور واحد (كما في استعارات **السفر**، **والبناء**، **والوعاء**، **والحرب** وبنينتها للجدالات). ويرتكز ذلك على الأغراض والاقتضاءات التي تشترك فيها هذه التصورات الاستعارية. كما أن الكيفية التي تختلط بها التصورات الفردية (مثل: **النواة**، **والأساس**، **وتغطية** [المساحة]، والإسقاط، . . .إلخ) مع بعضها يُتنبأ بها انطلاقا من الأغراض والاقتضاءات المشتركة داخل هذا النسق الاستعاري في كليته. وبما أن نظرية التجريد لا تملك أنسقة استعارية، فإنها لن تتمكن من تفسير سبب اختلاط هذه الاستعارات بالطريقة التي تختلط بها.

سادسا، بما أن اقتراح التجريد لا يتوافر على بنينة استعارية، فإنه لن يتمكن من تفسير التوسعات الاستعارية التي تتم في إطار الجزء غير المستعمل من الاستعارة، كما في قولنا «نظريته مبنية بجبص غير رخيص»، وفي أمثلة أخرى عديدة تدخل في الجزء غير المستعمل من استعارة **النظريات بناءات**

وأخيرا، فإن الفرضية القائمة على التجريد ستقول، في حالة استعارة الحب سفر مثلا، بوجود مجموعة من التصورات المجردة والمحايدة سواء بالنسبة للحب أو بالنسبة للسفر، ويمكن أن تنسحب على أحدهما كما على الآخر. إلا أنه كي تنسحب هذه التصورات المجردة على الحب، يجب أن يكون تصور الحب قد بُنِي بشكل مستقل كي يسمح بهذا الانسحاب. وكما سنبين، فالحب ليس تصورا له بنية حدودها مرسومة بوضوح في تجربتنا، فأي بنية ستكون له لا يمكن أن تكون له إلا عبر استعارات. إلا أن الافتراض القائم على التجريد، الذي لا يعرف استعارات مبنية، سيدافع عن كون بنية مظاهر الأسفار الواردة والمحددة بوضوح تام توجد في استقلال عن تصور الحب. ومن الصعب أن نتخيل كيف يمكن أن توجد مستقلة.

عدم كفاية نظرية الاشتراك اللفظي

الاشتراك اللفظي القوي

الاشتراك اللفظي استعمال نفس اللفظ للتعبير عن تصورات مختلفة، كما في "bank" [وهو ضفة] النهر، و"bank" [وهو البنك] الذي نضع أموالنا فيه. بالنظر إلى الأمثلة التي فحصناها سابقا، ستقول فرضية الاشتراك اللفظي القوي إن لفظ «هاجم» في الجملتين التاليتين يحيل على تصورين مختلفين تماما وغير مترابطين:

- (3) لقد هاجموا الحصن
- (4) لقد هاجموا استدلالي

فاستعمال اللفظ «هاجم» نفسه في الجملتين لن يكون سوى أمر صدفوي. ونفس الشيء سيقال عن اللفظ «في» الوارد في التعابير التالية: «في المطبخ»، و«في الصحافة»، و«في حيرة»، إذ سيحيل على ثلاثة تصورات مختلفة تماما ومستقلة وغير مترابطة. وسيكون استعمال نفس اللفظ، مرة أخرى، أمرا خاضعا للصدفة. وتبعا لهذا الرأي، فاللغة تملك دزينات من التصورات المستقلة وغير المترابطة يعبَّر عنها بشكل صدفوي بواسطة اللفظ «في». وعموما، فإن فرضية الاشتراك اللفظي القوي لا يمكن أن تفسر العلاقات التي حددناها انطلاقا من أنسقة التصورات الاستعارية. فهي تَعتبر كل الظواهر التي فسرناها بطريقة نسقية ظواهرَ صدفة.

أولا وقبل كل شيء، لن يتمكن موقف الاشتراك اللفظي القوي من تفسير النسقية الداخلية للاستعارات. فمثلا، من الممكن، بحسب هذا الموقف، أن تفيد «أحس أنني في الأعالي» ما نعنيه «إنني سعيد»، وذلك في نفس الوقت الذي قد تعني فيه «ارتفعت معنوياتي» ما تفيده «إنني حزين». فهذا الموقف لا يمكن أن يفسر لماذا تنطبق مجموعة كاملة من الألفاظ المستعملة في الحرب على الجدالات بصورة نسقية، أو لماذا تنسحب مجموعة من الألفاظ المرتبطة بالأغذية على الأفكار بشكل نسقي.

ثانيا، يجابه موقف الاشتراك اللفظي القوي نفس المشاكل بخصوص حالات النسقية الخارجية. إنه لن يتمكن من إبراز التداخل الحاصل بين الاستعارات وإمكان تآلفها. لن

يتمكن من أن يفسر، مثلا، لماذا يمكن أن تحيل «المساحة التي نجتازها» في جدال ما على نفس ما يحيل عليه «محتواه» وهذا يسري عموما على كل أمثلة اختلاط الاستعارات التي أعطيناها سابقا

ثالثا، لا يمكن لموقف الاشتراك اللفظي القوي أن يفسر توسعات الجزء المستعمَل (أو غير المستعمل) من استعارة ما، كما في «نظرياته غوتية (gothic) ومليئة بالميازيب». وطالما أن هذه النظرية لا تملك استعارات عامة مثل الجدال بناء، فإنها ستَعتبر هذه الحالات من قبيل الصدفة لا غير.

الاشتراك اللفظي الضعيف

إن أبده وأعم نقيصة يشكو منها موقف الاشتراك اللفظي القوي أنه لا يمكن أن يفسر أياً من العلاقات النسقية التي عثرنا عليها في التصورات الاستعارية. ذلك أن هذا الموقف ينظر إلى كل تصور ليس باعتباره مستقلا فحسب، بل وباعتباره لا يربط علاقة بتصورات أخرى يعبر عنها نفس اللفظ. أما موقف الاشتراك اللفظي الضعيف فأفضل من الموقف القوي، وذلك لأنه يسمح بإمكان وجود علاقات بين هذه التصورات. ففي ظل هذا الموقف، بخاصة، يمكن للتصورات المتنوعة التي يعبر عنها لفظ واحد أن تكون، في عدد من الحالات، مترابطة بموجب المشابهة. فباتخاذ موقف الاشتراك اللفظي الضعيف علاقةَ المشابهة منطلقا يسلم أنها [أي المشابهة] كافية لتفسير كل الظواهر التي رأيناها من قبل.

إن أوضح فرق بين موقف الاشتراك اللفظي الضعيف وطرحنا أن الأول لا يتصور أن يتم فهم شيء معين من خلال شيء آخر. وبهذا فهو لا يتوافر على مفهوم البنينة الاستعارية الشاملة. والسبب في هذا أن أغلب من يتبنون هذا الطرح لا يهتمون بالطريقة التي يتأسس بها نسقنا الاستعاري داخل التجربة، ولا بكيفية انبثاق الفهم من عملية التأسيس هاته وجل النقائص التي نعثر عليها في موقف الاشتراك اللفظي الضعيف راجعة إلى عدم الاهتمام بمشاكل الفهم والتأسيس. وهذه النقائص نفسها تنسحب، بالطبع، على موقف الاشتراك اللفظي القوي.

أولا، لقد دافعنا عن وجود اتجاهية معينة في الاستعارة، أي أننا نفهم تصورا معينا من خلال تصور آخر [أي أننا نتجه من هذا التصور إلى ذاك]. وبشكل أدق، فنحن ننزع إلى بنينة التصورات الملموسة أقل، والتي يلازمها الغموض (مثل تلك التصورات المرتبطة بما هو عاطفي)، من خلال تصورات ملموسة أكثر، وهي تصورات لها حدودها الواضحة داخل تجربتنا.

وموقف الاشتراك اللفظي الضعيف ينكر أن نكون نفهم المجرد من خلال الملموس، أو أن نكون نفهم تصورات من نوع معين من خلال تصورات من نوع آخر. فهذا الموقف

يدافع فقط عن إمكـان إدراكنا للمشابهَات بين مختلف التصورات، وأن هـذه المشابهات هي التي تفسراستعمال نفس الألفاظ للتعبير عن هذه التصورات المختلفة. إنه سينكر، مثلا، أن يُفهم التصور دعم، حين يكون جزءا من تصور الجدال، من خلال التصور الفيزيائي دعم، كما هـو مستعمل في تصـور البناء. وسيزعم، ببساطـة، أنهما تصوران مختلفـان لا يُستعمل أحـدهما في فهم الآخـر، بل إنهما يخضعـان لمشـابهة مجردة. ونفس الشيء يسري على كل التصورات التي تقابل «في» و«فوق»، إذ سيقول إنها لا تشكل طرقا لفهـم التصورات جزئيا عن طريق الاتجاه الفضـائي، بل هي تصورات مستقلـة تربط بينها المشـابهة. وبحسب هذا الـرأي، سيكون من الصـدفـة أن تتشكل جل أزواج التصـورات التي تقدم مشـابهات من تصـور ملموس نسبيـا وتصور مجرد نسبيـا (كما في حالـة دعم). إن التصـور الملمـوس، في منظورنا، يُستعمل لفهم التصور المجرد. أما في منظور الاشتراك اللفظي الضعيف فلا شيء يتنبأ بوجـود مشابهات بين تصور مجرد وآخـر ملموس بشكل يفوق المشـابهات بين تصورين مجردين أو تصورين ملموسين.

ثانيا، إن الادعاء أن مشـابهات كهاته موجودة لَهُو أمر مـوضع نقاش. فما هي، مثلا، المشـابهات المحتملـة التي تشترك فيها كل التصـورات التي تـرتبط بـالاتجاه فوق؟ ومـا هي المشـابهة التي يمكن أن تـوجـد بين فوق من جهــة، والسعادة، والصحة، والسلطة، والشعور، والفضيلة، والعقل، ... إلخ، من جهة أخرى؟ ماهي المشابهات (التي ليست هي نفسهـا استعـارية) التي يمكن أن تـوجـد بين الذهن والشيء الهش، أو بين الأفكار والغذاء؟ ما هـو الطرح غير الاستعـاري الذي بإمكـانه أن يتعـامل مع قطعة من الـزمن في ذاتها، ويسند إليهـا الاتجاه أمام - وراء الذي وصفنـاه في حديثنـا عن استعارة الزمن شيء متحرك؟ بـالنسبـة لموقـف الاشتراك اللفظي الضعيف، يجب أن يكـون الاتجاه أمام - وراء خاصية ملازمة لقطع الزمن، إذا نحن أردنا أن نفسر بـواسطة مشابهة تصورية ملازِمة تعابير من قبيل «تـلا»، و«سبق»، و«مـلاقـاة المستقبل بـرأس مـرفوعـة»، و«مـواجهـة المستقبل»، ... إلخ. وكما يمكن أن نلاحظ، فإنه لا تـوجد نظرية معقولـة للمشابهة الملازمة يمكن أن تفسر ولو حالة من هذه الحالات.

ثالثـا، استطعنا رصـد الأساس الاستعـاري عن طريق التـوافقات النسقيـة في تجربتنا. ومثال ذلك العلاقة بين أن نكون مهيمنين في صراع ما ونكون فيزيائيا في مكان عال. إلا أن هناك فرقا بين التوافقات الموجودة في تجربتنا والمشابهات. فالتوافق لا يحتاج إلى الارتكاز على مشابهة. وانطلاقـا من هذه التوافقات الموجودة في تجربتنـا يمكن أن نتنبأ بمجال الاستعارات المحتملـة. أما مـوقف الاشتراك اللفظي الضعيف فليست لـه أيـة قوة تنبـؤ، ولا يسعى إلى امتـلاكها. إنـه يحاول، ببسـاطة، أن يصف المشـابهات من حيث هي نتيجـة، واحدةً تلـو الأخرى. وبذلك، فحين يعثر هذا الموقف على مشابهات فإنه لا يفسر وجودها.

حسـب علمنـا، لا يتبنى أحـد صراحة مـوقف الاشتراك اللفظي القـوي الـذي يَعتبر التصـورات التي يعبر عنهـا نفس اللفـظ (مثل معنيي «دعم»، أو مختلـف معــاني «في») تصـورات مستقلـة وغير مترابطـة بشكل دال. فكل الـذين يـدافعـون عن مـوقف الاشتراك

اللفظي يميلون إلى الطرح الضعيف، حيث يتم تفسير الترابطات والتعالقات التي لاحظناها بين التصورات باعتبارها مشابهات ترتكز على الطبيعة الملازمة للتصور. ورغم ذلك فإنه لم يعطنا أحد، حسب علمنا، ولو منطلَقا لتحليل مفصل لهذه المشابهات يكون قادرا على تفسير الأمثلة العديدة التي قدمناها. ورغم أن كل المنظرين للاشتراك اللفظي يتبنون الطرح الضعيف، فعلى المستوى العملي يبدو أننا نبقى دائما بصدد نظريات للاشتراك اللفظي القوي، بما أنه لم يحاول أحد إعطاء تحليل مفصل للمشابهة يكون ضروريا للدفاع عن الطرح الضعيف في هذه النظرية. وهناك سبب وجيه يفسر عدم وجود محاولات لإعطاء هذا التحليل المفصل للأمثلة التي ناقشناها سابقا. ويكمن هذا السبب في أن مثل هذا التحليل يتطلب التعرض إلى مشكل كيفية فهم مجالات التجربة التي ليست محدَّدة بشكل واضح من خلال هذه المجالات في ذاتها، والتي يجب أن تُدرك [و«يُقبَض عليها»] من خلال مجالات أخرى في التجربة. وعموما، فإن الفلاسفة واللسانيين لم يهتموا بهذا النوع من الأسئلة.

19. الحَدُّ والفَهْم

رأينا سابقا أن الاستعارة تغزو نسقنا التصوري العادي. فبما أن عددا كبيرا من التصورات المهمة لدينا هي إما تصورات مجردة أو غير محدَّدة بوضوح في تجربتنا (مثل المشاعر، والأفكار، والزمن، ... إلخ)، فإننا نحتاج إلى «القبض عليها» من خلال تصورات أخرى نفهمها بوضوح أكثر (مثل التوجهات الفضائية، والأشياء، ... إلخ). وهذه الحاجة تُدخل الحد الاستعاري (metaphorical definition) في نسقنا التصوري. وقد حاولنا أن نعطي معتمدين على المعطيات اللغوية بعض المؤشرات عن الدور الهام الذي تلعبه الاستعارة في كيفية «اشتغالنا»، وفي الكيفية التي نبني بها تصورنا لتجربتنا، وفي الكيفية التي نتحدث بها عنها.

لقد كانت جل أدلتنا من اللغة، أي من معاني الكلمات والمركبات، ومن الكيفية التي يعطي بها البشر معنى لتجاربهم. إلا أنه لا نجد اهتماما لدى دارسي المعنى وواضعي القواميس بمحاولة تقديم تحليل عام للكيفية التي يفهم بها الناس التصورات العادية من خلال استعارات نسقية مثل: **الحب سفر، والجدال حرب، والزمن مال،** ... إلخ. فإذا بحثتم في قاموس عن كلمة «حب»، مثلا، ستجدون مداخل تشير إلى العاطفة، والحنان، والتفاني، والولع، وحتى الرغبة الجنسية. إلا أنه لا يشار مطلقا إلى الكيفية التي نفهم بها الحب من خلال استعارات مثل: **الحب سفر، والحب جنون، والحب حرب،** ... إلخ. فإذا أخذنا تعابير مثل «انظر! لقد قطعنا شوطا لا يستهان به»، أو «أين نحن الآن؟»، فإننا لا نجد قاموسا معيارا أو أي تحليل معيار حول المعنى يسمح بالقول إن هذه التعابير عبارة عن طرق عادية في الحديث عن تجربة الحب في ثقافتنا. وقد ترد تلميحات إلى هذه الاستعارة العامة في المعاني الثانوية لكلمات أخرى. مثلا، قد ترد الإشارة إلى استعارة **الحب جنون** باعتبارها معنى ثانويا للكلمة «مجنون» (= مفرط في الحب أو مفتون). إلا أن هذه الإشارة ترد باعتبارها جزءا من حد كلمة «مجنون» وليس باعتبارها جزءا من حد كلمة «حب».

ما نستخلصه من هذا هو أن لواضعي القواميس والمختصين في المعنى هموما تختلف عن همومنا. فنحن نهتم أساسا بالطريقة التي يفهم بها الناس تجاربهم، وننظر إلى اللغة باعتبارها

مصدرا للمعطيات التي يمكن أن تقود إلى مبادئ عامة بصدد الفهم. والمبادئ العامة تستلزم أنسقة كاملة من التصورات وليس كلمات أو تصورات فردية. وقد وجدنا أن لهذه المبادئ، في الغالب، طبيعة استعارية، وتقتضي فهم نوع من التجربة من خلال نوع آخر.

على هذا الأساس نستطيع فهم الفرق الجوهري بين عملنا وعمل واضعي القواميس وباقي المختصين في المعنى. فمن الغريب جدا أن نعثر على «الجنون» أو «السفر» باعتبارهما من معاني «الحب». إنهما ليسا معنيين لكلمة «الحب»، مثل «غذاء» الذي ليس معنى من معاني «فكرة». فحدود تصور ما يُنظَر إليها باعتبارها تخصص الأشياء التي تكون ملازمة لهذا التصور في حد ذاته. أما بالنسبة لنا فنهتم بالكيفية التي يقبض بها البشر على التصور: كيف يفهمونه، وكيف «يشتغلون» [ويتصرفون] باعتباره. إن الجنون والأسفار تجعلنا نقبض على تصور الحب، تماما مثلما يجعلنا الغذاء نقبض على تصور الفكرة.

إن هذا الاهتمام بالكيفية التي نفهم بها التجربة يتطلب تصورا للحد مختلفا تماما عن التصور المعيار. ويكمن المشكل الأساسي، في ظل هذا التحليل للحد، في ضبط ما يُحَدُّ وما يُحَدُّ. وهذا هو المشكل الذي سنعالجه الآن.

أشياء الحد الاستعاري: الأنواع الطبيعية في التجربة

وجدنا أن الاستعارات تسمح لنا بفهم مجال من التجربة من خلال مجال آخر. وهذا يدعونا إلى اعتبار الفهم حاصلا من خلال مجالات تامة من التجربة، وليس من خلال تصورات منعزلة. كما أن ضرورة افتراض وجود استعارات مثل: **الحب سفر**، **والزمن مال**، **والجدال حرب**، تدعونا إلى أن نقترح أن بؤرة الحد توجد في مستوى المجالات القاعدية في التجربة، مثل الحب والزمن والجدال. وهذه التجارب تُتَصور وتُحَد من خلال مجالات قاعدية أخرى في التجربة، مثل الأسفار والمال والحرب. وحد التصورات الفرعية، مثل *تدبير الوقت* أو *مهاجمة رأي*، ينتج عن حد تصورات أعم (الزمن، أو الجدال، ... إلخ)، وذلك بطرق استعارية.

هنا يبرز سؤال أساسي: ممّاذا يتشكل مجال التجربة القاعدي؟ يعد كل مجال من مجالات التجربة كلاً مبنيًا داخل تجربتنا، ويتصور هذا الكل باعتباره جشطلتا تجريبيا، كما أسلفنا. وهذه الجشطلتات قاعدية تجريبيا لأنها تخصص صورا شاملة (wholes)) داخل التجارب البشرية المتكررة. إنها تمثل تنظيمات منسجمة لتجاربنا عن طريق أبعاد طبيعية (المقاطع، أو الأطوار، أو الأسباب، ... إلخ). ويبدو أن مجالات التجربة، التي تنظَّم باعتبارها جشطلتات، عبارة عن *أنواع طبيعية في التجربة*. وأنواع التجربة هاته طبيعية بالمعنى التالي؛ فهي ناتجة عن:

- أجسادنا (الجهاز الإدراكي والحركي، والقدرات الذهنية، والتركيب العاطفي، .إلخ)،

- تفاعلاتنا مع محيطنا الفيزيائي (التحرك، ومعالجة الأشياء، والأكل، . . . إلخ)،
- تفاعلاتنا مع بشر آخرين داخل ثقافتنا (انطلاقا من المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية).

وبعبارة أخرى، فإن هذه الأنواع «الطبيعية» في التجربة تعد *نتاجات للطبيعة البشرية*. وبعضها قد يكون كليا، في حين أن البعض الآخر قد يختلف من ثقافة إلى أخرى.

وحسب طرحنا، فالتصورات التي يتم استعمالها بواسطة حدود استعارية هي تلك التي توافق أنواعا طبيعية في التجربة. وإذا حكَّمنا في ذلك التصورات التي *تُحد بواسطة* الاستعارات التي كشفنا عنها سابقا، فإن أمثلة التصورات التي تشير إلى هذه الأنواع الطبيعية داخل التجربة ستكون هي: **الحب، والزمن، والأفكار، والفهم، والجدالات، والعمل، والسعادة، والصحة، والسلطة، والمنزلة [الاجتماعية]، والعقل،** . . . إلخ. فهذه تصورات تقتضي حدا استعاريا لأنها ليست محدَّدة بوضوح (من خلال ذاتها) في تلبية حاجات «اشتغالنا» اليومي.

وسندافع، بصورة مماثلة، عن كون التصورات التي تُستعمل بواسطة حدود استعارية من *أجل تحديد* تصورات أخرى توافق بدورها أنواعا طبيعية في التجربة. ومن أمثلة ذلك: **الاتجاهات الفيزيائية، والأشياء، والمواد، والإبصار، والأسفار، والحرب، والجنون، والغذاء، والبنايات،** . . . إلخ. فهذه التصورات التي تشير إلى أنواع طبيعية في التجربة وفي الأشياء مبنيَة بشكل واضح، ولها بنية داخلية ملائمة تكفي في تحديد تصورات أخرى. إن نوعيةَ بنية هذه التصورات تسمح لنا بوصد الأنواع الطبيعية في التجربة التي تكون مجردة أو محدَّدة بشكل أقل وضوحا، إذا نظرنا إليها في ذاتها.

وينتج عن هذا أن بعض الأنواع الطبيعية من التجربة تعد جزئيا استعارية من حيث طبيعتها، إذ تلعب الاستعارات دورا أساسيا في تخصيص بنية التجربة. والجدال مثال واضح على ذلك. فالقيام ببعض التجارب، مثل التحدث والاستماع وغيرهما، باعتبارها تدخل في جدال ما، يقتضي جزئيا البنية المعطاة لتصور **الجدال** من خلال استعارة **الجدال حرب**. وتجربة الزمن نوع طبيعي في التجربة، فنحن نفهم الزمن، بمجمله تقريبا، بشكل استعاري (عبر جعل **الزمن فضاء**، وعبر استعارتي **الزمن شيء متحرك والزمن مال**). وبصورة مشابهة، ترتكز كل التصورات المعتمدة على الاتجاه **فوق ـ تحت** (مثل: **السلطة، والمنزلة [الاجتماعية]، والسعادة**)، وعلى المفاهيم الفضائية الأخرى، على الأنواع الطبيعية في التجربة التي تُفهَم جزئيا بطريقة استعارية.

الخصائص التفاعلية

رأينا أن نسقنا التصوري أساسه تجاربُنا في العالم. فكل من التصورات المنبثقة بشكل مباشر (مثل: **فوق ـ تحت، والشيء، والمعالجة المباشرة**) والاستعارات (مثل: **السعادة فوق،**

والجدال حرب) لها أسسها في تفاعلنا المستمر مع محيطنـا الفيزيائي والثقافي. وكذلك الشأن بالنسبـة للأبعـاد التي تبنين تجربتنا (مثل: المقـاطع، والأطوار، والأغـراض، . . . إلخ)، إذ تنبثق بشكل طبيعي من نشَاطنا في العالم. وهذا النوع من النسق التصوري الذي نملكه ناتج عن نوعنا باعتبارنا كائنات، وعن الكيفية التي نتفاعل بها مع محيطنا الفيزيائي والثقافي.

لقد قادنا اهتمامنا بـالكيفية التي ندرك بها تجربتنا إلى تبني موقف *الحد*، الذي يختلف كثيرا عن الموقف المعيار. فالموقف المعيار يطمح إلى أن يكون «موضوعيا»، ولذلك يفترض أن للتجارب والأشيـاء خصائص تـلازمها، والكـائنات البشريـة تفهمها كليـا انطلاقا من هذه الخصائص. إن الحد، عنـد ذوي النزعـة الموضوعيـة، هو أن نبين مـا هي هـذه الخصائص الملازمة [للتجارب وللأشياء]، وذلك عن طـريق إعطاء الشروط الضروريـة الكافيـة لانطباق التصور [أو وجوده]. فتبعا للطرح الموضوعي، لتصور الحب معان مختلفة، ويمكن أن يحدَّد كل معنى من هـذه المعـاني بـاعتبـار الخصائص الملازمـة لـه، مثل الحنـان (أو الـولع)، أو العاطفـة، أو الرغبـة الجنسية، . . . إلخ. ونـود أن نقترح، خلافـا لهذا الطرح، أننـا ندرك الحب جزئيـا فقط من خلال هذه الخصـائص الملازمة. فإدراكنـا للحب، في أغلب أجزائه، استعاري. إننا نفهمه، في المقام الأول، من خـلال تصورات ذات أنواع طبيعيـة أخرى في التجربة: الأسفار، والجنون، والحرب، والصحة، . . . إلخ. ولأن تحديد التصورات (مثل: الأسفار، والجنون، والحرب، والصحة) ينبثق من تفاعلاتنا مـع كل واحد منها ومع العالم، فإن التصـور الذي تحدده هـذه التصـورات استعـاريا (وهـو الحب) سيفُهَم عن طـريق ما سنسميه *الخصائص التفاعلية*.

ولكي نكوِّن فكـرة واضحة عما هي هذه الخصـائص التفاعليـة عموما، لننظر إلى ما يمكن أن يكون خصائص تفاعلية لشيء مـا. لنأخذ التصور التالي: مسدس. قد نقول إنه يمكن تخصيص هـذا التصور كليـا من خلال الخصـائص التفاعلية لهذا الشيء نفسـه، مثل شكله، أو وزنه، أو كيف يتم تجميع أجزائه، . . . إلخ. إلا أن تصورنا لـلمسدس يتجاوز ذلك إذا ما نظرنا إلى كيفية انطباق النعوت المختلفة على هذا التصور. لنأخذ، مثلا، الفرق بين النعتين أسود ومزيف إذ نصف بهما التصـور مسدس. إن الفرق الأسـاسي، بالنسبـة للتحاليل الحدية عند ذوي النـزعة الموضوعية، يكمن في أن المسدس الأسود يعتبر مسدسا، أما المسدس المزيف فليس مسدسـا: فالنعت أسود يضيف خاصية إلى المسدس، أما النعت مزيف فينطبق على تصور المسدس كي يعطي تصورا آخـر لا يُعتبر مقولة فرعيـة من تصور المسدس. هذا كل ما يمكن أن يقوله الطرح الموضوعي. وهذا يسمح بالاقتضاءين التاليين:

هذا مسدس أسود		هذا مسدس مزيف
————	و	————
إذن، هذا مسدس.		إذن، هذا ليس مسدسا.

إلا أن ما لا تقوله هذه المقاربة هو ما هو المسدس المزيف. فهي لا ترصد اقتضاءات من قبيل:

هذا مسدس مزيف

إذن، هذا ليس زرافة.

هذا مسدس مزيف

إذن، هذا ليس طبقا من المكرونة.

وهلم جرا.

ولرصد هذه اللائحة الطويلة وغير المحصورة من الاقتضاءات، نحتاج إلى تحليل مفصل يجيب عن السؤال التالي: كيف ينعت مزيف التصورَ مسدس؟ فعلى المسدس المزيف أن يشبه كثيرا المسدس (من أجل رصد ما بين أيدينا). عليه أن يملك الخصائص التصورية السياقية الملائمة التي يملكها المسدس يجب أن نتمكن من أن ننجز بواسطته عددا من العلاجات الفيزيائية الملائمة التي يمكن أن ننجزها بواسطة مسدس حقيقي (كأن نمسك به بطريقة معينة، مثلا). وبعبارة أخرى، فإن على المسدس المزيف أن يحافظ على ما يمكن أن نسميه خصائص النشاط الحركي (motor-activity properties) للمسدس. وفوق كل هذا، فخصوصية المسدس المزيف أنه يُستخدم في بعض الأغراض التي يمكن أن نستخدم فيها المسدس الحقيقي (من أجل التخويف مثلا، أو الظهور والتفاخر، . . . إلخ). إن ما يجعل من المسدس المزيف مزيفا أنه لا يمكن أن *يشتغل* مثل المسدس. فإذا كان بإمكانه أن يقتل فهو مسدس حقيقي، وليس مسدسا مزيفا. وأخيرا، فإن المسدس المزيف لا يمكن أن يكون صُنعَ أصلا كي يتم تشغيله باعتباره مسدسا، فالمسدس المكسور أو المسدس المعطّل ليس مسدسا مزيفا.

وبهذا فإن النعت مزيف يحافظ على بعض *أنواع* خصائص المسدسات، ويلغي بعضها الآخر. لنلخص ذلك:

يحافظ النعت مزيف على:

- الخصائص الإدراكية (المسدس المزيف يشبه المسدس)،
- خصائص النشاط الحركي (نمسك به كما نمسك بالمسدس)،
- الخصائص الغرضية (يخدم بعض الأغراض التي يخدمها المسدس).

يلغي النعت مزيف:

- الخصائص الوظيفية (المسدس المزيف لا يقتل)،

- تاريخ الوظيفة (إذا صُنع أصلا كي يكون حقيقيا فإنه ليس مزيفا).

إن تفسيرنا لكيفية تأثير مزيف على تصور المسدس يشير إلى أن لهذا التصور خمسة أبعاد على الأقل، ثلاثة منها يحافظ عليها النعت مزيف، واثنان يلغيهما وهذا يبين أننا نبني تصور المسدس انطلاقا من جشطلت من الخصائص متعدد الأبعاد حيث الأبعاد هي: البعد الإدراكي، وبعد النشاط الحركي، والبعد الغرضي، والبعد الوظيفي، ... إلخ.

إذا نظرنا إلى هذه الخصائص الإدراكية وخصائص النشاط الحركي والخصائص الغرضية وغيرها وجدنا أنها ليست خصائص ملازمة للمسدسات في ذاتها. فهي ترتبط بالكيفية التي نتفاعل بها مع المسدسات. وهذا يبين أن تصور المسدس، كما يفهمه الناس فعلا، محدَّد - على الأقل جزئيا - من خلال خصائص تفاعلية ترتبط بالإدراك وبالنشاط الحركي وبالغرض وبالوظيفة، ... إلخ. ومن هنا، فتصوراتنا للأشياء، شأنها شأن تصوراتنا للأحداث والأنشطة، تخصَّص باعتبارها جشطلتات متعددة الأبعاد تنبثق أبعادها بصورة طبيعية من تجربتنا في العالم.

المقْولة

بحسب الطرح الموضوعي المعيار، نتمكن من فهم (وبالتالي حد) شيء ما كليا من خلال مجموعة خصائصه *الملازمة له*. إلا أنه، كما رأينا، فعلى الأقل بعض الخصائص التي تخصص تصورنا لشيء ما خصائص *تفاعلية*. وبالإضافة إلى ذلك، فهذه الخصائص لا تشكل *جشطلتا مبنَينا* له أبعاد تنبثق بشكل طبيعي من تجربتنا.

إن الطرح الموضوعي بصدد الحد غير كاف أيضا في تفسير الفهم بطريقة أخرى. فالمقُولة يتم تحديدها، بحسب الطرح الموضوعي، انطلاقا من نظرية المجموعة (set theory) إنها تخصَّص بواسطة مجموعة من الخصائص الملازمة للكيانات التي تدخل في المقُولة. فكل شيء في الكون هو إما داخل المقُولة أو خارجها. والأشياء الموجودة داخل المقُولة هي تلك الأشياء التي تملك كل الخصائص الملازمة الضرورية. وكل شيء يعجز عن امتلاك خاصية ملازمة أو خاصيتين يسقط خارج المقُولة.

20 . كَيفَ تُعْطِي الاسْتِعَارَةُ الشَّكْلَ مَعْنى؟

، يتبع الكلام ترتيبا خطيا: ففي جملة ما نضع بعض الكلمات قبل أخرى. وبما أن فعل الكلام يرتبط بالزمن، والزمن يُدرَك استعاريا من خلال الفضاء، فإننا ندرك اللغة بصورة طبيعية استعارية من خلال الفضاء. وهذا البناء التصوري يتم تدعيمه بواسطة نسقنا الكتابي (writing). فتسجيل جملة ما كتابةً يُسهل علينا تصورها باعتبارها شيئا مكونًا من كلمات مرتبة في متوالية خطية. فتصوراتنا الفضائية تنسحب، إذن، بشكل طبيعي على التعابير اللغوية: فنحن نعرف الكلمة التي تحتل «موقع الصدارة» في الجملة، ونعرف إذا ما كانت كلمتان «متقاربتين» أو «متباعدتين» عن بعضهما، ونعرف هل كلمة ما «طويلة» أم «قصيرة» نسبيا.

ولأننا نتصور الشكل اللغوي باعتبار ما هو فضائي، فإنه قد نجد أن بعض الاستعارات الفضائية تنسحب مباشرة على شكل جملة ما كما نتصورها فضائيا. وقد تخلُق بعض الترابطات الآلية والمباشرة بين الشكل والمحتوى ترتكز على استعارات عامة في نسقنا التصوري. إن ترابطات من هذا النوع تجعل العلاقة بين الشكل والمحتوى غير اعتباطية، كما قد تجعل جزءا من معنى جملة ما راجعا إلى شكلها. وبهذا، وكما نبّه إلى ذلك دوايت بولنغر (1977) Bolinger. D.، فالجمل الشارحة (paraphrases) الدقيقة عادة ما تكون مستحيلة، إذ للجمل الشارحة أشكال مختلفة [عن أشكال الجمل التي تشرحها]. ويمكن أن نقترح التفسير التالي:

- إننا نجعل الشكل اللغوي فضاء،
- تنسحب الاستعارات الفضائية على الشكل اللغوي لأنه جُعِلَ فضاء،
- بفضل استعارات التفضية يكون للأشكال اللغوية نفسها محتوى.

كلما زاد الشكل زاد المحتوى

لنأخذ استعارة المجرى [1]. إنها تحدد علاقة فضائية بين الشكل والمحتوى: التعابير اللغوية أوعية، ومعانيها تشكل محتوى هذه الأوعية. هَبْ أن لدينا أوعية حقيقية صغيرة.

1) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب بصدد تفاصيل هذه الاستعارة وكيفية بنيتها لجزء هام من المعطيات اللغوية المرتبطة بحديثنا عن اللغة وكيفية التواصل بواسطتها. (هـ.م)

من المنتظر أن يكون محتوى هذه الأوعية محصورا. والعكس صحيح لو كانت لدينا أوعية كبيرة. إذا طبقنا هذه الملاحظة على استعارة المجرى حصلنا على التنبؤ التالي: **كلما زاد الشكل زاد المحتوى.**

يتعلق الأمر هنا، كما سنرى، بمبدأ عام جدا يبدو أنه ينطبق بشكل طبيعي على كل لغات العالم. ورغم أن استعارة المجرى شائعة جدا فإننا لا نعرف لحد الآن هل هي كلية. إلا أنه يبدو محتملا أن تتضمن كل اللغات التصور الفضائي الاستعاري. ورغم اختلاف التفاصيل فلن يفاجئنا وجود هذا الترابط الكمي بين الشكل والمحتوى في جميع اللغات.

ونجد مثالا لاستعارة كلما زاد الشكل زاد **المحتوى** في التكرار التالي:

ـ (1) جرى، وجرى، وجرى إلى أن سقط

الذي يشير إلى جري أطول مما تصفه «جرى» واحدة.

نفس الشيء نلاحظه في الجملة التالية:

ـ (2) إنه طويل جدا جدا

حيث تحيل على مرجع أطول مما تصفه العبارة البسيطة «إنه طويل جدا».

والزيادة في طول حركة (vowel) داخل الكلمة له نفس المفعول. فقولي:

ـ (3) إنه سمـيـــــ ــيـــ ــيـــ ــيـن !!

يشير إلى أن ما أحيل عليه أسمن من أن أقتصر على نعته بعبارة «إنه سمين» فقط.

إن عددا مهما من اللغات في العالم تستعمل عملية التكرار الصرفي، أي تكرار مقطع أو مقطعين من كلمة معينة أو تكرار الكلمة برمتها. وحسب علمنا، فإنه في كل حالات التكرار التي اطلعنا عليها ينتج عن *كثرة الشكل كثرةُ المحتوى*. والعمليات الأكثر نموذجية في هذا الصدد هي:

- التكرار الذي نطبقه على الاسم يجعله ينتقل من المفرد إلى الجمع أو إلى الجماعي (collective).
- التكرار الذي نطبقه على الفعل يشير إلى الاستمرار أو الانتهاء.
- التكرار الذي نطبقه على الصفات يشير إلى التكثير أو التزايد.
- التكرار الذي نطبقه على كلمة تحيل على شيء صغير يشير إلى التصغير.

والتعميم الذي نقترحه هو التالي:

- يمثل الاسم شيئا من نوع معين. والكثير من هذا الاسم يعني الكثير من الأشياء من هذا النوع.
- يمثل الفعل عملا. والكثير من الفعل يعني الكثير من العمل (وربما إلى أن ينتهي العمل).
- تمثل الصفة خاصية. والكثير من الصفة يعني الكثير من الخاصية التي تمثلها.
- يمثل الاسم شيئا صغيرا. والكثير من هذا الاسم يشير إلى شيء أصغر.

القرب قوة في التأثير

تـرد الأمثلـة الأوضح على الطـريقـة التي تعطي بها الاستعـارةُ الشكلَ معنى في اللغـة الأنجليزيـة (وربما في لغات أخرى أيضا، إلا أنـه لم تنجز فيها دراسـات مفصلة)[2]. تملك اللغات الاستعارة الوضعية التالية: القرب قوة في التأثير. وبهذا تعني الـجملة (4) ما تعنيه الـجملة (5):

- (4) من هم الناس الأقرب إلى الخميني؟ [أو المقربون إليه]
- (5) من هم الناس الذين لهم تأثير قوي في الخميني؟

لهذه الاستعارة أثر دلالي خالص. إنها تـرتبط بمعنى كلمة «الأقرب». إلا أنه *بإمكان الاستعارة أن تنطبق أيضا على الشكل التركيبي للجملة*. والسبب في ذلك أنه من الأشياء التي يشير إليها تركيب الجملة هو مدى قرب عبارتين من بعضهما. فـالقرب، إذن، مرتبط بالشكل.

وبإمكان هذه الاستعارة أن تنطبق على العلاقة بين الشكل والمعنى بالطريقة التالية:
إذا كان معنى شكلٍ أ يؤثر في معنى شكل ب، فإنه كلما كان الشكل أ أقرب إلى الشكل ب كان تأثير معنى أ في معنى ب كبيرا.

فمثلا، لعنصر النفي "not" أثر نفي المحمول في الجملة التالية:

- (1) John won't leave until tomorrow

(لن يرحل جون قبل الغد)

إن الشكل "n't" يمارس تأثير النفـي علـى الـمحمول ذي الشكل "leave" (رحل)[3].

وهناك قاعدة في اللغـة الأنجليزية يسميها البعض *النقل النفـي*. وتقوم هذه القاعدة

2) سنوضح من خلال ترجمة بعض المعطيات المدعمة لهذه الاستعارة أن هذه الأخيرة واضحة أيضـا في اللغة العربية. (هـ. م)

3) ونعلم أن عناصر النفـي في اللغة العربيـة تدخل عمـوما على الفعل الـذي تنفيه، أو على الجملـة الاسمية فتنفي القضية التي تعبر عنها. لنأخـذ مثال الفعل. فالجملتان (1) جيدتـان في مقابل الجملتين (2) اللتين تعدان لاحنتين:

- (1) أ. لم يذهب زيد إلى عمله
  ب. لن يذهب زيد إلى عمله
- (2) أ. * لم زيد يذهب إلى عمله
  ب. *لن زيد يذهب إلى عمله

ومعلـوم أن مـا نفي في الجملتين (1) هو المحمـول (أي الذهـاب إلى العمل)، والدليل على ذلـك إمكان التعقيب على (1 .أ) بقولنا «بل مكث في منـزله»، وعدم إمكان التعقيب بقولنا «بل عمـرو هو الذي ذهب إلى عمله». ولعل هذا راجع إلى قرب عنصر النفي من الفعل.

ومعلوم أيضـا أن لعنصر النفي «ما» خصائص أخرى مخالفة للعنصرين السابقين. وأهم هـذه الخصائص إمكان دخوله على الجملة الاسمية. ولهذا لا يمكن مقارنته من هـذه الناحية بالعنصرين السـالفي الذكر. (هـ. م).

بنقل عنصر النفي الذي يتموقع عادة بجانب المحمول الذي يُنفى منطقيا، كما في:

- (7) Mary doesn't think he'll leave until tomorrow

(لا تعتقد ماري أنه سيرحل قبل الغد)

فالعنصر "n't" هنا ينفي منطقيا "leave" وليس "think" (اعتقد) ولهذه الجملة نفس معنى الجملة التالية تقريبا:

- (8) Mary thinks he won't leave until tomorrow

(تعتقد ماري أنه لن يرحل قبل الغد)

إلا أنه في الجملة الأولى، حيث النفي *أبعد* من "leave"، نجد قوة نفيية *أضعف* أما في الجملة الثانية، حيث النفي *أقرب*، فقوة النفي *أكبر*.

وقد نبهَنا كارل زيمر Karl Zimmer (في حديث خاص) إلى أن نفس المبدأ يتحكم في تناوبات من قبيل تلك الموجودة في (9) و (10) :

- (9) Harry is not happy

(ليس هاري سعيدا)

- (10) Harry is unhappy

(هاري «لا سعيد»)

فاللاصقة النفيية "-un" أقرب من الصفة "happy" بالمقارنة مع الكلمة المستقلة "not". وللنفي أثر قوي في الجملة الأولى منه في الجملة الثانية. إن "unhappy" تعني أن هاري «شقي»، أما "not happy" فمفتوحة على التأويل المحايد، أي أنه ليس سعيدا وليس شقيا ولكنه بين الأمرين. وهذا الفرق بين العناصر النفيية المستقلة والعناصر النفيية اللاصقة نموذجي سواء في اللغة الأنجليزية أو في لغات أخرى[4].

ونفس الاستعارة تنطبق على المثالين التاليين:

- (11) I taught Greek to Harry

(لقنت اليونانية لهاري)

- (12) k I taught Harry Gree

(لقنت هاري اليونانية)

ففي الجملة الثانية، حيث "thought" و "Harry" متقاربتان، هناك شبه إخبار أن هاري

4) نلاحظ هذا النوع من البنيات التي يلتصق فيها النفي ببعض الأسماء أو الصفات في اللغة العربية المعاصرة. فالعنصر «لا» قد يلتصق ببعض أنواع الصفات فتصبح صفات منفية، في مقابل الصفات التي لا تحمل هذا العنصر فتكون مثبتة. وهكذا نجد «إرادي» ومقابلها «لاإرادي»، و«شعوري» ومقابلها «لاشعوري»، و«مبال» ومقابلها «لامبال»، إلخ لنقارن بين الجملتين التاليتين:

- (1) ليس هذا الأمر أخلاقيا
- (2) هذا الأمر لاأخلاقي

فما أورده الباحثان بصدد الجملتين أعلاه صالح لتأويل الفرق الدقيق بين جملتينا هنا. (هـ.م).

تعلم فعلا ما تم تلقينه إياه، أي أنه كان للتلقين أثر عليه. والمثالان التاليان أدق من سابقيهما:

I found that the chair was comfortable(13) -

(وجدت أن الكرسي كان مريحا)

I found the chair comfortable(14) -

(وجدت الكرسي مريحا)

تفيد الجملة الثانية أنني خلصت إلى أن الكرسي مريح *عن طريق التجربة المباشرة*، أي عن طريق الجلوس عليه، مثلا. أما الجملة الأولى فتترك إمكان خلاصتي مفتوحا على [تأويل التجربة] *غير المباشرة*. فقد يكون ذلك عن طريق مساءلتي لأحدهم عن الكرسي، أو عن طريق إلقاء نظرة عليه. ففي الجملة الثانية يتموقع الشكل "I" في مكان قريب من الشكلين "the chair" و "comfortable". وبهذا يشير تركيب الجملة إلى التجربة المباشرة التي جعلتني أجد الكرسي مريحا. إن قرب الشكل "I" من الشكلين "the chair"و "comfortable" هو ما يتيح مباشرة التجربة المشار إليها. ويكمن تأثير التركيب هنا في إفادة مباشرة التجربة، والقرب يفيد **قوة** هذا **التأثير**. وقد تم التحقق من هذه الظاهرة بتفصيل في الأنجليزية على يد بوركين Borkin (تحت الطبع)[5].

ويمكن أن نلاحظ اشتغال هذه الاستعارة في أمثلة من قبيل:

Sam killed Harry (15) -

(قتل سام هاري)

Sam caused Harry to die (16) -

(سبب سام موت هاري)

فإذا كان السبب حدثا واحدا، كما في الجملة الأولى، فإن السببية تكون أكثر مباشرة. أما الجملة الثانية فتفيد سببية غير مباشرة أو سببية عن بعد، أي أنها تفيد حدثين منعزلين: موت هاري، وما فعله سام باعتباره سببا في موت هاري. وإذا أردنا أن نشير إلى السببية البعيدة عن المباشرة قلنا:

Sam brought it about that Harry died (17) -

(حرفيا: «أحدثَ سام أن مات هاري»)

إن *الأثر الذي يمارسه التركيب* في الجمل الأخيرة يرتبط *بمدى مباشرة الارتباط* السببي بين ما فعله سام وما حدث لهاري. والمبدأ الذي ينسحب على هذه الحالة هو:

كلما كان الشكل الذي يفيد السبب **قريبا** من
الشكل الذي يفيد **الأثر** كان الارتباط السببي **أقوى**.

5) يشير المؤلفان إلى كتاب بوركين (1981)، وعنوانه: **مسائل في الشكل والوظيفة** وقد كان تحت الطبع في الوقت الذي ألف فيه مؤلفانا كتابهما. انظر الإحالة التامة على هذا الكتاب في لائحة المراجع. (هـ. م).

ففي الجملة (15) هناك شكل واحد فقط - وهو "kill" - يشير إلى كل من السبب والأثر (=الموت). والشكلان اللذان يفيدان ذلك قريبان من بعضهما إلى درجة أنه تم ضمهما في كلمة واحدة. وهذا يشير إلى أن الارتباط السببي أقوى ما يكون الارتباط: حدث واحد. أما في (16) فنجد كلمتين مستقلتين - وهما "cause" و "die" - تفيدان السبب والأثر. وهذا يشير إلى أن الارتباط بين السبب والأثر ليس بنفس قوة سابقه، إذ السبب والأثر لا يشكلان هنا جزءين من نفس الحدث. وفي (17) هناك جُملتان (clauses) منعزلتان: "Sam brought it about" و "that Harry died". وهذا يشير إلى وجود ارتباط ضعيف.

لنلخص ما سبق. في كل هذه الحالات يشير الاختلاف في الشكل إلى اختلاف دقيق في المعنى. وهذه الاختلافات الدقيقة ما هي إلا انعكاس لاستعارة **القرب قوة في التأثير**، إذ يرتبط **القرب** بالعناصر التي تتركب منها الجملة، في حين ترتبط **قوة التأثير** (أو الأثر) بمعنى الجملة. إن للقرب علاقة بالشكل، أما **قوة التأثير** فتعالق المعنى. وبهذا فإن استعارة **القرب قوة في التأثير**، التي تشكل جزءا من نسقنا التصوري العادي، قد تشتغل بالبعد الدلالي الخالص كما في الجملة السابقة: «من هم الناس الأقرب إلى الخميني؟»، أو قد تربط الشكل بالمعنى ما دام القرب قد ينسحب على علاقة حاصلة بين شكلين في الجملة. إن الفروق الدقيقة في المعنى التي نلاحظها في الجمل السابقة ليست ناتجة عن قواعد خاصة في اللغة بل ناتجة عن استعارة موجودة في نسقنا التصوري تنطبق بصورة طبيعية على شكل اللغة.

التوجه «*أنا أولا*»

لاحظ كوبر وروس Cooper and Ross (1975) أن نظرة ثقافتنا إلى ما يمكن أن يكون عليه العضو الطرازي (prototypical member) داخلها تحدد توجها للتصورات داخل نسقنا التصوري. إن الشخص المثال (canonical) يشكل نقطة المرجع التصورية، ويوجه عدد كبير من التصورات في نسقنا التصوري بالنظر إلى مشابهتها أو عدم مشابهتها لخصائص هذا الشخص الطرازي. وبما أن الناس ينجزون سائر الوظائف التي يقومون بها نموذجيا في وضع **فوق-تحت**، وينظرون ويتحركون **إلى الأمام**، ويقضون أغلب وقتهم ينجزون **أنشطة**، ويعتبرون أنفسهم **جيدين**، فإنه لدينا قاعدة تتحكم في تجربتنا تجعلنا ننظر إلى أنفسنا باعتبارنا **فوق وليس تحت**، وأننا **في الأمام وليس في الوراء**، وأننا **فاعلون** ولسنا **سلبيين**، وأننا **جيدون ولسنا سيئين**. وبما أننا نوجد في المكان الذي نوجد فيه، ونعيش في الحاضر، فإننا نتصور أنفسنا باعتبارنا نوجد **هنا وليس هناك**، وأننا **في الآن وليس في ما بعد الآن**. هذا هو ما يحدد ما يطلق عليه كوبر وروس التوجه **أنا أولا**: فالتصورات **فوق**، **وأمام**، **وفاعل**، **وجيد**، **وهنا**، **والآن** كلها موجّهة نحو هذا الشخص المثال. أما **تحت**، **ووراء**، **وسلبي**، **وسيء**، **وهناك**، **وما بعد الآن** فكلها موجهة نحو ما هو خارج عن الشخص المثال.

ويرتبط هذا التوجه الثقافي بكون رتب بعض الكلمات في اللغة رتب أكثر طبيعية من أخرى.

أكثر طبيعية	**أقل طبيعية**
فوق وتحت	تحت وفوق
أمام ووراء	وراء وأمام
فاعل وسلبي	سلبي وفاعل
جيد وسيء	سيء وجيد
هنا وهناك	هناك وهنا
الآن وما بعد الآن	ما بعد الآن والآن

والمبدأ العام هو التالي: نظرا إلى خصائص الشخص الطرازي، فاللفظ ذو المعنى **الأقرب** إلى هذا الشخص يرد **أولا**.

يقيم هذا المبدأ تعالقا بين الشكل والمحتوى. وهو، شأنه شأن المبادئ التي رأيناها سابقا، يعد نتيجة لاستعارة موجودة في نسقنا التصوري العادي: **الأقرب أولا**. لنفرض، مثلا، أنك تشير إلى أحدهم في صورة. فإذا قلت:

ـ(18) الشخص الموجود على يسار بيل هو سام

فإنك تعني:

ـ(19) الشخص الذي يوجد على يسار بيل **والأقرب** إليه هو سام

لنلخص ما سبق. بما أننا نسلك في كلامنا ترتيبا خطيا، فإننا نختار دائما الكلمات التي نريد وضعها في المقام الأول. فلو خُيِّرنا بين الترتيب فوق-تحت والترتيب تحت-فوق فإننا سنختار بشكل آلي الترتيب فوق-تحت. إن التصور الموجه بشكل **أقرب** إلى المتكلم الطرازي هو **فوق**. وبما أن استعارة **القرب أولا** تشكل جزءا من نسقنا التصوري فإننا نضع التصور الذي معناه **أقرب** إلينا (وهو **فوق**) في المقام **الأول**. وبهذا فالترتيب **فوق وتحت** أكثر انسجاما مع نسقنا التصوري من الترتيب **تحت وفوق**.

ومن أجل الاطلاع على رصدٍ مفصل لهذه الظاهرة ومناقشة أمثلة مضادة محتملة، انظر كوبر وروس (1975).

الانسجام الاستعاري في النحو

الأداة رفيق

من المألوف لدى طفل يلعب بلعبة أن يعاملها كما لو كانت رفيقا له، فهو يتحدث إليها، ويضعها على وسادته إلى جانبه ليلا، . . . إلخ. والدمى لُعب صُممت خصيصا لهذا الغرض ومثل هذا السلوك نجده عند الراشدين، فهم يعاملون بعض الأدوات البارزة مثل السيارات والمسدسات باعتبارها أصدقاء أو رفاقا، ويعطونها أسماء، ويتحدثون إليها،

. . . إلخ . وبطريقة مماثلة نجد في نسقنا التصوري استعارة وضعية، وهي **الأداة رفيق**. وتعكسها الأمثلة التالية:

الأداة رفيق

- (20) أنا وسيارتي العجوز هاته زرنا معا أماكن عديدة

- (21) سؤال: من سيوقفني؟

جواب: أنا وبندقيتي هاته (يقول راعي البقر متحمسا بندقيته).

لماذا نعبر with [مع والباء] عن كل من الأداة والمعية؟

يفيد اللفظ "with" **المعية** في اللغة الأنجليزية، كما في:

- (22) (معية) I went to the movies with Sally

(ذهبت إلى السينما مع سالي)

فكون "with" هو اللفظ الذي يفيد **المعية** وليس يفيدها لفظ آخر أمرٌ مرتبط بالتواضع الاعتباطي للغة الأنجليزية. ففي لغات أخرى تشير ألفاظ أخرى (أو وسائل نحوية مثل الإعراب) إلى **المعية** (نجد في الفرنسية، مثلا، اللفظ "avec"). إلا أنه إذا كان "with" يفيد اعتباطا **المعية** في الأنجليزية فإنه ليس اعتباطيا أن تدل على **الأداة** كذلك، كما في:

- (23) (أداة) I sliced the salami with a knife

(قطعت الحلوى بسكين)

إن السبب في أن الأمر ليس اعتباطيا أن نسقنا التصوري تبنينه استعارة **الأداة رفيق**. فلأمر نسقي، وليس لأمر عرَضي، يفيد اللفظ نفسه الذي يفيد **المعية الأداة** أيضا. وهذه المسألة النحوية في الأنجليزية تنسجم مع النسق التصوري لهذه اللغة [6].

ولأن هذا يحدث فلن يكون خاصا باللغة الأنجليزية. فمع بعض الاستثناءات، فالمبدأ التالي قائم في جميع اللغات:

اللفظ أو الوسيلة النحوية التي تشير إلى **المعية** تشير إلى **الأداة** أيضا.

وبما أنه يمكن أن تكون التجارب التي ترتكز عليها استعارة **الأداة رفيق** تجارب كلية فإنه من الطبيعي أن ينطبق هذا المبدأ النحوي في أغلب اللغات. فاللغات التي ينطبق فيها المبدأ تنسجم مع هذه الاستعارة، واللغات التي لا ينطبق فيها المبدأ لا تنسجم معها. وحين لا يظهر انسجام مع استعارة **الأداة رفيق** في لغة ما فعادة ما يظهر انسجام تصوري آخر في مكانه. وهكذا نجد لغات تشير إلى **الأداة** بواسطة الفعل «استخدم» أو «استعمل»، أو تشير

6) هناك تكامل واضح بين دلالة «مع» والواو ودلالة «الباء» في اللغة العربية على كل من المعية والأداة تباعاً. انظر بصدد ذلك عبد المجيد جحفة (1992): «الحلول والمصاحبة وحروف الجر في اللغة العربية»، في: قضايا في اللسانيات العربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن امسيك، الدار البيضاء. (هـ. م)

إلى المعية عن طريق الـواو. وهذه طرق أخرى غير استعارية قـد يكون الشكل فيها منسجما مع المحتوى.

إن استعمال نفس اللفظ للدلالة على كل من **الأداة** والمعية له معنى. إنه يعقد ارتباطات بين الشكل والمحتوى تنسجم مع نسق اللغـة التصوري. وهذا يشبه استعمال ألفـاظ فضائية مثل **في** أو **على** من أجل التعبير عن الـزمن (في مثل: «في ساعة واحدة»، أو «على الساعة العاشرة»)، على اعتبار أن **الزمن** يُبنى تصوره استعاريا انطـلاقا من الفضاء. إن الاستعارات في النسق التصـوري تشير إلى عـلاقات منسجمـة ونسقيـة بين التصـورات. واستعمال نفس الألفاظ أو الوسائل النحوية في [التعبير عن] تصورات تتوافق من حيث النسقيـة الاستعارية (مثل **الزمن والفضاء**) يُعَد من الطـرق التي تكون بفضلها التـوافقات بين الشكل والمعنى في لغة ما توافقات «منطقية» وليس اعتباطية.

خـــاتـمـــة

تنوعات دقيقة في المعنى

هل الجمل الشارحة ممكنة؟ هل يمكن لجملتين مختلفتين [شكلا] أن تفيدا نفس الشيء تمامـا؟ لقد رصـد بولنجـر جزءا كبيرا من أبحاثـه من أجل أن يبين أن هذا الأمـر مستحيل كلية، وأن أي تغيير في جملـة ما - وليكن تغييرا يمس رتبـة الكلمات أو المفردات أو التنغيم أو التركيب النحوي - سيؤثـر على معنى الجملة، وإن تم ذلك بطريقة دقيقـة جدا. ونجد أنفسنا مطالَبين بالنظر في سبب ذلك.

إننا نبني تصورنا للجمل استعاريا من خلال الفضاء. فعناصر الشكل اللغوي تكتسي خصائص فضـائية (مثل الطـول)، وعلاقـات فضائيـة (مثل القرب). وبهذا فـالاستعارات الفضائية المثبَتة في نسقنا التصوري (مثل **القرب قوة في التأثير**) تُبنين بشكل آلي العلاقات بين الشكل والمحتـوى. وإذا كانـت بعض مظاهـر معنى جملـة ما نـاتجة عن بعض المواضعـات الاعتباطيـة نسبيا الموجودة في اللغة فإن بعض مظـاهر المعنى الأخرى تنشأ بمـوجب محاولتنا الطبيعية في جعل ما نقوله منسجما مع نسقنا التصوري. ويدخل في هذا *الشكلُ* الذي نقول الأشياء داخله، بما أن هذا الشكل يتصوّر فضائيا.

اطرادات الشكل اللغوي

رأينا أن الاستعـارات تلعب دورا مهما في رصد بعض مظـاهر اطـراد الشكل اللغوي. ومن هذه المظـاهر الاطراديـة استعمال نفس اللفظ للدلالة على كل من المعيـة والأداة. وهذا الاطراد ينسجم مع الاستعـارة التصورية التـالية: **الأدوات رفاق**. إن جانبـا مهما مما نـدركه بـاعتباره اطـرادات «طبيعية» في الشكل اللغـوي اطـرادات تنسجم مع استعارات في نسقنـا

التصوري. لنأخذ، مثلا، مسألة انتهاء الاستفهام بما ندركه باعتباره تنغيما صاعدا، وانتهاء الإثبات نموذجيا بما ندركه باعتباره تنغيما مستفلا.

إنّ هذا الأمر ينسجم مع الاستعارة الاتجاهية التالية: **المجهول فوق والمعلوم تحت**. ويمكن أن نلاحظ هذه الاستعارة التصورية في أمثلة من قبيل:

- (24) بقيت هذه النقطة **معلقة**
- (25) أود أن **أثير** بعض المشاكل بصدد هذا التحليل [7]
- (26) المشكل **مطروح** بطريقة سيئة
- (27) **لنضع** ذلك **على** مائدة النقاش [أو أرضية النقاش]

كما أن السبب في كون الفعل "come" («جاء») مستعمَل في تعابير مثل: "come up with an answer" أن الجواب يُتصوَّر باعتباره يبدأ من **تحت** وينتهي حيث نوجد، أي **فوق**[8].

تشير الأسئلة عادة إلى ما هو مجهول. واستعمال التنغيم الصاعد في الأسئلة ينسجم، بذلك، مع استعارة **المجهول فوق**. واستعمال تنغيمات مستفلة في الإثباتات ينسجم بدوره مع استعارة **المعلوم تحت**. وهذا أمر نلاحظه بالفعل في أسئلة ذات تنغيم مستفل إذ لا تُفهَم باعتبارها أسئلة حقيقية، بل باعتبارها أسئلة بلاغية تدل على إثباتات. فمثلا، إذا نطقنا بالجملة التالية: «هل ستتعلم في يوم من الأيام؟» بتنغيم مستفل، فإننا نكون كمن يقول بطريقة غير مباشرة: «إنك لن تتعلم في يوم من الأيام». وفي مقابل ذلك فالإثباتات ذات التنغيم الصاعد تفيد الشك أو عدم القدرة على فهم معنى شيء ما. فإذا تلفظنا، مثلا، بالجملة التالية: «اسمك زيد» بتنغيم صاعد فإننا نشير بذلك إلى عدم تأكدنا وطلبنا للإثبات. وإذا تلفظنا بالجملة التالية: «قايَض العمالقة مادلوك» بتنغيم صاعد فإننا نشير بذلك إلى عدم قدرتنا على إسناد معنى لما تلفظنا به، أي أن ذلك الشيء لا يوافق ما نعرفه. هذه كلها أمثلة لاستعمالَي كل من التنغيم الصاعد والتنغيم المستفل وانسجام هذين الاستعمالين مع استعارة **المجهول فوق والمعلوم تحت**.

وبالمناسبة، فالاستفهامات الميمية لها تنغيم مستفل[9]. ومثال ذلك: «من رأى محمد البارحة؟». وتبرير ذلك أن أكبر قسط من محتوى الاستفهامات الميمية معلوم، وجزء واحد فقط من المعلومات التي تفيدها الجملة مجهول. فهذه الجملة تقتضي أن محمدا رأى شخصا (نجهله) البارحة. ويمكن أن نتوقع أن اللغات ذات التنغيم (tone languages) لا تستعمل

7) المعنى الفضائي للفعل «أثار»، وهو موضع الاستدلال هنا، هو جعل شيء يرتفع إلى أعلى، أي يتجه إلى فوق. وذلك ما يتضح من خلال الاستعمال الفضائي (الذي يشكل أصلا) لهذا الفعل إذ نقول «أثارت الخيل النقع»، أي جعلته يرتفع إلى أعلى بعد أن كان مطروحا على الأرض (أي في الأسفل). (هـ.م)

8) لا نجد ما يقابل هذا النوع من التعابير في اللغة العربية. والترجمة الحرفية لهذه الجملة هي: «جاء إلى فوق بجواب»

9) المقصود بالاستفهام الميمي (wh-question) ذلك الاستفهام الذي ينصب على مكون واحد في الجملة، وهو المسمى عند النحاة العرب استفهام التصور، في مقابل استفهام التصديق الذي ينصب على الجملة برمتها، ويكون الجواب عنه بالتصديق أو التكذيب. ويدعى هذا الأخير الاستفهام نعم-لا (yes-no question) في الأدبيات اللسانية. (هـ.م).

عموما التنغيم في وسمها لـلأسئلة، بل تستعمل أدوات الاستفهام عوض ذلك. وعلى كل، فحين يكـون التنغيم مؤشرا على الفـرق بين الأسئلة والإثبـاتات فإن التنغيم الصـاعد يـوافق الأسئلة المجهولة (أي الأسئلة ذات الصيغـة نعم-لا)، ويوافق التنغيم المستفل ما هو معلوم (أي الإثباتات).

إن أمثلة من هذا القبيل تشير إلى أن اطـرادات الشكل اللغوي لا يمكن تفسيرها عن طريق ما هو صوري فحسب. فمثل هـذه الاطرادات لا يكون لها معنى إلا إذا نظرنا إليها بـاعتبار انطبـاق الاستعـارات التصـورية على تصـورنـا الفضائي للشكـل اللغـوي. وبعبـارة أخرى، فـالتركيب ليس مستقلا عن الدلالة. إن «منطق» لغـة ما يرتكز على الانسجـامات الحاصلـة بين شكل اللغـة بـاعتبـاره فضـاء وبين النسـق التصـوري، وخصـوصـا المظـاهـر الاستعارية في هذا النسق التصوري.

21 . المَعْنَى الجَدِيد

الاستعـارات التي تحدثنـا عنهـا لحد الآن استعـارات وضعيـة، أي أنها تبنين النسق التصوري العادي لثقافتنا الذي تعكسه لغتنا اليومية. ونود الآن أن ننظر في الاستعارات التي توجد خارج نسقنا التصوري المتواضع عليه، ونقصد الاستعارات الخيالية أو الإبداعية وهذه الاستعارات كفيلة بإعطائنا فهما جديدا لتجربتنا، كما تعطي معنى جديدا لماضينا ولنشاطنا اليومي، ولما نعرفه ونعتقده.

ومن أجل أن نفهم كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنا سننظر في الاستعارة الجديدة التالية: **الحب عمل فني مشترك**. فهذه استعارة نجدها قوية ونافذة و«ملائمة» لتجاربنا في إطار جيلنا وثقافتنا. والسبب في ذلك أنها تجعل تجارب الحب عندنا منسجمة -أي أنها تعطيها معنى. ونود أن نقترح، في هذا الصدد، أن الاستعارات الجديدة تعطي معنى لتجربتنا بنفس الكيفية التي تسلكها الاستعارات الوضعية: فهي تقيم بنية منسجمة، وتسلط الضوء على بعض الأشياء فيما تخفي أشياء أخرى

والاستعارات الجديدة، شأنها شأن الاستعارات الوضعية، لها اقتضاءات قد تتضمن استعارات أخرى، كما قد تتضمن إثباتات حرفية. فمثلا، تنشأ اقتضاءات استعارة «**الحب عمل فني مشترك**» من اعتقاداتنا وتجاربنا بخصوص ما يمكن أن يكون عملا فنيا مشتركا. وتصوراتنا الشخصية للعمل وللفن تمدنا بالاقتضاءات التالية، على الأقل، بصدد هذه الاستعارة:

- **الحب عمل**
- **الحب فاعل** (active)
- يتطلب الحب التعاون
- يقتضي الحب الإخلاص.
- يتطلب الحب التفاهم
- يتطلب الحب أخلاقا
- يعني الحب المسؤولية المشتركة
- يتطلب الحب الصبر
- ينطوي الحب على القيم والأهداف المشتركة

- يتطلب الحب التضحية
- يحمل الحب دائما إحساسا بالإحباط
- يتطلب الحب تواصلا غريزيا
- الحب تجربة جمالية
- الحب يحُترم أولا لذاته
- يفترض الحب إبداعا
- يقتضي الحب وجود تصور جمالي مشترك
- تجربة الحب لا تتكرر
- لا يتم اكتساب الحب بواسطة وصفة جاهزة
- الحب تعبير عن حقيقتك
- يخلق الحب واقعا معينا
- يعكس الحب كيفية رؤيتك للعالم
- يقتضي الحب النزاهة التامة
- قد يكون الحب مؤقتا أو دائما
- يحتاج الحب إلى رصيد
- يخلق الحب ارتياحا جماليا مقتسما نتيجة جهود مشتركة

بعض هذه الاقتضاءات اقتضاءات استعارية (مثل: «الحب تجربة جمالية»)، وبعضها ليس كذلك (مثل: «يعني الحب المسؤولية المشتركة») وقد يكون لكل اقتضاء من هذه الاقتضاءات، بدوره، اقتضاءات إضافية. و نتيجة أننا سنحصل على شبكة واسعة ومنسجمة من الاقتضاءات التي قد تتفق عموما مع تجارب الحب لدينا وقد لا تتفق. وإذا اتفقت هذه الشبكة مع [تجارب الحب لدينا] فإن هذه التجارب ستكوّن كُلاّ منسجما تبنينه هذه الاستعارة. وما نمارس تجربته بواسطة هذه الاستعارة سيكون عبارة عن نوع من الاسترجاع عبر شبكة اقتضاءات تحُيي ذكريات تجارب الحب السابقة عندنا، وتربطها في ما بينها، وترشدنا في تجاربنا المقبلة.

لنحاول، الآن، النظر بدقة في ما نعنيه بعمليات «الاسترجاع» في استعارة **الحب عمل فني مشترك**.

أولا، تسلط هذه الاستعارة الضوء على سمات معينة وتحذف سمات أخرى. وكمثال على ذلك الجانبْ الفاعل في الحب الذي يوضع في المرتبة الأولى من خلال تصور **العمل**، سواء في **العمل المشترك** أو في **العمل الفني** [اللذين تتضمنهما الاستعارة]. وهذا يقتضي حجب مظاهر أخرى في الحب تعتبر سلبية. وفي الحقيقة فالمظاهر العاطفية في الحب - في نسقنا التصوري الوضعي - قد لا تعتبر داخلة البتة في التحكم الفاعل للمحبينْ. وحتى في

استعارة الحب سفر، فإن العلاقة بين مكوني الزوج يُنظَر إليها باعتبارها «مركبة» لا يتحكمان في قيادتها بصورة فاعلة. فالعلاقة قد « *تحيد عن الطريق*»، وقد « *تجد نفسها في قاع البحر*»، وقد «*لا تسير في أي اتجاه*». وفي استعارة الحب جنون (كما في: «لقد جننت بها». أو: «لقد أخذت عقله»، أو «سلبته إياه»)[1]، يتصور الحب باعتباره شيئا لا يتم التحكم فيه. وفي استعارة الحب صحة، حيث العلاقة [=علاقة الحب] عبارة عن مريض (كما في: «هذه العلاقة لا تشكو من شيء»، أو «إنها علاقة مريضة»، أو: «أصبحت الحياة تدب في علاقتهما شيئا فشيئا»)، يتم نقل عدم تحكمنا في صحتنا وسلبيتنا في هذا التحكم إلى الحب. فبالتركيز على مظاهر مختلفة من هذا النشاط (وهي: العمل، والإبداع، ورسم الأهداف، والبناء، والمساعدة، ... إلخ) تقدم استعارة الحب عمل فني مشترك تنظيما لأهم تجارب الحب لا يسمح به نسقنا التصوري الوضعي.

ثانيا، لا تقتضي هذه الاستعارة فقط تصورات أخرى، مثل العمل أو رسم الأهداف المشتركة، ولكنها تقتضي أيضا *مظاهر* جد دقيقة في هذه التصورات. إن الأمر لا يتعلق بأي نوع من العمل، من قبيل تركيب سيارة في معمل، مثلا. إنه عمل يتطلب إقامة توازن خاص بين الفاعلية والسلبية، ذلك التوازن الذي يلائم الإبداع الفني. والهدف المرسوم ليس أي هدف مبتذل، إنه هدف جمالي مشترك. إلا أنه رغم أن هذه الاستعارة قد حذفت المظاهر السلبية الموجودة في استعارة الحب جنون، فإنها تسلط الضوء على مظهر آخر يشبه المس بالجنون. وهذا المظهر نجده في ربط ثقافتنا بين العبقرية الفنية والجنون[2].

ثالثا، لأن هذه الاستعارة تسلط الضوء على أهم تجرب الحب وتجعلها منسجمة، فيما تخفي تجارب حب أخرى، فهي تعطي الحب معنى جديدا. وإذا كانت هذه الأشياء التي تقتضيها الاستعارة أهمَّ مظاهر تجاربنا في الحب، فإنه قد تكتسب هذه الاستعارة حكم الصدق. ويستتبع ذلك أن بالنسبة لعَدد كبير من الناس يعتبر الحب *بالفعل* عملا فنيا مشتركا. ولهذا السبب قد يكون لهذه الاستعارة أثر رجعي، كما أنها قد تقود أنشطتنا في المستقبل.

1) انظر بصدد هذه الاستعارة والأمثلة التي توضح تغلغلها في ثقافتنا الفصل الثالث من هذا الكتاب. ويمكن أن نضيف إلى هذه الأمثلة تعابير من قبيل: «قد تيهته، وفتنته، ...». وهناك علاقة عميقة بين التيه والضلال والفتنة من جهة، والجنون والحمق من جهة أخرى. فالتصورات الأولى تحققات ممكنة للجنون إذ قد يتيه الشخص عن عقله فيفقده ويضل عنه، وقد يصاب عقله بفتنة. وهذه كلها طرق استعارية في التعامل مع العقل في مقابل الجنون. (هـ م)

2) تعبر اللغة العربية بصورة واضحة عن الربط بين الجنون والعبقرية. فالجنون من الجن، والجن خلاف الإنس. وحين نريد وصف أحدهم بأنه عبقري (أي من «عبقر»، وهو موضع تزعم العرب أنه موطن للجن، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه)، فإننا نقول إنه من الجن، أو إنه جني لأننا نعتبره أتى بما يفوق طاقة الإنس. (هـ م).

رابعا، وبهذا قد تكون الاستعارات «مستولية علينا»، لأنها تسمح بتصرفات معينة، وتبرر بعض استنتاجاتنا، وتساعدنا على تحديد أهدافنا. ونجد أن بعض التصرفات والاستنتاجات والأهداف، مثلا، تمليها استعارة **الحب عمل فني مشترك**، ولا تمليها استعارة **الحب جنون**. فإذا كان الحب جنونا، فإنني لن أركز كل جهودي على ما يمكّنني من الحفاظ عليه. إلا أنه إذا كان الحب عملا فإنه، في هذه الحالة، يتطلب نشاطا. وإذا كان عملا فنيا فإنه يقتضي نوعا خاصا من النشاط. وإذا كان مشتركا فإن نوع هذا النشاط يكون أكثر تقيداً وتخصيصاً.

خامسا، إن المعنى الذي سأعطيه للاستعارة سيكون، في جزء منه، محدَّدا ثقافيا؛ وسيكون مربوطا جزئيا بتجاربي السابقة. وقد تكون الاختلافات الثقافية كبيرة جدا لأن كل تصور من التصورات التي تحملها هذه الاستعارة التي ناقشها الآن (وهذه التصورات هي: **الفن**، و**العمل**، و**الاشتراك**، و**الحب**) قد تتنوع بشكل واسع من ثقافة إلى أخرى. وبهذا، فإن استعارة **الحب عمل فني مشترك** ربما تعني أشياء مختلفة جدا عند أوربي ذي نزعة رومانسية ينتمي إلى القرن التاسع عشر عما تعنيه عند الإسكيمو الذي يعيش في غرينلاند خلال نفس القرن. وستوجد فروق أيضا داخل ثقافة ترتكز على اختلاف الناس في نظرتهم إلى العمل والفن. إن استعارة **الحب عمل فني مشترك** ستعني شيئا مختلفا جدا عند مراهقيْن ذويْ أربع عشرة سنة في أول موعد لهما عما تعنيه عند زوج «فنانين» بالغين.

وكمثال على الكيفية التي قد تتنوع بها استعارة ما جذريا داخل ثقافة ما، لننظر في بعض اقتضاءات هذه الاستعارة عند شخص له رأي حول الفن مختلف جدا عن رأينا فالشخص الذي لا يقيِّم العمل الفني لذاته، بل ينظر إليه باعتباره موضوعا للعرض فقط، ويعتقد أن الفن يخلق الوهم فقط وليس الحقيقة، ستكون له الاقتضاءات التالية بصدد هذه الاستعارة:

- الحب موضوع للعرض
- الحب موجود كي يحكم عليه الناس ويُعجبوا به
- يخلق الحب الوهم
- يقتضي الحب إخفاء الحقيقة

ولأن رأي هذا الشخص حول الفن رأي مختلف فإنه سيسند لهذه الاستعارة معنى مختلفا. وإذا كانت تجربته للحب قريبة من تجربتنا فإن هذه الاستعارة ستبدو لنا غير كافية وفي الحقيقة، فإنها ستكون غير ملائمة[ولا مكان لها] وبهذا، فإن الاستعارة نفسها التي تعطي معنى جديدا لتجاربنا لن تعطي معنى جديدا لتجاربه.

وفي ما يلي مثال آخر اكتشفناه صدفة، ويمثل للكيفية التي تخلق بها الاستعارة معنى جديدا. وهذا المثال مستمد من طالب إيراني وصل قبل مدة قصيرة إلى بيركلي. وكان يتابع محاضرات حول الاستعارة يقدمها أحدنا. ومن الأشياء العجيبة التي سمعها في بيركلي عبارة

كانت تتكرر باستمرار، وكان يفهمها باعتبارها استعارة جميلة ومعقولة تماما وهذه العبارة هي: «مشاكلي محلولة». فقد كانت توحي له هذه العبارة بقِدر كبير يحوي سائلا يفور وينبعث منه بخار، يتضمن كل مشاكلنا سواء تلك التي تلاشت وذابت أو تلك التي تتشكل [في قعر القدر]. كما توجد بالقدر مواد محفِّزة تذيب بعض المشاكل وتجعل مشاكل أخرى تطفو على السطح (في ذات الوقت) وقد خاب ظن هذا الطالب كثيرا إذ وجد أن ساكني بيركلي لا يعرفون هذه الاستعارة الكيماوية. ومهما يكن، فهذه الاستعارة الكيماوية جميلة ونافذة إنها تعطينا نظرة جديدة للمشاكل باعتبارها أشياء لا تختفي تماما، وأنها لا يمكن أن تُحَلّ بشكل نهائي. فكل مشاكلك حاضرة دائما، ويمكنها فقط أن تنحل، أي أن تكون «في محلول»، أو أن يكون لها شكل صلب. وأقصى ما يمكن أن تطمح إليه هو أن تجد «مادة محفزة» تذيب مشكلا دون أن يطفو مشكل آخر على السطح. وبما أنك لا تملك التحكم التام في ما يعتمل في المحلول فإنك تجد باستمرار مشاكل قديمة وجديدة تطفو على السطح، ومشاكل حاضرة تنحلّ ويحصل هذا، في جزء منه، عن طريق المجهودات التي تبذلها في سبيل ذلك، وفي جزء آخر يحصل بالرغم مما يمكن أن تقوم به.

تعطينا هذه الاستعارة الكيماوية نظرة أخرى بصدد المشاكل البشرية. فهي تلائم التجربة التي نتبين فيها أن المشاكل التي أعملنا فيها فكرنا و«انحلت» ترجع فتنجلي مرة أخرى. وتقول الاستعارة الكيماوية إن المشاكل ليست ذلك النوع من الأشياء الذي يختفي إلى الأبد، ومعالجتها باعتبارها أشياء قد «تنحل» بصورة نهائية سلوك يدل على الحماقة. وأن نحيا من خلال الاستعارة الكيماوية هو أن نقبلها على اعتبار أن المشاكل لا تختفي بالمرّة فعوض توجيه طاقاتك نحو حل مشاكلك بشكل نهائي، عليك أن توجهها نحو إيجاد المحفزات التي تجعل مشاكلك الملحة تنحل لأطول زمن ممكن دون أن تطفو المشاكل الأسوأ على السطح. وبهذا نعتبر ظهور المشكل من جديد ظهوراً طبيعيا وليس إخفاقا من جانبنا في إيجاد «الطريقة الصحيحة لحله»

فأن تحيا بواسطة الاستعارة الكيماوية يعني أن لمشاكلك نوعا من الحقيقة مختلفا عندك. فالحل المؤقت سيكون إنجازا وليس إخفاقا. وستكون المشاكل جزءا من النظام الطبيعي للأشياء وليس اضطرابا يجب «معالجته». [وعموما،] فالكيفية التي ستفهم بها حياتك اليومية، وستتصرف بها، ستكون مختلفة إذا كنت تحيا بواسطة الاستعارة الكيماوية.

رأينا أن ما سبق يشكل حالة واضحة لقوة الاستعارة في خلق الحقيقة وإبداعها، وليس فقط في إعطاء طريقة لبناء تصور حقيقة موجودة قبلا وهذا الأمر ليس مفاجئا. فكما رأينا في استعارة الجدال حرب، تعتبر بعض الأنواع الطبيعية من الأنشطة (مثل نشاط الجدال) استعارية بطبيعتها. وما تكشفه الاستعارة الكيماوية هو أن طريقتنا الشائعة في التعامل مع المشاكل نوع آخر من النشاط الاستعاري فأغلبنا يتعامل حاليا مع المشاكل تبعا لما يمكن أن نسميه استعارة اللغز، حيث المشاكل ألغاز، ولكل منا -نموذجيا- حلول صحيحة

بصددها، وحين تُحَلّ فإنها تحل بشكل نهائي. واستعارة المشاكل ألغاز تخصص حقيقتنا الحاضرة. والانتقال إلى الاستعارة الكيماوية سيخصص حقيقة جديدة.

إلا أنه ليس هينا البتة تغيير الاستعارات التي تجعلنا نحيا. إنه لمن السهل الوعي بالإمكانات التي تتضمنها الاستعارة الكيماوية، ومن الأسهل الحياة تبعا لها. فقد سبق لكل منا، سواء شعوريا أو لاشعوريا، أن عاين مئات المشاكل، وعمل باستمرار على تقديم حلول لعدد كبير منها من خلال استعارة اللغز. إن جزءا كبيرا من نشاطنا اليومي اللاشعوري مبنيّ بواسطة استعارة اللغز، مما يحول دون تمكننا من إقامة انتقال سريع وسهل في اتجاه الاستعارة الكيماوية على أساس قرار شعوري.

إن عددا من أنشطتنا (الجدال، وحل المشاكل، وتدبير الزمن، . . .) استعاري بطبيعته. والتصورات الاستعارية التي تخصص هذه الأنشطة تبني حقيقتنا الحاضرة [لنقرأها أيضا: واقعنا الحاضر]. أما الاستعارات الجديدة فلها القوة على خَلق حقيقة جديدة. وقد يبدأ ذلك في الحصول حين نبدأ في إدراك تجاربنا [والقبض عليها] عن طريق هذه الاستعارات، وتصبح حقيقة أعمق حين نبدأ في التصرف انطلاقا منها. وإذا دخلت استعارة جديدة في النسق التصوري الذي نؤسس عليه تصرفاتنا فإنها تغير هذا النسق التصوري، كما تغير الإدراكات والتصرفات التي ينشئها هذا النسق. وينشأ جزء كبير من التحول الثقافي من إدماج تصورات استعارية جديدة وفقدان أخرى قديمة. فمثلا، يُعتبر ما يسمى تغريب (westernization) الثقافات عبر العالم، في جزء منه، أمرا ناتجا عن إدماج استعارة الزمن مال في هذه الثقافات.

ويخالف إمكان إبداع الاستعارات للحقائق الآراء التقليدية بصدد الاستعارة. والسبب في ذلك أنه كان يُنظَر إلى الاستعارة تقليديا باعتبارها مسألة خاصة باللغة، وليس باعتبارها -أساسا- وسائل تبني نسقنا التصوري وأنواع الأنشطة التي ننجزها. ومن المعقول جدا أن نقول إن الكلمات وحدها لا تغير الحقيقة. إلا أن التغيرات في نسقنا التصوري تغير ما هو حقيقي عندنا، وتؤثر في كيفية إدراكنا للعالم فتفعل في هذه الإدراكات.

فالفكرة التي تقول إن الاستعارة خاصية لغوية ليس إلا، ويمكن في أحسن الأحوال أن تصف الواقع، فكرة تمتح من الرأي القائل إن ما هو واقعي وحقيقي خارجيٌّ كلية ومستقل عن كيفية بناء البشر لتصوراته بإزاء العالم، كما لو كانت دراسة الواقع تقتصر على دراسة العالمَ الفيزيائي. إن هذا الرأي حول الواقع -ولنسمه رأي الواقعية الموضوعية- يهمل المظاهر البشرية في صنع هذا الواقع، وخصوصا الإدراكات الحقيقية، وبناء التصورات، والتحفيزات، والتصرفات التي نشكل أكبر جزء مما نجربه. إن المظاهر البشرية بصدد الواقع هي أهم شيء بالنسبة لنا، وهذا ما يجعل الثقافات تختلف في ما بينها، إذ إن للثقافات المختلفة أنسقة تصورية مختلفة. والثقافات توجد أيضا في بيئات فيزيائية، وهذه البيئات تختلف جذريا في ما بينها إذ لدينا الأدغال، والصحاري، والجزر، والتندرة، والجبال،

والمدن، ... إلخ. ففي كل حالة من هاته الحالات هناك بيئة ثقافية نتفاعل معها بشكل أقل أو أكثر نجاحا. والأنسقة التصورية للثقافات المتنوعة تتوقف على البيئات الفيزيائية التي تترعرع فيها.

على كل ثقافة أن تتخذ طريقة أكثر أو أقل نجاحا في التعامل مع بيئتها، سواء بتبنيها تلك طريقة أو بتغييرها. وفوق كل هذا، فعلى كل ثقافة أن تحدد واقعا اجتماعيا عند الناس الذين يقومون بأدوار تعطيهم معنى، ويتمكنون بمقتضاه من التفاعل اجتماعيا. وليس من المفاجئ أن يؤثر الواقع الاجتماعي الذي تحدده ثقافة معينة في تصورها لواقعها الفيزيائي. فما هو واقعي لدى شخص ينتمي إلى ثقافة ما يعتبر نتاجا لواقعه الاجتماعي وللطريقة التي تجسد تجربته مع العالم الفيزيائي. وبما أن جزءا مهما من واقعنا الاجتماعي يُفهَم بطريقة استعارية، وبما أن تصورنا للعالم الفيزيائي استعاري جزئيا، فإن الاستعارة تلعب دورا دالا في تحديد ما هو واقعي وحقيقي عندنا.

22 . إبْـدَاعُ الـمُشَابَهَة

رأينا أن شقا مهما مـن تجاربنا وأنشطتنـا استعـاري من حيـث طبيعتـه، وأن نسقنـا التصوري مبنيٌّ، في جزء كبير منـه، بواسطة الاستعارة. وبما أننـا نقيم المشابهات من خلال مقولات نسقنـا التصوري، ومن خـلال أنواع طبيعية من التجـارب التي كانت لنـا (وكلاهما يمكن أن يكون استعاريا)، فمعنى ذلك أن جزءا مهما مـن المشابهات التي ندركها ناتج عن الاستعارات الوضعية التي تنتمي إلى نسقنا التصوري. وقد اطلعنا على ذلك عند حديثنا عن **الاستعارات الاتجاهية**. فالتوجهان **الأكثر فوق والسعادة فوق**، مثلا، يتعرضـان للمشابهة التي ندركها بين **الأكثر والسعادة**، وهي مشابهة لا نتصورها حاصلة بين **الأقل والسعادة**.

والاستعارات **الأنطولوجية** تنتج بدورهـا مشابهات ممكنـة. فقد رأينـا، مثلا، أن **الزمن والعمل** يعتبران استعـاريـا مادتين، وذلك مـا يسمح لنـا بتصـــورهما كليهما مشـابهين لموارد فيزيـائية؛ وبالتـالي فهما متشابهان. وبهذا تتيح لنا استعـارتا **الزمن مادة والعمل مادة** تصور الزمن **والعمل** في ثقافتنا بطريقة مشابهة، بما أنه بإمكاننا تكميمهما، وقد نجزئهما إلى وحدات لكل وحـدة منها قيمة معينة، وقـد نستعملهما من أجل قضاء بعض الأغـراض إلى أن يتم استنفاذهما. وبما أن هـاتين الاستعارتين تلعبـان دورا في تحديد **ما** هـو واقعي بالنسبـة لنا في ثقافتنا، فإن المشابهة بين الزمن **والعمل** ترتكز على الاستعارة وعلى ما هو واقعي في ثقافتنا.

والاستعارات **البنيوية** الموجودة في نسقنـا التصوري تنتج بـدورها مشابهات. فـاستعارة **الأفكار أغذية** تقيم مشابهة بين الأفكار والأغذية. فكلاهما يهضَم، ويجتَرّ، ويبلَع، ويلتهم، ويتم تسخينه ثـانية، كما أن كليهما يغذينا. وهـذه المشابهات لا توجد في استقـلال عن هذه الاستعارة. فتصور اجترار الأفكار لا يوجـد إلا بهذه الاستعارة. وفي الحقيقـة، فإن استعارة **الأفكار أغذية** ترتكـز على استعارات أكثر قـاعدية. فهـي ترتكز، مثـلا، بشكل جزئي على استعارة **المجرى** التي تُعتبر فيها **الأفكار أشياء** تأتينـا من خارجنا. كما أنها تتضمـن استعارة **الذهن وعاء** التي تقيم مشابهة بين الـذهن والجسم باعتبارهما وعاءين. وإذا أضفنـا إلى هذه الأخيرة استعارة **المجرى** حصلنا على استعـارة مركبـة تكون فيهـا **الأفكار أشياء تدخل إلى الذهن**، مثلما تدخل طعْمات الأكل إلى الجسم. فعلى هـذه المشابهة الاستعاريـة بين الأفكار والغذاء تنبني جزئيا استعارة **الأفكار أغذية**. وكما رأينا سابقا، فهـذه المشابهة نفسها ناتجة عن استعارة **المجرى** واستعارة **الذهن وعاء**.

إن استعارة **الأفكار أغذية** تتفق جزئيا مع تجربتنا، وذلك راجع إلى تلك المشابهة المستنبطة من الاستعارتين السالفتي الذكر فهي تجد أسسها في استعارة **الذهن وعاء** وفي استعارة **المجرى**. وانطلاقا من استعارة **الأفكار أغذية** نحصل على مشابهات (استعارية) جديدة بين **الأفكار والأغذية**: فكلاهما يُبلع، ويهضم، ويجتر، ويلتهم، وكلاهما يغذينا. وهذه التصورات الخاصة بالأغذية تمدنا بطريقة لفهم عمليات نفسية لا نملك الوسائل المباشرة أو المحددة لبناء تصور لها.

وأخيرا، يمكن أن نلاحظ إبداع المشابهة في *استعارات جديدة*. فمثلا، تنبني استعارة **المشاكل رواسب في محلول كيماوي** على الاستعارة الوضعية التالية: **المشاكل أشياء**. وتضيف هذه الاستعارة **الكيماوية** إلى ما سبق أن المشاكل **أشياء صلبة**. وهذا يجعل هذه الأشياء **رواسب في محلول كيماوي**. والمشابهات التي نستنبطها من علاقة المشاكل، من خلال علاقتنا الدائمة معها، بالرواسب في المحلول الكيماوي هي أن لكليهما شكل مدرَك، وبهذا يمكن أن نعيّنهما ونحللهما، ونفعل فيهما. ويتم استنباط هذه المشابهات عن طريق استعارة **المشاكل أشياء صلبة** التي تشكل جزءا من الاستعارة **الكيماوية**. وعلاوة على هذا، فإن الرواسب حين تنحل يبدو أنها تختفي لأنه لا يكون لها في هذه الحالة شكلا مدركا، وبالتالي لا يمكن تعيينها أو تحليلها أو الفعل فيها. إلا أنه قد تبرز الرواسب ثانية فتظهر في شكل صلب، تماما مثلما يعود مشكل ما إلى الظهور. إننا ندرك هذه المشابهة بين المشاكل والرواسب عبر ما يتبقى من الاستعارة **الكيماوية**.

ومن الأمثلة الدقيقة على المشابهات التي تبدعها *استعارة جديدة* ما يمكن أن نلاحظه في استعارة **الحب عمل فني مشترك**. فهذه الاستعارة تسلط الضوء على بعض مظاهر تجارب الحب، وتخفف من [أهمية] مظاهر أخرى فيما تخفي بعضا آخر. وهذه الاستعارة تخفف، بخاصة، من أهمية تلك التجارب التي تتفق مع استعارة **الحب قوة فيزيائية**. ونعني بـ«التخفيف» هنا أنها تكون متلائمة مع تجارب حب قد نصفها بشكل معقول من خلال قولنا: «هناك جاذبية بيننا»، أو «أحس بمرور التيار بينهما»، ... إلخ؛ إلا أنها لا تركز عليها. إضافة إلى ذلك، فهي تخفي تجارب حب تتفق مع استعارة **الحب حرب**، لأنه لا يوجد أي تلاؤم منطقي ممكن بين الاستعارتين. فمظهرا التشارك والتعاون، في استعارة **الحب عمل فني مشترك**، لا يلائمان (ومن هنا يخفيان) المظاهر العدوانية والسلطوية في تجارب الحب لدينا، تلك المظاهر التي تصفها جمل من قبيل: «إنها آخر من أخضع لحبه»، أو «لقد استسلم لحبها»، أو «لقد أغرقته في بحر حبها»، ... إلخ.

بهذه الوسائل تضع استعارة **الحب عمل فني مشترك** بعض تجاربنا في الحب جانبا، وتنتقي أخرى قصد التركيز عليها كما لو كانت هذه الأخيرة تجاربنا الوحيدة في الحب. وبهذا فهي تستنبط مجموعة من المشابهات بين تجارب الحب التي تسلط الضوء عليها والتجارب الحقيقية أو الخيالية في الاشتراك في **عمل فني** ما. وقد سقنا هذه المشابهات المستنبَطة في مصفوفة الاقتضاءات السابقة («الحب عمل»، و«الحب تجربة جمالية»، ... إلخ).

وداخل مجموعة تجارب الحب التي سُلط عليها الضـوء، تتفق كل تجربة على الأقل مع مشابهة من المشابهات المعطاة في مصفوفة الاقتضاءات. ويُحتمل ألا تُوافق مشابهة من هذه المشابهات كل الاقتضاءات فمثلا، سيتفق حدثٌ محبِط مـا مع الاقتضاء التالي: «الحب يحمل دائما إحساسا بالإحباط»، ولن يتفق مع الاقتضاء التالي: «الحب تجربة جمالية»، أو مع الاقتضاء التالي: «الحب يحُرّم أولا لـذاته». فكل اقتضاء ينص على مشابهة تقـوم بين بعض أنواع تجارب الحب من جهة، وبين بعض أنواع تجارب الأعمال الفنية المشتركة، من جهة أخرى. ولا يشير أي اقتضاء إلى المشابهة ككل بين مجموع *طبقة* تجارب الحب المسلَّط عليها الضوء وبين طبقة التجارب التي يتطلبها إنتاج عمل فني مشترك فالاستعارة ككل وحدها، بما في ذلك نسق اقتضاءاتها كله، هي التي تبين المشابهات الحاصلة بين طبقة كل تجارب الحب المسلط عليها الضوء وطبقة كل تجارب إنتاج عمل فني مشترك.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك مشابهة تُستنبط من خلال الاستعارة التي تتجاوز مجرد المشابهات بين طبقتي التجارب. وهـذه المشابهة *مشابهة بنيوية*. إنها ترتبط بالطريقة التي نفهم بها اتفاق التجارب المسلط عليها الضوء مع بعضها بكيفية منسجمة. والانسجام بنيةُ ما نعرفه عن إنتاج عمل فني مشترك. وينعكس هذا الانسجام في كيفية اتفاق الاقتضاءات مع بعضها (أي أن بعض الاقتضاءات ترتبط **بالعمل**، وبعضها **بالفن**، وبعضها الآخر **بالعمل المشترك**، . . .إلخ). فهـذه البنية المنسجمة هـي التي تسمح لنا بفهم ترابط التجارب المسلط عليها الضوء ببعضها، وفهم كيفية ترابط الاقتضاءات ببعضها. وبهذا، فإن ما يجعل طبقة تجارب الحب المسلط عليها الضوء مشابهة من حيث *البنية* لطبقة تجارب عمل فني مشترك هو هذه الاستعارة.

هذه المشابهة *البنيوية* بين طبقتي التجـارب هي التي *توجد الانسجام* داخل طبقة تجارب الحب المسلط عليها الضـوء. وفي مقابل ذلك، فهـذه الاستعارة هي التي تـوجب أن تُنتقى طبقة التجارب المسلط عليها الضوء باعتبارها تجارب منسجمة. وبدون هذه الاستعارةْ ما كانت لتوجَد هذه الطبقة من التجارب باعتبارها مجموعة تجارب معينة ومنسجمة. وتصور الحب باعتباره **عملا فنيا** مشتركا يجعل هذه التجارب مركزية، فهي تتفق مع بعضها في إطار كلّ منسجم.

وإضافة إلى هذا، فالاستعارة - بإعطائها بنية منسجمة إلى طبقة من تجاربنا - **تبدع مشابهَات من نوع جديد**. مثلا، قد نعتبر تجربة حب محبطة - في استقلال عن الاستعارة - مشابِهة لتجربة محبطة في إنتاج عمل فني مـا بالاشتراك مع أحدهم؛ فكلتا التجربتين محبطتان. وبهذا المعنى ستكون تجربة الحب المحبطة مشابِهة أيضا لأي تجربة محبطة كيفما كانت. إن ما تضيفه الاستعارة إلى فهمٍ معين لتجربة الحب المحبطة أن نوع الإحباط المتضمن فيها هـو ذلك المتضمن في إنتـاج أعمال فنية مشتركة. والمشابهَة مشابهة تتعلق بالاستعارة

هكذا ندرك الطبيعة الدقيقة للمشابهة بين تجربة الحب المحبطة والتجربة الفنية المحبطة بواسطة فهم تجربة الحب من خلال التجربة الفنية لا غير. إن فهم تجارب الحب من خلال ما يتطلبه إنتاج عمل فني مشترك، في تحديدنا، فهمٌ لهذه التجربة من خلال التصور الاستعاري **الحب عمل فني مشترك**.

ويمكن أن نلخص الطرق التي نبدع بها الاستعارات مشابهَات كالتالي:

1 . ترتكز الاستعارات الوضعية (الاتجاهية والأنطولوجية والبنيوية) غالبا على ترابطات ندركها في تجربتنا. مثال ذلك ما نجده في ثقافة صناعية مثل ثقافتنا، حيث نجد ترابطا بين مقدار الزمن الذي تستغرقه مهمة ما ومقدار العمل الذي يتطلبه إنجاز هذه المهمة. ويشكل هذا الترابط جزءا مما يسمح لنا بالنظر إلى الزمن والعمل استعاريا باعتبارهما من **الموارد**، وبذلك نجد مشابهة بينهما. ومن المهم أن نوضح أن الترابطات ليست هي المشابهات. فالاستعارات التي ترتكز على الترابطات في تجربتنا تحدد التصورات التي ندرك بواسطتها المشابهات.

2 . قد ترتكز الاستعارات الوضعية ذات التنوع البنيوي (مثل: **الأفكار أغذية**) على مشابهات تنشأ من استعارات اتجاهية وأنطولوجية. وهذا ما رأيناه بصدد استعارة **الأفكار أغذية**، إذ ترتكز على استعارة **الأفكار أشياء** (= أنطولوجية)، وعلى استعارة **الذهن وعاء** (= أنطولوجية واتجاهية). وتُستنبط المشابهة البنيوية بين **الأفكار والأغذية** بواسطة هذه الاستعارة، وتسمح بوجود مشابهات استعارية (= الأفكار والأغذية تُبلع، وتهضم، وتُلتهم، وتغذي، . . . إلخ).

3 . الاستعارات الجديدة في الأغلب بنيوية. وبإمكانها أن تبدع مشابهات بنفس الكيفية التي تبدعها بها الاستعارات الوضعية التي تكون بنيوية. ومعنى هذا أنها قد ترتكز على مشابهات ناشئة عن استعارات أنطولوجية واتجاهية. وكما رأينا سابقا، فاستعارة **المشاكل رواسب في محلول كيماوي** ترتكز على الاستعارة الفيزيائية **المشاكل أشياء صلبة**. وهذه الاستعارة تبدع مشابهات بين **المشاكل والرواسب**، بما أنهما كلتيهما يمكن تعيينهما وتحليلهما والفعل فيهما. واستعارة **المشاكل رواسب** تبدع مشابهات جديدة، وهي أن المشاكل قد تبدو وكأنها ذهبت (أي تنحل في «محلول») ثم تعاود الظهور في ما بعد (أي تطفو على السطح).

4 . تصنِّف الاستعارات الجديدة، بموجب اقتضاءاتها، طبقة من التجارب عن طريق تسليط الضوء عليها، أو التخفيف من أهميتها، أو إخفائها. وبعد ذلك تخصص الاستعارة مشابهة بين طبقة التجارب المسلط عليها الضوء كلها وطبقة أخرى من التجارب. فمثلا، تنتقي استعارة **الحب عمل فني مشترك** طبقة معينة من تجارب الحب لدينا، وتحدد مشابهة بنيوية بين مجمل *طبقة* التجارب المسلط عليها الضوء وطبقة التجارب التي يتطلبها إنتاج أعمال فنية مشتركة. وقد نجد مشابهات معزولة لا تنتمي إلى تجارب الحب أو التجارب الفنية، فتكون هذه المشابهات مستقلة عن الاستعارة. إلا أن الاستعارة تتيح لنا إيجاد

انسجام في هذه المشابهات المعزولة اعتمادا على كل المشابهات البنيوية المستنبَطة بواسطة الاستعارة.

5 . تكون المشابهَاتُ مشابهاتٍ باعتبار الاستعارة. وكما رأينا سالفا، فاستعارة **الحب عمل فني مشترك** تحدد نوعا وحيدا من المشابهة. فتجربة الحب المحبطة قد تُفهَم باعتبارها مشابهة لتجربة فنية محبطة. إلا أن ذلك لا يتم بموجب [سمة] الإحباط المتوافرة في كلتيهما، بل باعتبار أن التجربة الفنية المحبطة تتضمن نوع الإحباط الذي قد يتضمنه الإنتاج المشترك لأعمال فنية.

إذن، فالاستعارات، بالنسبة لنا، تبدع مشابهات. وهذا الطرح يخالف النظرية التقليدية حول الاستعارة التي ما زال يُعمَل بها بشكل واسع، وهي *نظرية المقارَنة*. وتقول هذه النظرية:

1 . إن الاستعارة ظاهرة لغوية، وليست ظاهرة تتعلق بالفكر أو الأنشطة. فالفكر الاستعاري والأنشطة الاستعارية شيئان غير موجودين.

2 . إن الاستعارة ذات الصورة «أ هو ب» عبارة لغوية لها نفس معنى العبارة اللغوية التي تقابلها وهي «أ تشبه ب بالنظر إلى س، ص، ز...». ونشير العبارة «بالنظر إلى س، ص، ز...» إلى ما سميناه «المشابهات المعزولة».

3 . إذن، فالاستعارة لا تستطيع إلا وصف مشابهات قَبْلية. وليس بإمكانها إبداع مشابهات.

أتينا، في ما سبق، بعدد من المعطيات التي تشكك في عدة جوانب من نظرية المقارنة. ونتفق مع ما نعتبره جوهر أطروحتها، وهو الفكرة التي تقول إن الاستعارات قد ترتكز على مشابهات معزولة. إلا أننا لا نتفق مع نظرية المقارنة في النقط الأخرى. فنحن ندافع عما يلي:

1 . الاستعارة ظاهرة ترتبط أولا بالأفكار والأنشطة، أما ارتباطها باللغة فمشتق فقط [من الارتباط السابق].

2 . أ – قد ترتكز الاستعارات على مشابهات، رغم أنه في عدد من الحالات تكون هذه المشابهات نفسها مرتكزة على استعارات وضعية لا ترتكز على مشابهات. وتُعد المشابهات المرتكزة على الاستعارات الوضعية، مع ذلك، حقيقية *في ثقافتنا*، بما أن الاستعارات الوضعية تحدد جزئيا ما نعتبره واقعيا وحقيقيا.

ب – رغم أن الاستعارة قد ترتكز جزئيا على مشابهات معزولة، فإن المشابهات المهمة تكون تلك التي أبدعتها الاستعارة، كما رأينا ذلك سالفا.

3 . إن أهم وظيفة تقوم بها الاستعارة إتاحةُ فهم جزئي لنوعٍ من التجارب من خلال نوع آخر. وقد يدخل في ذلك المشابهات المعزولة الموجودة قبلا، وإبداع مشابهات جديدة، وأشياء أخرى.

إنه من الأهمية بمكان أن نضع في أذهاننا أن نظرية المقارنة غالبا ما تُربَط بفلسفة ذات نزعة موضوعية (objectivist) تَعتبر كل المشابهات موضوعية، أي أن هذه المشابهات تلازم الكيانات نفسها. أما نحن فنستدل على عكس ذلك. فالمشابهات الوحيدة الواردة بالنسبة للاستعارة هي *المشابهات كما يمارس الناس تجربتها*. والفرق بين *المشابهات الموضوعية* و*المشابهات التجريبية* أساسي، وسنناقشه في الفصل السابع والعشرين. وبإيجاز، فصاحب النزعة الموضوعية سيقول إن للأشياء خصائص في استقلال عن الشخص الذي يمارس تجربتها. وتُعد الأشياء *متشابهة موضوعيا* إذا كانت تشترك في هذه الخصائص. وبهذا، فلا معنى للحديث عن الاستعارات باعتبارها «تبدع مشابهات» عند صاحب النزعة الموضوعية. فهذا الاقتراح سيؤدي إلى اعتبار الاستعارات قادرة على تغيير طبيعة العالم الخارجي بإبداعها لمشابهات موضوعية لم تكن موجودة من قبل.

إننا نتفق مع النزعة الموضوعية حول نقطة أساسية، وهي أن الأشياء في العالم تلعب دورا في تقييد نسقنا التصوري. إلا أنها لا تلعب هذا الدور إلا عبر *تجربتنا معها*. وبهذا فالتجارب: 1) ستختلف من ثقافة إلى أخرى، و 2) قد يتوقف فهمنا لنوع منها على نوع آخر، أي أن تجاربنا قد تكون استعارية من حيث طبيعتها. وهذه التجارب هي التي تحدد مقولات نسقنا التصوري. والخصائص والمشابهات التي ندافع عنها توجَد فقط في علاقتها بنسق تصوري، وفي علاقتها بتجربتنا. وبذلك فإن النوع الوحيد من المشابهات الوارد بالنسبة للاستعارات هو المشابهات *التجريبية* وليس المشابهات *الموضوعية*.

يتلخص موقفنا العام في أن الاستعارات التصورية تتأسس على *ترابطات* داخل تجربتنا. وقد تكون هذه الترابطات التجريبية من نوعين: إما تسايقا تجريبيا (experiential co-occurrence) أو مشابهة تجريبية. ونعد استعارة **الأكثر فوق** مثالا جيدا على التسايق التجريبي. فهي ترتكز على تسايق نوعين من التجربة: زيادة المادة ورؤية صعود مستواها. أما المشابهة التجريبية فنجدها في استعارة **الحياة لعبة حظ**، حيث يمارس الناس تجربة أعمالهم في الحياة كما لو كانت لَعبا (أو قِمارا)، وتُدرَك النتائج المحتملة لهذه الأعمال باعتبارها ربحا أو خسارة. وهنا تبدو الاستعارة مرتكزة على مشابهة تجريبية. وحين تمتد هذه الاستعارة [إلى مجالات أخرى]، فإننا قد نقوم بتجريب مشابهات جديدة بين الحياة وألعاب الحظ

23 . الاسْتِعَارَةُ والصِّدْق والْعَمَل

قدمنا، في الفصل السابق، الافتراضات التالية:

- للاستعارات اقتضاءات تسلط الضوء على بعض مظاهر تجربتنا وتجعلها منسجمة
- يمكن أن تكون استعارة معينة الوسيلة الوحيدة لتسليط الضوء على بعض مظاهر تجربتنا وتنظيمها بشكل منسجم.
- قد تبدع الاستعارات بعض حقائقنا، وخصوصا الحقائق الاجتماعية
- وبهذا قد ترشدنا استعارة معينة في عمل مقبل وهذه الأعمال المقبلة ستتفق، طبعا، مع هذه الاستعارة. وهذا يدعم قوة الاستعارة في جعل التجربة منسجمة. وبهذا المعنى يمكن للاستعارات أن تكون «نبوءات» تضمن تحققها بنفسها

حين وجد رئيس أمريكا السابق كارتر نفسه وجها لوجه أمام أزمة الطاقة «أعلن عليها معنويا الحرب». وقد ولّدت استعارة الحرب هاته شبكة من الاقتضاءات كان هناك «عدو»، وكان هناك «مساس بالأمن الوطني» يتطلب «تحديد الأهداف»، و«إعادة تنظيم الأولويات»، و«إقامة بنية قيادية جديدة»، و«وضع استراتيجية جديدة»، و«البحث عن المعلومات»، و«حشد القوى»، و«فرض عقوبات»، و«النداء من أجل التضحيات»، وهلم جرا. وقد سلطت استعارة الحرب هاته الضوء على بعض الحقائق، وأخفت حقائق أخرى ولم تكن الاستعارة فقط وسيلة لإدراك الحقيقة، بل إنها شكلت مسوِّغا لتغيير سياسي واقتصادي. ونظرا إلى كون هذه الاستعارة قد فُهمت، فإن ذلك سمح ببعض الاستنتاجات: كان يوجد خصم خارجي يكن العداء (قدمته الرسوم المصورة يرتدي لباسا عربيا)، والطاقة يجب أن تكون أولى الأولويات، وعلى الجماهير أن نقدم التضحيات، وإذا لم نواجه هذا التهديد فإنها ستهلك. ويجب أن نتبين أن هذه الاستعارة التي تم اختيارها لم تكن وحدها المتاحة

لقد اعتمدت استعارة الحرب التي استعملها كارتر على تصورنا السائد بخصوص الطاقة، وركزت على كيفية الحصول على ما يكفي منها ومن جهة أخرى، فقد لاحظ أموري لوفينس Amory Lovins (1977) أن هناك طريقتين أساسيتين مختلفتين لسد حاجياتنا من الطاقة، أو لنقل إن هناك مسارين. وقد خصصهما استعاريا بالمسار القاسي والمسار

الهين. يستخدم **مسار الطاقة القاسي** التموين الطاقي «الصلب» وغير المتجدد، وهو يحتاج إلى دفاع عسكري ومراقبة جيوسياسية، وينتج تدميرا أكيدا للبيئة ، ويتطلب استثمارا كبيرا وتكنولوجيا عالية وعمالا ذوي مهارات عالية. ويدخل في هذا النوع الوقود المستخرجة من الأرض (النفط والغاز) والمحطات النووية وتحويل الفحم إلى غاز. أما **مسار الطاقة الهين** فيستخدم التموين الطاقي «المرن» والمتجدد، وهو لا يحتاج إلى دفاع عسكري أو مراقبة جيوسياسية، ولا يدمر البيئة، ولا يتطلب سوى استثمار زهيد وتكنولوجيا رخيصة وعمالا بدون مهارة. ويدخل في هذا النوع الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والقوة المائية الكهربائية وكحول البايوماس (كحول الكتل الحية (biomass alcohol) والأسرة المذوبة للفحم وعددا كبيرا من الإمكانات المتاحة حاليا. إن استعارة **مسار الطاقة الهين،** التي استعملها لوفينس، تسلط الضوء على بنية نظام الطاقة من حيث بعده التقني والاقتصادي والسوسيوسياسي وهذا ما قاده إلى أن يستخلص أن مسار الطاقة القاسي (الفحم والنفط والقوة النووية) يؤدي إلى صراع سياسي وأزمات اقتصادية وتدمير للبيئة. إلا أن سلطة جيمي كارتر كانت تفوق سلطة أموري لوفينس. وكما أشارت علينا شارلوت ليند Charlotte Linde ، في حديث خاص، فسواء تعلق الأمر بالسياسة الوطنية أو بالتفاعل اليومي بين الناس، فأولئك الذين يوجدون في موقع السلطة هم الذين يفرضون استعاراتهم

وقد تكون للاستعارات الجديدة، شأنها شأن الاستعارات الوضعية، قوة في تحديد الواقع. فهي تقوم بذلك عبر شبكة من الاقتضاءات تسلط الضوء على بعض سمات الواقع، وتخفي سمات أخرى ويؤدي بنا قبول الاستعارة، التي تجبرنا على التركيز *فقط* على مظاهر تجربتنا التي تضيئها، إلى اعتبار اقتضاءات الاستعارة *صادقة*. وهذا الصدق لا يكون صادقا، بالطبع إلا باعتبار الواقع الذي تحدده الاستعارة لنفرض أن كارتر أعلن أن إدارته انتصرت في معركة طاقية كبيرة. فهل هذا الادعاء صادق أم كاذب؟ إن طرح السؤال ذاته يستلزم قبولنا للأجزاء الأساسية المكونة لهذه الاستعارة. إلا أنه إذا لم نقبل بوجود عدو خارجي، وأنه لا يوجد تهديد خارجي، وأنه لا وجود لساحة معركة، ولا وجود لأهداف أو قوات مقاتلة محددة بشكل واضح، فإنه في هذه الحالة لن يكون لمسألة الصدق الموضوعي أو الكذب الموضوعي للاستعارة أي معنى. أما إذا نظرنا إلى هذه الاستعارة باعتبارها تحدد بشكل صحيح الواقع، أي إذا أدركنا أزمة الطاقة باعتبارها حربا، فإننا نستطيع أن نجيب عن السؤال المتعلق بمعرفة اتفاق الاقتضاءات الاستعارية مع الواقع أم لا. وإذا كان كارتر، بتأسيس استراتيجيته على العقوبات السياسية والاقتصادية، قد أجبر دول الأوبيك (OPEC) على تخفيض سعر النفط إلى النصف، فإنه يمكن أن نقول إنه انتصر في معركة أساسية. أما لو كانت استراتيجيته لم تحقق سوى تجميد مؤقت للأسعار، فإننا لن نكون موقنين من انتصاره.

ورغم أن مسألة الصدق تُطرح بخصوص الاستعارات الجديدة، فإن المسائل الأهم هي تلك التي ترتبط بالعمل الملائم [تبعا لهذه الاستعارات]. ففي أغلب الحالات ما فيه نظر ليس هو صدق الاستعارة أو كذبها، بل الإدراكات والاستنتاجات التي تستتبع الاستعارة، والأعمال التي تقرها. ففي كل تفاصيل حياتنا اليومية، بصرف النظر عن السياسة والحب، نحدد الحقيقة من خلال الاستعارات، ونتصرف بموجبها. إننا نرسم استنتاجات، ونرمي إلى أهداف، ونقوم بتعهدات، وننفذ مخططات، ... إلخ. نفعل كل هذا اعتمادا على البنيَة الشعورية أو اللاشعورية لتجربتنا انطلاقا من الاستعارة.

24 . لِـمَـاذَا الاهْتمَـام بنَظَرِيَة الصِّدْق؟

للاستعـارات، كما رأينا، طبيعة تصـورية وهي من السبل الأساسية لحصول الفهم. فهي تلعب دورا مركزيا في بناء الواقـع السياسي والاجتماعي إلا أن الفلاسفة يحللونها عادة باعتبـارها ظاهـرة «لغوية خـالصة» ونقاشـات الفلاسفة لا تـركز على طبيعتها التصـورية وإسهـامهـا في الفهم، أو وظيفتها في الـواقع الثقـافي فقـد دأب الفلاسفـة على النظـر إلى الاستعارات باعتبـارها تعابير خياليـة أو شعرية تخرج عن المعهود. وبهذا تمركـزت نقاشاتهم حـول إمكان صـدق هذه التعـابير اللغـوية. واهتمامهم بمفهـوم الصـدق نابع من هـاجس الموضوعيـة: فالصادق، بـالنسبة لهم، يعني الموضوعي والمطلق وهم يَخْلُصـون عادة إلى أن الاستعارات لا يمكن أن تصرح مباشرة بما هو صادق، وأنه في حالة تصريحها بما هو صادق فإن ذلك لا يتم إلا بصـورة غير مباشرة، وذلك عـن طريق الاستعـانة بشرح «حـرفي» غير استعاري.

من جهتنا، لا نؤمـن بوجود صدق موضـوعي (مطلق وغير مشروط)، رغم أن التقليد الثقافي الغربي ظل يقول بالعكس لمدة طويلة والصدق موجود رغم ذلك. إلا أنه ليس من الضروري ربطه بـالطرح الموضـوعي. ففكرة وجـود صدق مطلق ومـوضوعي ليسـت فكرة خـاطئـة فحسب، بل إنها خطيرة على المستـوى الاجتماعي والسيـاسي وكما قلنـا سـابقـا، فالصدق دائما نسبي بالنظر إلى نسق تصوري تـم تحديد جزء كبير منه من خلال الاستعارة. إن عددا كبيرا من استعاراتنـا نشأ في ثقافتنا منذ تاريخ طويل، إلا أن عـددا كبيرا آخر منها فـرضـه، أصـلا، ممارسـو السلطـة من زعماء سياسيين ودينيين وزعماء مجال الأعمال والتجـارة والإعلان ووسـائل الاتصال، . . . إلخ فمتى كـانت أسطورة النزعـة الموضوعيـة سائدة في الثقافة، وكان الصدق دائما صدقا مطلقا، نجـح فارضو استعاراتهم على الثقافة في تحديد ما نعتبره صادقا - أي صادقا بصفة مطلقة وموضوعية.

ولهذا السبب نرى أنه من المهم أن نعطي تحليلا للصدق متحررا من أسطورة الموضوعية (التي تجعل الصدق دائما صـدقا مطلقا). وبما أننا نعتبر الصدق مـرتكزا على الفهم، ونعتبرَ الاستعـارة أداة رئيسيـة في الفهم، فإننـا نعتقد أن تفسير الكيفيـة التي تكـون بها الاستعـارة صادقة سيبين لنا الطريقة التي يرتبط بها الصدق بالفهم

أهمية الصدق في حياتنا اليومية

إننا نؤسس أعمالنا، سواء الفيزيائية أو الاجتماعية، على ما نعتبره صادقا. وبصفة عامة، فالصدق مهم عندنا لأن له قيمة حيوية إذ يسمح لنا بأن ننشط في عالمنا ونشتغل فيه. وجل الأشياء الصادقة التي نراكمها، سواء تلك المتعلقة بأجسادنا أو بالناس الذين نتفاعل معهم أو بمحيطنا الفيزيائي المباشر أو بمحيطنا الاجتماعي، تلعب دورا في اشتغالنا اليومي. وهي بدهية بشكل كبير، إلى درجة أننا نحتاج إلى بذل مجهود كبير للوعي بها. ومن هذه الأشياء، مثلا، معرفة مكان وجود باب منزلنا، أو معرفة ما يؤكل وما لا يؤكل، أو معرفة مكان أقرب محطة للبنزين، أو معرفة الدكاكين التي تبيع المواد التي نحتاج إليها، أو معرفة أصدقائنا ومعرفة ما يُغضبهم، أو معرفة مسؤولياتنا. فهذه العينة تعطينا فكرة عن طبيعة ما هو صادق وشساعة حيزه، والدور الذي يلعبه في حياتنا اليومية.

دور الإسقاط في الصدق

من أجل الوصول إلى ما هو صادق واستعماله، نحتاج إلى فهم لعالمنا يكون كافيا لاحتياجاتنا. وكما رأينا سابقا، فإن جزءا من هذا الفهم يوضع عن طريق مقولات تنبثق من تجربتنا المباشرة: المقولات الاتجاهية، وتصوراتٍ من قبيل الشيء والمادة والغرض والسبب، . . . إلخ. وقد رأينا كذلك أنه حين نخرج من مجال المقولات المنبثقة من التجربة الفيزيائية، فإننا نُسقِط أحيانا هذه المقولات على مظاهر من العالم الفيزيائي لنا معها تجربة أقل مباشرةَ. فنحن نُسقِط، مثلا، اتجاها أماميا خلفيا، في سياقات معينة، على أشياء ليس لها داخليا أمامٌ وخلفٌ. فإذا وُجد حجر متوسط الحجم في مجال رؤيتنا، ووُجدت كرة بيننا وبين الحجر، ولتكن بعيدة عنه بمقدار قدم، فإننا سندرك الكرة باعتبارها توجد *أمام* الحجر. ويقيم متكلمو لغة الهاوسا (Hausa) إسقاطا مخالفا لإسقاطنا. فهُم يدركون الكرة *خلف* الحجر. وبهذا، فالاتجاه أمام - خلف ليس خاصية ملازمة لأشياء مثل الحجر. إنه، بالأحرى، اتجاه نسقطه عليه. والكيفية التي ننجز بها ذلك تختلف من ثقافة إلى أخرى. كما أنه باعتبار أغراضنا يمكن أن نتصور فجوة في غابة باعتبارها وعاء، فنتصور أنفسنا في الفجوة أو خارجها. فخاصية الوعائية ليست خاصية تلازم هذا المكان في الغابة حيث لا توجد أشجار. إنها خاصية نسقطها عليه، وترتبط بالطريقة التي «نتعامل» بها مع هذا المكان. وباعتبار بعض إدراكاتنا وأغراضنا الأخرى، يمكن أن ننظر إلى ما تبقى من الغابة - إذا استثنينا منها الفجوة - باعتباره وعاء آخر، ونرى أنفسنا في الغابة. ويمكن أن نقوم بالإدراكين في نفس الوقت فنقول إننا نخرج من الغابة وندخل إلى الفجوة.

نفس الشيء يقال عن الاتجاه تحت - فوق. فهو ينبثق من تجربتنا المباشرة مع سطح الأرض والسطوح وكل المساحات الأفقية. فإذا كنا واقفين فإننا نكون على سطح الأرض أو على سطح آخر ... الخ، وأجسادنا منتصبة. وهذا الاتجاه نسقطه على الحيطان فنتصور

ذبابة باعتبارها *على* الحائط إذا كـانـت أرجلهـا تلتصق بهذا الأخير. ونفس الشيء يصح بخصوص ذبابة توجد على السقف: إننا ندركها *على* السقف وليس *تحته*.

إننا نـدرك، كما رأينا، مختلف أشياء العـالم الطبيعي باعتبـارها كيانـات نُسقِط عليها في الغالب حدودا ومساحات لا توجد طبيعيا. وبهذا نتصـور طبقة من الضباب باعتبارها كيانا يمكن أن يكـون *فوق* الكوة (التي نعـدها أيضا كيـانا) *وأمام* الجبل (بحيث نعتبرهـا كيانـا متوجهـا بحسب المحور أمـام - خلف). وبمقتضى هـذه الإسقاطـات قد تكون جملـة من قبيل: «الضباب أمـام الجبل» جملة صـادقة. وحسب مـا هو نموذجي في حيـاتنا اليـومية، فالصدق نسبي بالنظر إلى فهمنا للظواهر. ويرتبط صدق الجملة المعنية بالطريقة التي نفهم بها العالم حين نُسقط عليه اتجاها معينا وبنية من الكيانات.

دور المَقْوَلة في الصدق

لكي نفهم العالم ونشتغل فيه ونفعل، علينا أن نُمَقْوِلَ الأشياء والتجارب التي نصادفها بطريقة تجعلها ذوات معنى لدينـا. بعض هذه المقولات تنبثق بشكل مباشر من تجربتنا ومن هيئة أجسادنا ومن طبيعة تفاعـلاتنا مع باقي البشر ومع محيطنا الفيزيائي والاجتماعي. وكما رأينا في مناقشتنـا لمثال المسدس المزيف في الفصل العـاشر، هناك أبعـاد طبيعيـة تتحكم في مَقْوَلَتنا للأشياء: بعد *إدراكي* أساسه تصـور الشيء بواسطة جهازنـا الحسي، وبعد *وظيفي* أساسه تصورنا لوظائف الشيء، وبعد غرضي أساسه استخدامـاتنا الممكنة للشيء في وضع معين. وبهذا تكـون مقولاتنـا بصـدد أنواع الأشيـاء جشطلتـات لها على الأقل هذه الأبعـاد الطبيعية، إذ يحدد كل بعـد خصائصَ تفاعليـة. كما توجد أبعـاد تتصل بمَقْوَلَتنا لـلأحداث والأنشطة وباقي التجارب، ونعتبرها مجموعات مُبَنْيَنَة. وقد رأينا، في تحليلنا لكل من *الحوار والجدال*، أن هـذه الأبعـاد الطبيعيـة تخص *الأطراف*، *والمقاطع*، *والأطوار*، *والتوالي الخطي*، *والغرض*، *والسببية*.

إن المَقْوَلـة طريقة طبيعية لتحـديد نوع من الأشيـاء أو التجـارب، وذلك من خـلال تسليط الضوء على بعض الخصائص والتقليل من أهمية خصـائص أخرى أو إخفائها. وكل بعد من هـذه الأبعاد يعطي الخصـائص التي تم تسليط الضوء عليهـا. وتسليط الضوء على بعض الخصـائص يقتضي بـالضرورة التقليل من أهمية عنـاصر أخرى أو إخفـاءها. هـذا ما يحصل كلما قمنـا بمقْـوَلـة مـا. والتركيز على مجمـوعـة من الخصـائص يصرف انتبـاهنـا عن مجموعات أخـرى. إننا، حين نصف الأشياء خلال حيـاتنا اليومية، نستعمـل مقولات تبئر بعض الخصائص الواردة التي توافق نوايـانا. فكل وصف من الأوصاف أسفله يسلط الضوء ويقلل من الأهمية ويخفي. لننظر إلى هذه الأمثلة:

- (1) دَعوتُ شقراء شبقة إلى حفل العشاء
- (2) دَعوتُ عازفة كمان مرموقة إلى حفل العشاء

أهمية الصدق في حياتنا اليومية

إننا نؤسس أعمالنا، سواء الفيزيائية أو الاجتماعية، على ما نعتبره صادقا. وبصفة عامة، فالصدق مهم عندنا لأن له قيمة حيوية إذ يسمح لنا بأن ننشط في عالمنا ونشتغل فيه. وجل الأشياء الصادقة التي نراكمها، سواء تلك المتعلقة بأجسادنا أو بالناس الذين نتفاعل معهم أو بمحيطنا الفيزيائي المباشر أو بمحيطنا الاجتماعي، تلعب دورا في اشتغالنا اليومي. وهي بدهية بشكل كبير، إلى درجة أننا نحتاج إلى بذل مجهود كبير للوعي بها. ومن هذه الأشياء، مثلا، معرفة مكان وجود باب منزلنا، أو معرفة ما يؤكل وما لا يؤكل، أو معرفة مكان أقرب محطة للبنزين، أو معرفة الدكاكين التي تبيع المواد التي نحتاج إليها، أو معرفة أصدقائنا ومعرفة ما يُغضبهم، أو معرفة مسؤولياتنا. فهذه العينة تعطينا فكرة عن طبيعة ما هو صادق وشساعة حيزه، والدور الذي يلعبه في حياتنا اليومية.

دور الإسقاط في الصدق

من أجل الوصول إلى ما هو صادق واستعماله، نحتاج إلى فهم لعالمنا يكون كافيا لاحتياجاتنا. وكما رأينا سابقا، فإن جزءا من هذا الفهم يوضع عن طريق مقولات تنبثق من تجربتنا المباشرة: المقولات الاتجاهية، وتصوراتٍ من قبيل الشيء والمادة والغرض والسبب، ... إلخ. وقد رأينا كذلك أنه حين نخرج من مجال المقولات المنبثقة من التجربة الفيزيائية، فإننا نُسقِط أحيانا هذه المقولات على مظاهر من العالم الفيزيائي لنا معها تجربة أقل مباشرةً. فنحن نُسقِط، مثلا، اتجاها أماميا خلفيا، في سياقات معينة، على أشياء ليس لها داخليا أمامٌ وخلفٌ. فإذا وُجد حجر متوسط الحجم في مجال رؤيتنا، ووُجدت كرة بيننا وبين الحجر، ولتكن بعيدة عنه بمقدار قدم، فإننا سندرك الكرة باعتبارها توجد *أمام* الحجر. ويقيم متكلمو لغة الهاوسا (Hausa) إسقاطا مخالفا لإسقاطنا. فهُم يدركون الكرة ***خلف*** الحجر. وبهذا، فالاتجاه أمام - خلف ليس خاصية ملازمة لأشياء مثل الحجر. إنه، بالأحرى، اتجاه نسقطه عليه. والكيفية التي ننجز بها ذلك تختلف من ثقافة إلى أخرى. كما أنه باعتبار أغراضنا يمكن أن نتصور فجوة في غابة باعتبارها وعاء، فنتصور أنفسنا في الفجوة أو خارجها. فخاصية الوعائية ليست خاصية تلازم هذا المكان في الغابة حيث لا توجد أشجار. إنها خاصية نسقطها عليه، وترتبط بالطريقة التي «نتعامل» بها مع هذا المكان. وباعتبار بعض إدراكاتنا وأغراضنا الأخرى، يمكن أن ننظر إلى ما تبقى من الغابة - إذا استثنينا منها الفجوة - باعتباره وعاء آخر، ونرى أنفسنا في الغابة. ويمكن أن نقوم بالإدراكين في نفس الوقت فنقول إننا **نخرج من الغابة وندخل إلى الفجوة**.

نفس الشيء يقال عن الاتجاه تحت - فوق. فهو ينبثق من تجربتنا المباشرة مع سطح الأرض والسطوح وكل المساحات الأفقية. فإذا كنا واقفين فإننا نكون على سطح الأرض أو على سطح [بيت]، ... إلخ، وأجسادنا منتصبة. وهذا الاتجاه نسقطه على الحيطان فنتصور

ذبابة باعتبارها *على* الحائط إذا كـانـت أرجلهـا تلتصق بهذا الأخير. ونفس الشيء يصح بخصوص ذبابة توجد على السقف: إننا ندركها *على* السقف وليس *تحته*.

إننا نـدرك، كما رأينا، مختلف أشياء العـالم الطبيعي باعتبـارها كيانـات نُسقِط عليها في الغالب حدودا ومساحات لا توجد طبيعيا وبهذا نتصـور ضبقة من الضباب باعتبارها كيانا يمكن أن يكـون فوق الكوة (التي نعـدها أيضا كيـانا) و*أمام* الجبل (بحيث نعتبرهـا كيانـا متوجهـا بحسب المحور أمـام - خلف). وبمقتضى هـذه الإسقاطـات قد تكون جملـة من قبيل: «الضباب أمـام الجبل» جملة صـادقة. وحسب مـا هو نموذجي في حيـاتنا اليـومية، فالصدق نسبي بالنظر إلى فهمنا للظواهر. ويرتبط صدق الجملة المعنية بالطريقة التي نفهم بها العالم حين نُسقط عليه اتجاها معينا وبنية من الكيانات

دور المقْوَلة في الصدق

لكي نفهم العالم ونشتغل فيه ونفعل، علينا أن نُمَقْوِلَ الأشياء والتجارب التي نصادفها بطريقة تجعلها ذوات معنى لدينـا. بعض هذه المقولات تنبثق بشكل مباشر من تجربتنا ومن هيئة أجسادنا ومن طبيعة تفاعـلاتنا مع باقي البشر ومع محيطنا الفيزيائي والاجتماعي. وكما رأينا في مناقشتنـا لمثال المسدس المزيف في الفصل العـاشر، هناك أبعـاد طبيعيـة تتحكم في مَقْولَتنا للأشياء: بعد *إدراكي* أساسه تصـور الشيء بواسطة جهازنـا الحسي، وبعد *وظيفي* أساسه تصورنا لوظائف الشيء، وبعد *غرضي* أساسه استخدامـاتنا الممكنة للشيء في وضع معين. وبهذا تكـون مقولاتنـا بصـدد أنواع الأشيـاء جشطلتـات لها على الأقل هذه الأبعـاد الطبيعية، إذ يحدد كل بعـد خصائصَ تفاعليـة. كما توجد أبعـاد تتصل بمَقْولَتنا لـلأحداث والأنشطة وباقي التجارب، ونعتبرها مجموعات مُبَنْيَنَة. وقد رأينا، في تحليلنا لكل من *الحوار والجدال*، أن هـذه الأبعـاد الطبيعيـة تخص *الأطراف*. و*المقاطع*، و*الأطوار*، و*التوالي الخطي*، و*الغرض*، و*السببية*.

إن المَقْوَلـة طريقة طبيعية لتحـديد *نوع* من الأشيـاء أو التجـارب، وذلك من خـلال تسليط الضوء على بعض الخصائص والتقليل من أهمية خصـائص أخرى أو إخفائها. وكل بعد من هـذه الأبعاد يعطي الخصـائص التي تم تسليط الضوء عليهـا. وتسليط الضوء على بعض الخصائص يقتضي بـالضرورة التقليل من أهمية عنـاصر أخرى أو إخفـاءها. هـذا ما يحصل كلما قمنـا بمقْولـة مـا. والتركيز على مجموعـة من الخصـائص يصرف انتبـاهنـا عن مجموعات أخـرى. إننا، حين نصف الأشياء خلال حيـاتنا اليومية، نستعمـل مقولات تبئر بعض الخصائص الواردة التي توافق نوايـانا. فكل وصف من الأوصاف أسفله يسلط الضوء ويقلل من الأهمية ويخفي. لننظر إلى هذه الأمثلة:

- (1) دَعوتُ شقراء شبقة إلى حفل العشاء
- (2) دَعوتُ عازفة كمان مرموقة إلى حفل العشاء
- (3) دَعوتُ ماركسية إلى حفل العشاء

ما معنى أن نفهم جملة بسيطة باعتبارها صادقة؟

لكي نفهم جملة ما باعتبارها صادقة، علينا أن نفهمها أولاً. لننظر إلى جزء مما يتطلبه فهم جمل بسيطة من قبيل: «الضباب أمام الجبل»، و«أطلق جون النار على هاري من المسدس». إننا عادة ما نتلفظ بجمل مثل هاتين باعتبارها جزءا من خطاب معين. وفهمها في سياق خطابي ما يرتبط بتعقيدات لا يجب إغفالها. إلا أننا سنغفلها هنا. ورغم إغفالنا لتعقيدات السياق الخطابي، فإنه مع ذلك يظل فهم هذا النوع من الجمل معقدا جدا. ولننظر إلى ما يجب أن يحصل كي نفهم جملة «الضباب أمام الجبل» باعتبارها صادقة. كما رأينا أعلاه، علينا أن ننظر إلى «الضباب» و«الجبل» باعتبارهما كيانين (عبر عملية إسقاط)، وعلينا أن نُسقِط الاتجاه أمام - خلف على الجبل، وهو اتجاه يتنوع من ثقافة إلى أخرى، ويرتبط بالإنسان الملاحِظ وليس خاصية تلازم الجبل. علينا، بعد ذلك، أن نحدد، تبعا لأغراضنا، هل ما نراه «ضبابا» قريب منا، أو بالعكس قريب مما نشير إليه باعتباره «جبلا». علينا أن نحدد كذلك هل «الضباب» يوجد بجانب الجبل أم فوقه. لدينا هنا ثلاثة إسقاطات على العالم الخارجي، تنضاف إليها محددات ذريعية (pragmatic) ترتبط بإدراكاتنا وبأغراضنا: علينا، مثلا، أن نقرر هل العلاقة «*أمام*» علاقة أكثر ملاءمة من العلاقات الأخرى الممكنة. وبهذا، فتأويل جملة «الضباب أمام الجبل» باعتبارها صادقة لا يرتبط فقط بانتقاء كيانين موجودين قبلاً [لدينا] ومحدّدين بشكل جيد في العالم (الضباب والجبل) من جهة، أو بمعرفة هل توجد علاقة ملازمة (مستقلة عن كل إنسان ملاحِظ) بين هذين الكيانين المحددين بشكل جيد، من جهة أخرى. إن الأمر خلاف ذلك؛ إنه يرتبط بالإسقاط والحكم البشري انطلاقا من أغراض معينة.

أما جملة «أطلق جون النار على هاري من المسدس» فتطرح مشاكل أخرى. أولا، هناك أمور واضحة تتعلق بكشف الشخصين اللذين يدعيان جون *وهاري*، وتعيين الشيء الذي يطابق مقولة *المسدس*، وفهم ما يعنيه حمل مسدس على أحدهم وإطلاق النار عليه. إلا أننا لا نفهم جملا كهاته في الفراغ. إننا نفهمها بالنظر إلى تجارب أوسع، مثل تجربة قتل شخص ما رميا بالرصاص، أو إفزاع أحدهم، أو إنجاز مشهد في السيرك يشير إلى ذلك، أو تصنع أحد هذه الأنشطة في مسرحية أو في فيلم أو في مزاح. وإطلاق النار بالمسدس قد يطابق كل حالة من هذه الحالات، والسياق هو الذي يحدد الحالة المخصوصة. ورغم ذلك، فإنه لا توجد إلا طبقة محصورة من مقُولات التجربة التي يطابقها إطلاق النار من المسدس. والتجربة النموذجية من هاته التجارب هي رمي أحدهم بالرصاص. فهناك طرق نموذجية عديدة لتخويف أحدهم أو إنجاز مشهد في السيرك، إلا أنه لا توجد إلا طريقة عادية واحدة لرمي أحدهم بالرصاص.

وبهذا، يمكن أن ننظر إلى رمي أحدهم بالرصاص باعتباره جشطلتا تجريبيا له الأبعاد التالية تقريبا:

الأطراف: جون (الرامي)، وهاري (الهدف)، والمسدس (الأداة)، والرصاصة (أداة وقذيفة).

المقاطع: تصويب المسدس نحو الهدف،
إطلاق النار،
الرصاصة تصيب الهدف،
يجُرح الهدف.

الأطوار: *شرط ضروري:* يشحن الرامي المسدس،
البداية: يصوب الرامي المسدس نحو الهدف،
الوسط: يطلق الرامي النار،
النهاية: تصيب الرصاصة الهدف،
الطور الأخير: يجُرح الهدف.

العلاقات السببية: البداية والوسط يخولان النهاية،
والوسط والنهاية يسببان الطور الأخير.

الغرض: *الغاية:* الطور الأخير.
الخطة: إرضاء الشرط الضروري، ثم إنجاز البداية، ثم الوسط.

تستدعي الجملة «أطلق جون النار على هاري من المسدس»، نموذجيا، جشطلت **رمي أحدهم بالرصاص**. وقد تستدعي، في سياقات أخرى، جشطلتات تجريبية أخرى لها نفس القدر من التعقيد (مثل **إنجاز مشهد في السيرك**). ولا يمكن أن تُفهَم الجملة تقديرا دون استدعاء جشطلت أوسع يخصص طبقة الأبعاد الطبيعية العادية (مثل: الغرض، والأطوار، . . . إلخ). ومهما يكن الجشطلت المستدعى، فإننا نفهم أكثر بكثير مما يعطى مباشرة في الجملة. فكل جشطلت من هذه الجشطلتات يزودنا بخلفية لفهم الجملة بطريقة تقيم معنى عندنا، أي بفضل مقُولة التجربة في ثقافتنا.

وبالإضافة إلى مقولة التجربة التي تستدعيها الجملة، فإننا نُمَقْوِل **إطلاق النار** و**مسدس** كذلك انطلاقا من طرازات غنية من حيث معلوماتها. وما دام السياق لا يضطرنا إلى أن نفعل شيئا مغايرا، فإننا نفهم أن المسدس مسدس طرازي له الخصائص الطرازية المعتادة: الخصائص *الإدراكية*، والخصائص *الحركية*، والخصائص *الوظيفية*، والخصائص *الغرضية*. وما دام السياق لا يخصص [الأشياء] بشكل مغاير، فإن الصورة المستدعاة ليست صورة مسدس مظلة أو مسدس حقيبة. فالبرنامج الحركي المستخدم في إطلاق النار يتكون من الإمساك بالمسدس أفقيا والضغط على الزناد. وهذا برنامج حركي عادي يوافق، في نفس الوقت، **المسدس** و**إطلاق النار**. وما دام السياق غير مزور فإننا لا نتصور هنا وسيلة من وسائل روب غولبيرغ Rube Goldberg، حيث يُربط زناد المسدس بحبل إلى مزلاج الباب.

إننا نفهم الجملة من خلال مطابقة الجشطلتات لها، سواء كانت الجشطلتات «ضيقة» (مثل: مسدس، أو إطلاق النار، أو التصويب، . . . إلخ) أو «واسعة» (مثل: رمي أحدهم بالرصاص، أو إنجاز مشهد في السيرك). إن مشاكل الصدق تُطرح بالنظر إلى هذا النوع من الفهم وحده. فمشكل الصدق يكون واضح المعالم حين يكون فهمنا للجملة بهذه الوسائل موافقا بشكل دقيق لفهمنا للأحداث التي وقعت. ولكن، ماذا يحصل في حالة التنافر بين فهمنا العادي للجملة وفهمنا للأحداث؟ لنفرض، مثلا، أن جون نصب المسدس بطريقة بارعة (ولتكن طريقة روب غولدبيرغ)، بحيث صوّب المسدس نحو المكان الذي سيكون فيه هاري في وقت معين، وربط زناده، بعد ذلك، بحبل. لنتخيل حالتين:

أ. حَكَّ جون لأذنه يسبب إطلاق النار على هاري

ب. فتحُ هاري البابَ يسبب إطلاق النار على هاري

في المثال (أ)، حركة جون هي السبب في إطلاق النار. أما في (ب) فحركة هاري هي السبب في ذلك. وهذا يجعل (أ) أقرب من (ب) إلى فهمنا العادي للجملة. ويمكن كذلك، إذا كنا في وضع اضطراري، أن نعترف - بخصوص (أ) - أن إثبات إطلاق جون الرصاص على هاري إثبات صادق. أما (ب) فيبتعد كثيرا عن فهمنا الطرازي لإطلاق النار، إلى درجة أننا قد نرفض صدق «أطلق جون الرصاص على هاري من المسدس» على هذا التأويل. كما أننا لن نقول إن الجملة كاذبة بشكل قاطع [على التأويل (ب)]، بما أن جون كان المسؤول الأساسي عن إطلاق النار. وسنحتاج إلى أن نفسر هذه الأشياء عوض أن نجيب بالقول إن الجملة «صادقة» أو «كاذبة». هذا ما يحصل عادة حين لا يوافق فهمُنا للأحداث فهمَنا الطبيعي للجملة بسبب بعض الانزياح عن الطراز.

ويمكن أن نلخص نتائج ما سبق على الشكل التالي:

1. إن فهم جملة ما باعتبارها صادقة في وضع معين يقتضي أن نفهم الجملة ونفهم ذلك الوضع.

2. نفهم جملة ما باعتبارها صادقة حين يوافق فهمُ الجملة فهمَنا للوضع بما يكفي من الدقة.

3. قد يتطلب الحصول على فهم للوضع موافقٍ لجملة ما:

أ. أن نُسقِط اتجاها معينا على شيء ليس له اتجاه يلازمه (كأن ننظر إلى الجبل باعتبار أن له أماما)؛

ب. إسقاط بنية كيان ما على شيء ليست له حدود واضحة (كالضباب والجبل)؛

ج. التزود بخلفية يكون للجملة بمقتضاها معنى، أي أن نستعين بجشطلت تجريبي (مثل: رمي أحدهم بالرصاص، أو إنجاز مشهد في السيرك)، وأن نفهم الوضع انطلاقا من هذا الجشطلت؛

د. أن يكون لنا فهم «عادي» للجملة انطلاقا من مقولاتها (مثل مسدس، وإطلاق النار، . . .) كما يحددها الطراز، ونحاول الحصول على فهم للوضع انطلاقا من المقُولات نفسها.

ما معنى أن نفهم الاستعارة الوضعية باعتبارها صادقة؟

فحصنا سابقا ما يتطلبه فهم جملة بسيطة (بدون استعارة) باعتبارها صادقة. ونود الآن أن نفترض أن إضافة استعارات وضعية لا يغير من الأمر شيئا. إننا نفهمها باعتبارها صادقة اعتمادا على نفس الطريقة بالأساس. لننظر إلى الجملة التالية: «ارتفع التضخم». يستلزم فهم الوضع الذي يمكن أن تكون فيه هذه الجملة صادقة إسقاطين اثنين: علينا أن نحدد التضخم وننظر إليه باعتباره مادة يمكن تكميمها فنقول عنها، بالتالي، إنها تتزايد. وعلينا، كذلك، أن نُسقِط الاتجاه فوق على هذا التزايد [فنقول عنه إنه يرتفع]. هذان الإسقاطان عبارة عن استعارتين وضعيتين: التضخم مادة (وهي استعارة أنطولوجية)، والأكثر فوق (وهي استعارة اتجاهية). ويوجد فرق أساسي بين الإسقاطين، في هذه الحالة، وبين الإسقاط في الحالة التي تعرضنا إليها سابقا، وهي «الضباب أمام الجبل». فبالنسبة *للضباب*، نفهم شيئا فيزيائيا (الضباب) من خلال نموذج شيء فيزيائي أيضا، ولكن له حدودا واضحة، أي أنه شيء فيزيائي ذو حدود. أما بالنسبة *لأمام* فنفهم الاتجاه الفيزيائي للجبل من خلال اتجاه فيزيائي آخر، وهو اتجاه أجسادنا. ففي هذين التصورين نفهم شيئا فيزيائيا من خلال شيء آخر فيزيائي أيضا وبعبارة أخرى، فنحن نفهم شيئا من خلال شيء آخر من *نفس النوع*. أما في الاستعارات الوضعية فنفهم شيئا من خلال شيء آخر من *نوع مختلف*. ففي «ارتفع التضخم»، مثلا، نفهم *التضخم* (الذي يعد مجردا) من خلال مادة فيزيائية، ونفهم ارتفاع التضخم (الذي يعد مجردا أيضا) من خلال اتجاه فيزيائي (فوق). فالفرق الوحيد بين الحالتين أن إسقاطنا يتطلب نفس النوع من الأشياء تارة، ويتطلب نوعين من الأشياء تارة أخرى.

حين نفهم جملة من قبيل «ارتفع التضخم» باعتبارها صادقة، نقوم بما يلي:-

ـ 1 . نفهم *الوضع* من خلال الإسقاط الاستعاري، وذلك بطريقتين:

أ. ندرك التضخم باعتباره مادة (عبر استعارة أنطولوجية)،

ب. ندرك الأكثر باعتباره متجها إلى فوق (عبر استعارة اتجاهية).

ـ 2 نفهم *الجملة* من خلال هاتين الاستعارتين نفسهما.

ـ 3 . وهذا يسمح بأن نوافق بين فهمنا للجملة وفهمنا للوضع.

وبهذا، فإن فهم الصدق من خلال الإسقاط الاستعاري لا يختلف، من حيث الجوهر، عن فهم الصدق من خلال الإسقاط غير الاستعاري. والفرق بين الفهمين أن الإسقاط الاستعاري يتطلب فهم شيء من نوع معين من خلال شيء من نوع آخر. ومعنى ذلك أن الإسقاط الاستعاري يقتضي نوعين مختلفين من الأشياء، في حين أن الإسقاط غير الاستعاري يقتضي نوعا واحدا من الأشياء فقط.

وينطبق الشيء نفسه على الاستعارات البنيوية. لننظر إلى الجملة التالية: «دافع جون عن موقفه في الجدال». إن تجربة الجدال، كما رأينا سابقا، يُبَنْيِنُها جزئيا جشطلت الحرب،

وذلك بموجب استعارة الجدال حرب. وبما أن الجدال نوعُ تجربةٍ استعاريٌ مبنيٌ من خلال الاستعارة الوضعية الجدال حرب، فإنه ينتُج عن ذلك فهمُ وضع الجدال من خلال هذه الاستعارة. وفهم وضع الجدال يتطلب أن ندركه بواسطة كل من جشطلت الحرب وجشطلت الجدال في نفس الآن. وإذا كان فهمُنا للوضع يؤدي إلى موافقة جزء من الجدال لعملية دفاعية ناجحة في جشطلت الحرب («دافَع» في الجملة)، فإن فهمنا للجملة سيوافق في هذه الحالة فهمنا للوضع، وسنَعتبر الجملة صادقة.

إنه، سواء في الحالات الاستعارية أو الحالات غير الاستعارية، يرتبط فهمنا للصدق بفهمنا للأوضاع. وبما أن الاستعارة تصورية من حيث طبيعتها، وليست ظاهرة لغوية صرف، فإنه من الطبيعي أن نبني تصوراتنا للأوضاع بشكل استعاري. ولأننا نبني تصوراتنا *للأوضاع* بشكل استعاري، فإنه من الممكن أن نعتبر الجمل التي تتضمن استعارات موافِقة لتلك الأوضاع كما نتصورها.

كيف نفهم الاستعارات الجديدة باعتبارها صادقة؟

رأينا، قبل قليل، أن الاستعارات الوضعية توافق ما هو صادق بنفس الطريقة التي توافقه بها الجمل غير الاستعارية. وفي الحالتين يقتضي فهم جملة ما باعتبارها صادقة في وضع معين أن يوافق فهمُنا للجملة فهمَنا للوضع. وبما أن فهمنا للوضع قد يتم بواسطة استعارة وضعية، فإن الجمل ذات الاستعارات الوضعية لا تطرح أي مشكل بإزاء تصورنا للصدق. وهذا يشير إلى أن نفس التحليل قد ينطبق على الاستعارات الجديدة أو غير الوضعية.

ومن أجل التحقق من ذلك، لننظر إلى استعارتين مترابطتين إحداهما وضعية والأخرى غير وضعية:

- (12) «إحْكَ لي قصة حياتك»(وضعية).
- (13) «الحياة كذبة يرويها معتوه، مليئة بالضجيج والهيجان، ولا تعني شيئا»(غير وضعية).

لنبدأ بالجملة الأولى. تتضمن هذه الجملة الاستعارة الوضعية التالية: **الحياة قصة**. هذه الاستعارة متجذرة بعمق في ثقافتنا. إنها تفترض أن حياة كل واحد منا مبنيَّة مثل قصة، وكل تراجم الحياة والسِّيَرَ الذاتية ترتكز على هذه المسلمة. هَبْ أن أحدهم طلب منك أن تحكي له قصة حياتك. ماذا ستفعل؟ ستبني حكيا منسجما يبدأ من حياتك المبكرة ويتقدم في اتجاه الحاضر. نموذجيا، سيكون للحكي السمات التالية:

- الأطراف: أنت نفسُك، والناس الذين «لعبوا دورا» في حياتك.
- المقاطع: الأماكن، والوقائع الدالة، والمشاهد، ثم الحالات الدالة (بما فيها الحالة الحاضرة وبعض الحالات الأصلية).
- الأطوار: شرط ضروري: إطار البداية.

البداية: الحالة الأصلية، ثم المشاهد التي تقع في المرحلة التي تعقبها.
الوسط: المشاهد المتنوعة، والحالات الدالة وِفق تتالٍ زمني مرتب.
النهاية: الحالة الحاضرة.

- **التعاقب الخطي**: الترابطات الزمنية و/ أو السببية المتنوعة بين المشاهد أو الحالات المتالية.
- **السببية**: العلاقات السببية المتنوعة بين المشاهد والحالات.
- **الغرض**: *الغاية*: حالة ننشدها (قد تتموقع في المستقبل).
الخطة: سلسلة من المشاهد تضع لها مخططا، وترتبط سببيا بالغاية؛
أو: حدث أو مجموعة من الأحداث التي تجعلك تصل إلى حالة دالة، إذ تتمكن من بلوغ الغاية عبر مجموعات من الأطوار الطبيعية.

هـذه صيغة مبسطة جدا لجشطلت تجريبي نموذجي يمنح انسجاما للحياة بالقبض عليها باعتبارها **قصة**. وقد أغفلنا عددا من التعقيدات من قبيل أن كل طور يمكن أن يكون نفسُه عبارة عن قصة فَرعية منسجمة لها بنية مماثلة. إلا أنه ليس من الضروري أن تتضمن كل قصص الحياة كل هذه الأبعاد البنيوية.

ونشير إلى أن فهم الحياة من خلال قصة منسجمة يقتضي أن نسلط الضوء على بعض **الأطراف والمقاطع** (مراحل وأنشطة)، ونغفل البعض الآخر أو نخفيه. وهذا يقتضي أن ننظر إلى حياتنا من خلال أطوار معينة، **وترابطات سببية** بين المقاطع، وخطط تهدف إلى *غاية* أو مجموعة من الغايات. وعموما، فإن قصة الحياة تفرض بنية منسجمة على عناصر من الحياة يتم تسليط الضوء عليها.

إنك، حين تسرد قصة كهاته وتنهيها بقولك: «هذه هي قصة حياتي»، فأنت ستعتبر نفسك قلت الصدق (بكل مشروعية) إذا كنتَ تعتقد أن الأطراف المسلط عليها الضوء والأحداث هي، بالفعل، تلك الأهم، وأدركتَها باعتبارها تندمج مع بعضها في انسجام بالطريقة التي قدمتَها بها بنيةُ السرد. وبهذا يكون مشكل الصدق هو: هل الانسجام الذي قدمه السرد يضارع الانسجام الذي تراه في حياتك؟ فالانسجام الذي تراه في حياتك [وتدركه] هو الذي يعطي ذلك السرد معنى وقيمة.

دعنا الآن نبحث عما يتطلبه فهم الاستعارة غير الوضعية التالية: «الحياة كذبة يرويها معتوه، مليئة بالضجيج والهيجان، ولا تعني شيئا» باعتبارها صادقة. تستحضر هذه الاستعارة غير الوضعية الاستعارة الوضعية **الحياة قصة**. ومن أبرز الوقائع في القصص التي يرويها معتوهون أنها غير منسجمة. **فهي** تبدأ، كما تبدأ الحكاية المنسجمة، بالأطوار والترابطات السببية والأغراض الشاملة، إلا أنها تبرح هذا النظام فجأة، فيستحيل أن نجد لها انسجاما سواء في عمومها أو في تتبعنا لتفاصيلها. إن قصة حياة من هذا النوع لن تكوّن بنية منسجمة بالنسبة لنا، وبذلك لن تشكل وسيلة لإعطاء معنى أو قيمة معينة لحياتنا. وبهذا، لن تجد وسيلة إلى تسليط الضوء على بعض أحداث حياتك باعتبارها مهمة، أي

باعتبارها تخدم غرضا ما، أو باعتبارها تملك ترابطا سببيا مع أحداث دالة أخرى، أو باعتبارها توافق أطوارا، . . . إلخ.

ففي حياة تُتصور كذبة، ستمثل المشاهد «المليئة بالضجيج والهيجان» أطوارا فيها خبل وكفاح مضن، وربما يكون فيها العنف أيضا. وفي قصة حياة نموذجية، يُنظَر إلى مثل هذه الأحداث باعتبارها خطيرة، فقد تكون إما مؤذية أو تنفيسية أو كارثية، وربما مزاجية. إلا أن نعتَنا لهذه القصة بكونها «لا تعني شيئا» ينفيَ هاته الإمكانات، ويقترح، عوض ذلك، ألا يُنظَر إلى المقاطع من خلال الترابطات السببية والأغراض أو الأطوار المحدَّدة داخل كلٍّ منسجم.

إذا نظرنا، فعلا، إلى حياتنا وحياة الآخرين بهذه الطريقة فإننا نكون قد اعتبرنا هذه الاستعارة صادقة. إن ما يُمكِّن عددا من الناس من اعتبار هذه الاستعارة صادقة أننا ندرك تجارب حياتنا عادة من خلال استعارة **الحياة قصة**. إننا نبحث باستمرار عن المعنى في حياتنا من خلال نشداننا انسجامات تطابق بعض القصص المنسجمة في الحياة، ونحكي باستمرار قصصا من خلالها. وبما أن ظروف حياتنا تتبدل، فإننا نراجع باستمرار قصص حياتنا وننشد انسجاما جديدا.

إن هذه الاستعارة قد توافق فعلا حياة أناس تتبدل ظروف حياتهم بشكل جذري وسريع ومفاجئ، إلى درجة أنه يستحيل أن نسحب عليها أي قصة حياة منسجمة.

رأينا أن الاستعارات الجديدة غير الوضعية تدخل في تفسيرنا العام للصدق. إلا أنه يجب أن ننبه مرة أخرى أن مشاكل الصدق من المشاكل الأقل ورودا وأهمية في دراسة الاستعارة. إن الأهمية الحقيقية لاستعارة **الحياة كذبة يرويها معتوه . . .** ؛ أنها، إذ تجبرنا على محاولة فهم كيف تكون صادقة، تتيح فهما جديدا لحياتنا. إنها تسلط الضوء على واقعة مهمة، وهي أننا «نشتغل» [في هذا العالم ونفعل فيه] ونحن مهووسون باستمرار بمدى قدرتنا على إعطاء حياتنا قصة منسجمة. إلا أنه غالبا ما نخيب في حالة إذا ما كانت تجاربنا الأبرز، أي تلك «المليئة بالضجيج والهيجان»، لا تشكل كلاًّ منسجما، وبالتالي «لن تعني شيئا». عادة، حين نؤلف قصة حياتنا، نترك جانبا عددا من التجارب المهمة، وذلك قصد خلق انسجام معين. وتذكرنا استعارة **الحياة كذبة يرويها معتوه . . .** ، أنه توجد استعارة أخرى – وهي **الحياة قصة** – تفيد أننا نعيش بتوقع مستمر، وهو إدخال أطوار مهمة من الحياة في كلٍّ منسجم؛ وهذا علامة على الصحة الذهنية. وتأثير هذه الاستعارة أنها تستدعي هذا التوقع، وتشير أنه في الحقيقة معرَّض للإحباط.

ملخص: فهم الوضع

اقترحنا، في هذا الفصل، عناصر من أجل رصد تجريبي للصدق يرتكز على الفهم. وما هو مركزي في هذه النظرية هو تحليلنا لما يعنيه فهم وضع ما. وفي ما يلي ملخص لما قلناه في هذا الشأن:

الفهم المباشر المتصل

هناك عدة أشياء نفهمها مباشرة من خلال علاقتنا المباشرة والمتصلة بمحيطنا المباشر باعتبارنا أجزاء غير منفصلة عنه.

بنية *الكيان*: إننا ندرك ذواتنا باعتبارنا كيانات لها حدود، ونقوم بالتجربة المباشرة لبعض الأشياء التي نتصل بها بشكل مباشر باعتبارها ذات حدود أيضا.

بنية *الاتجاه*: إننا ندرك ذواتنا وباقي الأشياء الأخرى باعتبارها تملك اتجاهات معينة بالنظر إلى محيطنا (فوق - تحت، داخل - خارج، أمام - وراء، . . إلخ).

أبعاد التجربة: تتحكم بعض أبعاد التجربة، التي «نشتغل» بواسطتها في أغلب أوقاتنا، في تفاعلاتنا مع الآخرين ومع محيطنا الفيزيائي والثقافي المباشر. فنحن نُمَقْوِلُ الكيانات التي نلاقيها والتجارب المباشرة التي نقوم بها من خلال هذه المقولات.

الجشطلتات التجريبية: تعد مَقولتا الشيء والمادة جشطلتين لهما، على الأقل، الأبعاد التالية: البعد *الإدراكي*، وبعد *النشاط الحركي*، وبعد *الجزء/الكل*، والبعد *الوظيفي*، والبعد *الغرضي*. ومقولات الأعمال والأنشطة والأحداث والتجارب عبارة عن جشطلتات لها، على الأقل، الأبعاد التالية: *الأطراف*، *والمقاطع*، *والأنشطة الحركية*، *والإدراكات*، *والأطوار*، *والتعاقب الخطي*، *والعلاقات السببية*، *والغرض* (الغايات/ الخطط بالنسبة للأنشطة، والحالات النهائية بالنسبة للأحداث). فهذه أبعاد طبيعية في تجربتنا المباشرة. ولا يلعب كل بعد منها دورا في كل نوع من أنواع التجربة المباشرة، إلا أنه في العموم يلعب أغلبها هذا الدور أو ذاك.

الخلفية: يكمن دور الجشطلت التجريبي عادة في كونه يشكل خلفية لفهم تجربة ما. فالشخص (أو الشيء) قد يُفهَم باعتباره *طرفا* داخل جشطلت؛ وقد يُفهَم نشاط ما باعتباره *مقطعا* داخل جشطلت. وقد يستحضر الجشطلتُ جشطلتا آخر يستحضر بدوره جشطلتات أخرى، وهكذا. ومن ثمة ضرورة غنى بنية الخلفية كي يتم الفهم الكامل لأي وضع مهما كان. وفي أغلب الحالات لا ننتبه إلى هذه الخلفية بما أنها مستلزَمة في جل أنشطتنا وتجاربنا اليومية.

تسليط الضوء: أن نفهم أن وضعا ما ينتمي إلى جشطلت تجريبي يفترض أننا ننتقي عناصر من هذا الوضع توافق أبعاد الجشطلت. من ذلك انتقاء مظاهر التجربة باعتبارها أطرافا أو مقاطع أو أطوارا . . . إلخ. وهذا ما يسلط الضوء على مظاهر الوضع هاته، ويقلل من شأن مظاهر الوضع التي لا توافق الجشطلت، أو يخفيها.

الخصائص التفاعلية: إن خصائص الشيء أو الحدث الذي نباشرَ تجربته ناتجة عن تفاعلاتنا معه في محيطنا. ومعنى ذلك أن هذه الخصائص ليست خصائص ملازمة للشيء أو التجربة، بل هي خصائص *تفاعلية*.

الطرازات: كل مقولة مبنيَـة من خـلال طراز. ويُعتبر الشيء عضـوا في المقولـة بمقتضى التشابهات الأسرية التي يشترك فيها مع الطراز.

الفهم غير المباشر

وصفنا أعلاه كيفيـة حصول فهم مظـاهـر الوضع التـي تكون محدّدة بـوضـوح داخل تجربتنا المباشرة. إلا أننا رأينا، عبر فصول هذا الكتاب، أن عددا كبيرا من مظاهر تجربتنا لا يمكن أن يُحَدّ بوضوح انطلاقا من الأبعـاد التي تنبثق بشكل طبيعي من تجربتنا. وهذا حال العواطف الإنسانية، والتصورات المجردة، والنشاط الذهني، والزمن، والعمل، والمؤسسات البشرية، والممارسات الاجتماعية، . . . إلخ، وحتى الأشياء الفيزيائية التي لا تملك حدودا أو اتجاهات تلازمها. ورغم أن هذه الأشياء قد تُجرَّب [أو تُعانى] بشكل مباشر، فإننا لا نقبض على أي منها [ونفهمه] من خـلال ذاته. وعلينا، عـوض ذلك، أن نفهم هذه الأشياء من خلال كيانات وتجارب أخرى، أي من خلال *أنواع* أخرى من الكيانات والتجارب.

إن فهم الوضع الـذي نرى فيه الضباب أمـام الجبل يتطلب منا، كما رأينا سالفا، أن ندرك الضبـاب والجبل باعتبارهما كيانين. كما يتطلب منـا أن نُسقِط الاتجاه أمام - وراء على الجبل. وهـذا النوع من الإسقـاطات يتم بنـاؤه في كل إدراك نقـوم به. إننـا ندرك الضبـاب والجبل باعتبارهما كيـانين، وندرك أن للجبل «أماماً»، وأن الضباب «يوجـد في هذا الأمام». إن الاتجاه أمام - وراء الذي نسنده إلى الجبل خاصية تفاعلية واضحة وضوح اعتبار الضباب والجبل كيانين. ونحن هنا بصدد فهم غير مباشر إذ نفهم ظاهـرة فيزيائية من خلال ظاهرة فيزيائية أخرى لها حدود أوضح.

إن مـا نقوم بـه في الفهم غير المبـاشر هو استخـدام مـوارد الفهم المبـاشر. ففي حالـة الضبـاب والجبل، استخـدمنـا بنيـة الكيـان وبنيـة الاتجاه. هنـا بقينـا داخل مجال الأشياء الفيزيائية. إلا أنه غالبـا ما يستدعي فهمنا غير المباشر فهم نوع من الكيانات أو التجارب من خلال نوع *آخر*، أي أننـا نفهم عن طـريق الاستعـارة. إن كل الموارد التي تُستعمل في الفهم المباشر المتصل يتم استنفارها، كما رأينا، في الفهم غير المباشر عبر الاستعارة:

بنية *الكيان*: تُفرَض بنية الكيان والمادة عبر استعارة أنطولوجية.

بنية *الاتجاه*: تُفرض البنية الاتجاهية عبر استعارة اتجاهية.

أبعاد التجربة: تقتضي الاستعارة البنيوية بنينة نوع من الأشياء أو نوع من التجربة من خـلال نوع آخر، إلا أن نفس الأبعاد الطبيعية للتجربة تظل حاضرة في كليهما (مثل: *المقاطع*، *والأطوار*، *والأغراض*، . . . إلخ).

الجشطلتات التجريبية: تقتضي الاستعارة البنيوية فرض جزء من بنية الجشطلت على بنية أخرى.

الخلفية: تلعب الجشطلتات التجريبية دور الخلفية في الفهم الاستعاري، وهو الدور الذي تقوم به في الفهم غير الاستعاري.

تسليط الضوء: يعمل تسليط الضوء الاستعاري بنفس الآليات التي يعمل بها في حالات الجشطلتات غيرالاستعارية. فالجشطلت التجريبي الذي ينطبق على الوضع من خلال الاستعارة ينتقي عناصرالوضع التي توافق أبعاده: إنه ينتقي أطرافه الخاصة، ومقاطعه، وأطواره، . . . إلخ. وهذه العناصر هي التي تسلط الاستعارة الضوء عليها فيما تقلل من شأن عناصر أخرى أو تخفيها

وبما أن الاستعارات الجديدة تسلط الضوء على أشياء لا يُسلَّط عليها الضوء عادة في بنيتنا التصورية العادية، فإن هذه الاستعارات أصبحت أمثلة مشهورة على تسليط الضوء

الخصائص التفاعلية: كل أبعاد تجربتنا تفاعلية من حيث طبيعتها، وكل الجشطلتات التجريبية تتطلب خصائص تفاعلية وهذا الأمر ينطبق سواء على التصورات الاستعارية أو التصورات غير الاستعارية.

الطرازات: تُبنيَنُ كل من المقولات الاستعارية والمقولات غير الاستعارية من خلال طرازات

يرتكز الفهم على الصدق

رأينا أن المظاهر الثمانية المنتمية إلى نسقنا التصوري، التي تنطبق في الفهم المباشر المتصل للأوضاع، تلعب أدوارا موازية في الفهم غير المباشر. ومظاهر نسقنا التصوري العادي هاته تُستعمل كلما كنا بإزاء فهم وضع ما سواء من خلال الاستعارة أو من خلال غيرها. ولأننا نفهم *الأوضاع* بفضل نسقنا التصوري فإننا نستطيع أن نفهم أن *الإثباتات* التي تستعمل هذا النسق من التصورات صادقة؛ أي أنها توافق أو لا توافق الوضع كما نفهمه. وبالتالي، فإن الصدق نسبي باعتبار نسقنا التصوري. ولأن عددا كبيرا من تصوراتنا استعاري من حيث طبيعته، ولأننا نفهم الأوضاع من خلال هذه التصورات، فإن الاستعارات قد تكون صادقة أو كاذبة.

طبيعة التفسير التجريبي للصدق

إننا نفهم الإثبات باعتباره صادقا في وضع معطى عندما يوافق فهمُنا للإثبات فهمَنا للوضع انطلاقا من اتصاله الوثيق بأغراضنا.

هذا هو أساس نظريتنا التجريبية حول الصدق. ولهذه النظرية الخصائصَ التالية:

أولا تشترك نظريتنا في بعض العناصر مع النظرية التوافقية (correspondence theory). فالإثبات، بحسب الطرح التوافقي الأكثر بدائية، يملك معنى موضوعيا يخصص الشروط

التي يكون الإثبات صادقا بموجبها. فالصدق عبارة عن مطابقة (أو توافق) بين الإثبات وأحوال الأشياء في العالم.

إلا أننا نرفض هذه الصورة التبسيطية. ويرجع رفضنا، بالأساس، إلى إغفال هذا الطرح للكيفية التي يرتكز بها الصدق على الفهم. والطرح التجريبي الذي نقترحه عبارة عن نظرية توافقية لها الشكل التالي:

- نظرية الصدق عبارة عن نظرية ترصد ما يعنيه فهم إثبات ما باعتباره صادقا أو كاذبا في وضع معين.

- إن أي توافق بين ما نقوله وأحوال الأشياء في العالم يمر دائما بفهمنا لهذا الإثبات ولأحوال الأشياء. وبالطبع، ففهمنا للوضع ينتج عن تفاعلنا معه. إلا أننا لا نستطيع أن نجعل الإثباتات صادقة (أو كاذبة) في علاقتها بالعالم، لأنه من الممكن أن يوافق (أو لا يوافق) *فهمُنا للإثبات فهمَنا للوضع* الذي قام فيه الإثبات.

- بما أننا نفهم الأوضاع والإثباتات من خلال نسقنا التصوري، فإن الصدق مرتبط عندنا دائما بهذا النسق التصوري. وبما أن فهمنا دائما جزئي فإننا لا نصل إلى «الصدق الشامل» أو إلى رصد نهائي للواقع.

ثانيا. يتطلب فهم شيء ما إدراجَه داخل صيغة منسجمة مرتبطة بنسق تصوري. وبهذا يكون دائما مرتبطا جزئيا بالانسجام. وهذا يعطينا بعض عناصر *نظرية للانسجام*.

ثالثا. يتطلب الفهم كذلك أساسا في التجربة. وحسب الطرح التجريبي، ينبثق نسقنا التصوري من فعلنا المستمر والناجح في محيطينا الفيزيائي والثقافي. ومقولات التجربة البشرية، والأبعاد التي تنبني عليها، لا تنبثق من تجاربنا فحسب، بل تُراز باستمرار من خلال الحياة اليومية لكل عضو من أعضاء ثقافتنا. وهذا يمدنا ببعض عناصر نظرية ذريعية.

رابعا . تشترك نظرية الصدق التجريبية مع *الواقعية* التقليدية في بعض العناصر. إلا أنه لا يدخل ضمن العناصر المشترك فيها إلحاح هذه الأخيرة على الصدق المطلق. وهذا مخالف لنظريتنا التجريبية التي تعتبر الأشياء التالية معطاة:

- العالم الفيزيائي هو ما هو عليه. والثقافات هي ما هي عليه. والناس هم ما هم عليه.
- يتفاعل البشر، بصورة ناجحة، في محيطيهم الفيزيائي والثقافي، ويتفاعلون باستمرار مع العالم الواقعي.
- تتقيد المَقُولَة البشرية بالواقع، بما أن هذا الأخير يخصِّص عن طريق أبعاد طبيعية في التجربة تُراز باستمرار من خلال التفاعل الفيزيائي والثقافي.
- ترتكز الواقعية التقليدية على الواقع الفيزيائي، وليس على الواقع الثقافي أو الفردي. إلا أن المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، والكائنات البشرية

التي تعمل في إطار هذه المؤسسات، ليست أقل واقعية من الأشجار أو الطاولات أو الحجر. وبما أن رصدنا للواقع يعالج الواقع الاجتماعي والفردي، كما يعالج الواقع الفيزيائي، فإنه قد يُعتبر محاولة لتوسيع التقليد الواقعي.

خامسا. إن الناس الذين يمتلكون أنسقة تصورية مخالفة جدا لنسقنا التصوري قد يفهمون العالم بطريقة مختلفة جدا عن طريقتنا. وبهذا، فقد تكون مجموعة من الأشياء الصادقة عندهم تختلف عما هو صادق عندنا. وقد تكون لهم معايير مختلفة لتحديد الصدق والواقع (والحقيقة).

يتضح، من خلال هذا الوصف، أنه لا يوجد شيء جديد جذريا في رصدنا للصدق. فوصفنا يتضمن بعض الأطروحات المركزية في التقليد الظاهراتي (phenomenological tradition)، مثل رفض النزعة التأسيسية الإبستمولوجية (epistemological foundationalism)، والتركيز على مركزية الجسد في بنية تجربتنا، وأهمية هذه البنية في الفهم. ويلتقي طرحنا، أيضا، مع بعض العناصر الجوهرية في فلسفة فيتغنشتاين الثاني Wittgenstein later: رصدُ المَقْولَة من خلال التشابهات الأسرية، ورفض نظرية المعنى باعتباره صورة، ورفض نظرية بناء المعنى انطلاقا من أجزائه، والتركيز على المعنى باعتباره مرتبطا بالسياق وبالنسق التصوري عند المتكلم.

عناصر الفهم البشري في نظريات «الصدق الموضوعي»

إن نظرية للصدق تتأسس على الفهم ليست، بالطبع، نظرية «للصدق الموضوعي الصرف». إننا لا نعتقد أنه يوجد صدق مطلق، ومن العبث محاولة إقامة نظرية له. إلا أنه من الأشياء التقليدية، في الفلسفة الغربية، افتراض إمكان الصدق المطلق، وأنه بالإمكان الانكباب على وصفه. ونود أن نبين كيف تستعين أجود المقاربات المعاصرة للمشكل بمظاهر الفهم البشري رغم ادعائها أنها تلغيها.

إن أوضح محاولة في هذا الإطار تحليل الصدق داخل ما يسمى مقاربات النماذج النظرية (model-theoretic approaches)، ومنها تحاليل كريبك Kripke ومونتيغيو Montague، مثلا. فالنماذج تُبنى انطلاقا من كونٍ (universe) الخطاب الذي يعتبر *مجموعة من الكيانات*. ومن خلال هذه المجموعة من الكيانات يمكن أن نحدد حالات العالم (world states) التي تخصص فيها كل خصائص الكيانات وكل العلاقات التي تربطها ببعضها. ويُفترض أن لهذا التصور لحالات العالم ما يكفي من العمومية إذ ينطبق على أي وضع متصوَّر، بما في ذلك العالم الواقعي. ولا تطرح جمل من قبيل «الضباب أمام الجبل» أي مشكل بالنسبة لهذا النسق، بما أنه لدينا كيان ينطبق على *الضباب* وكيان ينطبق على *الجبل*، والعلاقة « *أمام كذا*» تربط بين الكيانين. إلا أن هذه النماذج لا توافق العالم في ذاته، ذلك العالم الخارج عن الفهم البشري، بما أنه لا يوجد في العالم كيانات محدّدة بشكل جيد تنطبق على *الجبل والضباب*، ولا يوجد *أمامٌ* ملازم للجبل. فبنية الكيان والاتجاه أمام - وراء يُفرضان بمقتضى الفهم البشري. وكل محاولة لرصد صدق «الضباب أمام الجبل»

من خلال «النماذج النظرية» لن تقدم رصدا *للصدق الموضوعي المطلق* إلا إذا أدخلت في النماذج عناصر من الفهم البشري.

ونفس الشيء يمكن أن يقال بصدد المحاولات التي تصوغ نظريةً للصدق تلتقي بالتحديد الكلاسيكي لشروط الصدق كما وردت عند تارسكي Tarski :

«س» صادقة إذا وفقط إذا س

أو: *«س» صادقة إذا وفقط إذا* د (حيث د إثبات ينتمي إلى لغة منطقية كلية)

ويبدو طراز هذه النظرية، وهو المثال المشهور:

«الثلج أبيض» صادقة إذا وفقط إذا كان الثلج أبيض

معقولا، بما أننا نعتبر فعلا أن الثلج محدد موضوعيا بوجه من الوجوه، وأنه يلازمه البياض. ولكن ماذا نقول عن:

«الضباب أمام الجبل» صادقة إذا وفقط إذا كان الضباب أمام الجبل؟

فبما أن العالم لا يتضمن الكيانين المحددين بشكل واضح، وهما *الضباب* و*الجبل*، وبما أن الجبال لا يلازمها «الأمام»، فإن النظرية لن تكون كافية إلا إذا أدخلت عنصر الفهم البشري لما هو «الأمام» المنسوب إلى الجبل، وأدخلت كيفية رسم حدود *الضباب* و*الجبل*. والمشكل أعقد من ذلك، فكل الكائنات البشرية لا تملك نفس الكيفية في إسقاط الاتجاه أمام - وراء على الجبال. وهنا، أيضا، يجب إدراج بعض عناصر الفهم البشري كي يكون تحديد الصدق كافيا.

وهناك نقطة خلاف أخرى مهمة بين رصدنا للصدق من خلال الفهم والمحاولات المعيار لرصد الصدق الخارج عن الفهم البشري. إن مختلف مقاربات الصدق تسمح بوجود نظريات مختلفة حول المعنى. أما بالنسبة لنا فالمعنى يرتبط بالفهم. إن الجملة لا يمكن أن تعني شيئا بالنسبة لنا إذا لم نفهمها. ولا يوجد المعنى في ذاته، وفي استقلال عن الناس. وحين نتحدث عن معنى جملة ما فإن ذلك المعنى يكون دائما معنى بالنسبة لشخص ما، سواء كان الشخص حقيقيا أو عضوا نموذجيا مفترضا في عشيرة لغوية معينة.

هنا تختلف نظريتنا جذريا عن النظريات المعيار حول المعنى. فالنظريات المعيار تسلم بإمكان رصد الصدق في ذاته في استقلال عن الفهم البشري، وأن نظرية المعنى تتأسس على نظرية الصدق هاته. ولا نرى إمكان قيام برنامج كهذا. ونعتقد أن الجواب الوحيد على ذلك هو وجوب تأسيس نظرية المعنى ونظرية الصدق كلتيهما على نظريةٍ للفهم. والاستعارة، سواء الوضعية أو غير الوضعية، تلعب دورا مركزيا في هذا البرنامج. فالاستعارات، أساسا، وسائل للفهم، وعلاقتها بالواقع الموضوعي - إن وُجد - علاقة ضعيفة جدا. إن ملازمة الاستعارة لنسقنا التصوري ولفهمنا العالم ولتفكيرنا، و«اشتغالنا» من خلال الاستعارة، وكون الاستعارة لا تُفهَم فحسب بل تنتج معنى وتكون صادقة أيضا، كل هذه الأمور تبين أن نظريةً كافية للصدق وللمعنى لا يمكن أن تتأسس إلا على الفهم.

25 ـ أسطورتا الموضوعية والذاتية

الاختيارات التي تتيحها ثقافتنا

رصدنا سابقا الكيفية التي يتأسس بها الصدق على الفهم. وقد قدمنا الاستدلال على أن الصدق دوما نسبي باعتبار النسق التصوري. وكل نسق تصوري، في جزء منه، ذو طبيعة استعارية. وبهذا، فإنه لا يوجد صدق موضوعي تماما أو غير مشروط أو مطلق. وبالنسبة للعديد من الناس الذين تشبعوا بثقافة علمية، أو بالنسبة لبعض الثقافات الفرعية حيث يعتبر الصدق مطلقا وكأن الأمر لا يحتاج إلى نقاش، يعتبر تأكيد من هذا القبيل انزياحا نحو الذاتية والاعتباط، أو نحو تصور هامبتي دامبتي Humpty Dumpty الذي يقول إن ما يعنيه شيء ما «هو تحديدا ما أريده أن يقوله، لا أقل ولا أكثر». ولنفس السبب يَعتبر أولئك الذين يتبنون التقليد الرومانسي كلَّ انتصار على النزعة الموضوعية نصرا للخيال على العلم، أو نصرا للرأي الذي يقول إن كل فرد يخلق حقيقته أو واقعه الخاص في استقلال عن أي قيد.

هذان الموقفان خاطئان رغم ذلك. إنهما يضعان افتراضا - وهو افتراض خاطئ في ثقافتنا - مفاده أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقابل الموضوعية هو الذاتية الجذرية. وبعبارة أخرى، فإما أن تؤمنوا بالحقيقة المطلقة أو أن تخلقوا العالم بالصورة التي ترتضونها. وإذا لم تكونوا موضوعيين فأنتم ذاتيون، ولا يوجد طريق ثالث. والحال أن ما نقترحه هو بالضبط ذلك الطريق الثالث الذي يناقض أسطورتي الموضوعيةَ والذاتية.

ونشير، بالمناسبة، إلى أننا لا نستعمل مصطلح «الأسطورة» بصورة قدحية. فالأساطير تسمح لنا بفهم تجاربنا. إنها تقيم نظاما في حياة كل منا. فالأساطير، شأنها شأن الاستعارات، ضرورية لإعطاء معنى لما يدور حولنا. ولكل الثقافات أساطير، ولا يمكن للناس أن يعيشوا بدون أساطير، مثلما لا يمكنهم العيش بدون استعارات. وكما نعتبر استعارات ثقافتنا غالبا صادقة، نعتبر أساطير ثقافتنا غالبا صادقة. ومن هذا المنطلق، فأسطورة الموضوعية خادعة بامتياز. فهي لا تكتفي بالادعاء بكونها ليست أسطورة، بل تقلل من شأن الأساطير والاستعارات وتحتقرها: فحسبَ أسطورة الموضوعية، لا يمكن أن نثق في الأساطير والاستعارات لأنها ليست صادقة موضوعيا. وكما سنرى في ما بعد، فأسطورة الموضوعية نفسها ليست صادقة موضوعيا. وهذا لا يجعل منها شيئا محتقَرا أو سخيفا. فأسطورة الموضوعية جزء من الفعل اليومي لكل عضو داخل هذ الثقافة. ويجب فحصها وفهمها. ونعتقد أنه يجب تكملتها، ليس بنقيضها وهو أسطورة الذاتية، وإنما بأسطورة

تجريبية جديدة نعتقد أنها توافق أكثر حقائقَ تجربتنا. ومن أجل توضيح ما نقصده بالمقابل التجريبي لهذه الأسطورة، نحتاج إلى فحص أسطورتي الموضوعية والذاتية بتفصيل.

أسطورة النزعة الموضوعية

تقول أسطورة الموضوعية:

1. يتكون العالم من أشياء. ولهذه الأشياء خصائص مستقلة عن الناس وعن باقي المخلوقات التي «تجربها». لنأخذ، مثلا، حجرا. فهو شيء مستقل [عنا]، وهو صلب وحتى إن لم يوجد أي كائن حي في الكون فإنه يظل شيئا مستقلا وصلبا.

2. إننا نحصل على معرفتنا للعالم بالقيام بتجربة الأشياء التي تشكله، ونتوصل إلى معرفة ما هي خصائص هذه الأشياء وكيف يرتبط بعضها بالبعض الآخر. فنحن نتبين، مثلا، أن حجرا ما عبارة عن شيء مستقل بالنظر إليه، أو بلمسه، أو بنقله [من مكان إلى آخر]، ... إلخ. كما نتبين أنه صلب بلمسنا إياه، أو بمحاولة الضغط عليه، أو بركله، أو بالضرب بشيء هش عليه، ... إلخ.

3. إننا نفهم الأشياء في عالمنا عن طريق المقولات والتصورات. وهذه المقولات والتصورات تطابق خصائص الأشياء التي [تلازمها] في ذاتها. والعلاقات الموجودة بين الأشياء. وبهذا، فإن كلمة «حجر» مثلا، تطابق تصور حجر. ويمكن أن نقول إن الحجر ينتمي إلى مقولة حجر، وأن البيانو أو الشجرة أو النمر ليست كذلك. إن للحجر خصائص تلازمه تستقل عن كل الكائنات: إنه صلب، وجامد، وكثيف، ويوجد في الطبيعة، ... إلخ. فنحن نفهم ما هو «حجر» انطلاقا من هذه الخصائص.

4. هناك حقيقة موضوعية، ويمكن أن نقول بصددها أشياء صادقة أو كاذبة موضوعيا وبإطلاق ودون قيد. إلا أنه بما أننا كائنات بشرية فنحن معرضون للزلل البشري، مثل التوهمات، وأخطاء الإدراك، وأخطاء الحكم [على الأشياء] الناتجة عن أحاسيسنا، والتحيزات الشخصية والثقافية. ولا يمكن أن نعول على الأحكام الذاتية الصادرة عن الأشخاص. والعلم يمنحنا منهجية تسمح بتجاوز تصورنا الذاتي والتوصل إلى الفهم انطلاقا من وجهة نظر صحيحة لدى الكل، وغير متحيزة. ويمكن للعلم أن يعطينا، في آخر المطاف، تفسيرا صحيحا ونهائيا وعاما بصدد الحقيقة والواقع. والمنهجية العلمية تتطور باستمرار في هذا الاتجاه.

5. للكلمات معان ثابتة. وبعبارة أخرى، فلغتنا تعبر عن التصورات والمقولات التي نفكر بها. ولوصف الحقيقة بشكل صحيح، نحتاج إلى كلمات ذات معان واضحة ودقيقة، كلمات توافق الحقيقة. ويمكن أن تظهر هذه الكلمات بصورة طبيعية، أو قد تكون مصطلحات تقنية في نظرية علمية ما.

6. قد يكون الناس موضوعيين ويتحدثون بشكل موضوعي، إلا أنهم لا يصلون إلى ذلك إلا إذا استعملوا لغة محدَّدة بشكل واضح ودقيق. لغةً مباشرة وغير ملتبسة، لغةً توافق

الحقيقة فوحده التحدث بهذه الطريقة يمكّن البشر من التواصل بدقة بصدد العالم الخارجي، ومن إصدار أحكام قد تكون موضوعيا صادقة أو كاذبة.

7. إن الاستعارة والأنماط الأخرى من اللغة الشعرية التخييلية البلاغية أو المجازية يمكن أن نتجنبها كلما تحدثنا بشكل موضوعي، بل يجب تجنبها لأن معانيها ليست واضحة ودقيقة، ولا توافق بصفة واضحة الواقع.

8. أن تكون موضوعيا شيء جيد عموما. والمعرفة الموضوعية وحدها هي المعرفة الحقيقية. واعتماد وجهة نظر موضوعية وغير مشروطة وحده يمكننا من أن نفهم حقا أنفسنا والآخرين والعالم الخارجي. إن الموضوعية تسمح لنا بتجاوز الأفكار المسبقة الشخصية والتحيزات، فنكون واضحين ومباشرين وليس لنا رأي منحاز من العالم.

9. الموقف الموضوعي موقف عقلي، والموقف الذاتي موقف غير عقلي يدع الأحاسيس تطغى عليه.

10. قد تكون النزعة الذاتية خطيرة فقد تؤدي إلى فقدان الاتصال بالواقع. وقد تكون مجحفة لأنها تتبنى وجهة نظر شخصية، وبالتالي فهي متحيزة. والذاتية مجاملة لأنها تبالغ في أهمية الفرد.

أسطورة النزعة الذاتية

تدافع أسطورة الذاتية عن النقط التالية:

1. في أغلب أنشطتنا اليومية، نثق في حواسنا ونطور حدوسا نؤمن به. وحين تُطرح لنا مشاكل صعبة فإننا نصرف النظر عما يمكن أن يقوله الآخرون ونسلم زمامنا لحواسنا وحدوسنا في التصرف.

2. إن أهم الأشياء في حياتنا هي أحاسيسنا، وأذواقنا الجمالية، وممارساتنا الأخلاقية، ووعينا الروحي؛ وهذه كلها أشياء ذاتية خالصة. ولا عنصر من هذه العناصر عقلي أو موضوعي خالص.

3. يتعالى الفن والشعر عن العقلي وعن الموضوعية، ويصلاننا بأهم حقيقة، وهي حقيقة مشاعرنا وحدوسنا. ونصل إلى هذا الوعي عبر الخيال وليس عبر العقل.

4. إن لغة الخيال، وخصوصا الاستعارة، ضرورية في التعبير عن مظاهر تجربتنا التي تكون فريدة ولها دلالة خاصة عندنا باعتبارنا أفرادا. وحين نروم الفهم الشخصي، فإن المعاني العادية المتعارف عليها لا تكفي.

5. قد تكون النزعة الموضوعية خطيرة. فهي تغفل ما هو أهم وأدل بالنسبة للأفراد. وقد تكون مجحفة لأنها تتجاهل المجالات الأكثر ورودا في تجربتنا لصالح ما هو مجرد وكلي ومبهم. ولنفس السبب، قد تكون النزعة الموضوعية غير إنسانية. إنه لا توجد وسائل موضوعية وعقلية تجعلنا نفهم أحاسيسنا وأذواقنا الجمالية، . . . إلخ. فالعلم لا يسعفنا في [فهم] أهم مسائل حياتنا.

الخوف من الاستعارة

تحتاج نزعتا الموضوعية والذاتية إلى بعضهما كي توجدا. وكل منهما تحدد نفسها باعتبارها نقيضا للأخرى، وترى فيها عدوا. وللنزعة الموضوعية حلفاء هم: الصدق العلمي، والعقلانية، والدقة، والعدالة، والنزاهة [والتجرد]. أما حلفاء النزعة الذاتية فَهُمْ: العواطف، والمعرفة الحدسية، والخيال، والأحاسيس البشرية، والفن، وكذلك ذلك النوع «السامي» من الصدق. وكل من النزعتين سيدة في عالمها، وتَعتبر عالمها أحسن من عالم الأخرى. هاتان الأسطورتان تتعايشان، ولكن في مجالين منعزلين عن بعضهما. ففي حياة كل منا هناك مجال من الملائم أن نكون فيه موضوعيين، ومجال آخر من الملائم أن نكون فيه ذاتيين. ويتنوع كثيرا مجالا حياتنا اللذين تتحكم فيهما الموضوعية والذاتية من شخص إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. وبعضنا يحاول أن يعيش مجالي حياته بأسطورة واحدة من الأسطورتين.

في الثقافة الغربية ككل تطغى النزعة الموضوعية. فهي تدّعي أنها تتحكم، على الأقل اسميا، في الميادين العلمية، والقانون، والحكومة، والصحافة، وقواعد السلوك، والتجارة، والاقتصاد، والثقافة. إلا أنه، كما بيّنا، فالموضوعية أسطورة.

منذ عصر الإغريق كان في الثقافة الغربية توتر بين الصدق من جهة، والفن من جهة أخرى. وكان يُنظر إلى الفن باعتباره إيهاما وتحيزا، ويرتبط عبر الشعر والمسرح بفن الإقناع الخطابي. وقد نظر أفلاطون إلى الشعر والبلاغة بارتياب، وطرد الشعر من جمهوريته المثالية لأنه لا يحمل في ذاته أي صدق، ويهيج العواطف، وبذلك يعمي البشر عن الصدق الحقيقي. وقد بين أفلاطون، بنهجه لأسلوب الإقناع، أن الصدق مطلق، وأن الفن ليس سوى إيهام، وذلك باعتماده على أداة بلاغية قوية، وهي قصة الكهف. وقد سادت استعارات أفلاطون في الفلسفة الغربية حتى أيامنا هاته، إذ أعطت تعبيرا دقيقا وأنيقا على طرحه الذي يقول إن الصدق مطلق. أما أرسطو فاعتبر أن للشعر قيمة إيجابية: «إنه لَشيء مهم حقا أن نستعمل بشكل كاف الأشكال الشعرية، إلا أن الأهم بكثير هو معرفة صنع الاستعارات» (*كتاب الشعر*، 1459 أ)؛ «فالألفاظ العادية تفيد فقط ما نعرفه من قبل، والاستعارات هي التي تمكننا من إنتاج شيء جديد» (كتاب *البلاغة*، 1410 ب).

إلا أنه رغم أن نظرية اشتغال الاستعارات عند أرسطو كانت أساس النظرية الكلاسيكية، فإن تمجيده لقدرة الاستعارات على استنباط معرفة [جديدة] لم يحتفظ به الفكر الفلسفي الحديث. ومع بروز العلم التجريبي باعتباره نموذجا للصدق، أصبح الارتياب من الشعر والبلاغة سائدا في الفكر الغربي، وأصبحت الاستعارة والوسائل المجازية موضوعا للازدراء من جديد. فهوبز Hobbes، مثلا، اعتبر الاستعارات منافية للعقل، فهي تُضل الناس بطابعها العاطفي. إنها «سراب، والاحتجاج بواسطتها هو بمثابة التيه داخل سخافات لامحصورة؛ وما تنتهي إليه هو الخلاف والفتنة وعدم الاحترام» (الفصل الخامس من *اللوياثان* Leviathan). وقد رأى هوبز منافاة العقل في «استعمال الاستعارات والمجازات وباقي الأشكال البلاغية عوض الألفاظ الحقيقية. فرغم أنه من المشروع أن نقول في كلامنا

الشائع: «يذهب هذا الطريق إلى المكان الفلاني»، أو «هذا الطريق يقودك إلى هذا المكان أو ذاك»، أو «يقول المثل كذا وكذا»، فإن الطريق لا يمكن أن يذهب، والأمثال لا يمكن أن تتكلم. وبهذا، فإنه في الحساب أو في البحث عن الحقيقة لا يمكن قبول أساليب كهاته» (نفس الكتاب، الفصل الخامس).

ولوك Locke ، الذي يعد استمرارا للتقليد التجريبي، يشير إلى نفس الازدراء للغة المجازية فيصفها بكونها أداة بلاغية نعادي الصدق:

« . . إذا أردنا أن نتحدث عن الأشياء كما هي، يجب أن نعترف أنه، باستثناء النظام والوضوح، كل الأشكال الفنية والبلاغية التي نعطيها للألفاظ تتبع قواعد فصيحة مبتدعة لا تكمن وظيفتها إلا في دس أفكار خاطئة، وفي تحريك العواطف. وبذلك فهي تخطّئ أحكامنا عن طريق احتيالات مضبوطة. وبهذا فإنه، رغم أن جدارتها بالثناء وجوازها في الخطابة يجعلانها مستحسَنة في الخطب الرنانة الموجهة إلى الشعب، فهي يجب أن تجنب، بدون شك، كلية في الخطابات الإخبارية والتعليمية. أما في ما يخص الصدق والمعرفة، فإنه لا يمكن أن ننظر إليها إلا باعتبارها نقيصة كبيرة سواء في اللغة أو في الشخص الذي يستعملها. . . ومن المعلوم أن الناس يحبون كثيرا أن يَخدعوا وأن يُخدعوا. فالبلاغة -تلك الأداة القوية في الخطأ والغش - لها أساتذتها الراسخون، وتدرّس بشكل عمومي، وكان لها دائما صيت ذائع» (من كتابه: *محاولة في الفهم البشري* Essay Concerning Human Understanding ، الكتاب 3، الفصل 10).

إن الخوف من الاستعارة والبلاغة في التقليد التجريبي خوفٌ من الذاتية؛ إنه خوف من العاطفة والخيال. فالألفاظ يُنظر إليها باعتبارها تحمل «معاني حقيقية» تعبر عما هو صادق. واستعمال الألفاظ بطريقة استعارية استعمالٌ بمعنى غير حقيقي، وهو أيضا تأجيج للخيال والعواطف. وبهذا، فهي تخرجنا من الصدق إلى الوهم. هذا الخوف التجريبي من الاستعارة وعدم الثقة فيها يلخصه بشكل رائع صامويل باركر Samuel Parker :

«كل هذه النظريات الفلسفية التي تعبر عن نفسها بواسطة مفاهيم استعارية فقط ليست صادقة حقيقة. إنها ليست سوى نتاجات خيال مكسوة (مثل دمى الأطفال) بألفاظ فارغة براقة. . وبهذا فأهواؤها اللّعوب والخصبة التي تتسلل إلى *سرير العقل* لا تدنس العقل بعدم عفتها وعناقها غير الشرعي له فحسب، بل عوض التصورات الحقيقية وتقرير الأشياء تلقح الذهن بأوهام مائعة» (من كتابه: *النقد الحر والنزيه للفلسفة الأفلاطونية* ((Free and Impartial Censure of Platonick Philosophy (1666)).

وحين أصبح العلم قويا عن طريق التكنولوجيا، وطرحت الثورة الصناعية واقعا غير إنساني، ظهر رد فعل عند الشعراء والفنانين والفلاسفة: إنها نشأة التقليد *الرومانسي*. فقد ترك وورسوورث Wordsworth وكولريدج Coleridge العقل والعلم والموضوعية للتجريبيين غير الإنسانيين، ومجّدا الخيال باعتباره الوسيلة الأكثر إنسانية في الوصول إلى صدق من مستوى رفيع، مع اعتبار العواطف مرشدا طبيعيا في فهم النفس. فالعلم والعقل والتكنولوجيا سلبت الإنسان من نفسه ومن محيطه الطبيعي - أو هكذا زعم الرومانسيون.

لقد رأوا في الشعر والفن والرجوع إلى الطبيعة وسيلة لاسترجاع هذه الإنسانية الضائعة. إنهم لم ينظروا إلى الفن والشعر باعتبارهما نتاجين للعقل، بل باعتبارهما «فيضانا عفويا للأحاسيس القوية» وبفضل هذا الطرح الرومانسي انسلخ الفنان والشاعر عن الاتجاه السائد في المجتمع.

وقد عزز التقليد الرومانسي، باعتناقه للنزعة الذاتية، الثنائية بين الصدق والعقل من جهة، والخيال والفن من جهة أخرى. وبتخليه عن أسطورة الموضوعية، نصرف بطريقة تعود على الموضوعية بالضرر والفائدة في آن. فقوة أسطورة الموضوعية لم تتوقف منذ ذلك الحين عن النمو. وقد خلق الرومانسيون، رغم ذلك، عالما خاصا بهم استمرت النزعة الذاتية في إحكام سيطرتها عليه. إلا أنه كان عالما فقيرا بالمقارنة بعالم النزعة الموضوعية فبمقتضى القوة الحقيقية في مجتمعنا – في العلم، والقانون، والحكومة، والتجارة، ووسائل الاتصال – ظلت النزعة الموضوعية سيدة الميدان. ولكن النزعة الذاتية غنمت عالمها الخاص في الفن، وربما في الديانة أيضا. وجل الناس في هذه الثقافة يعتبرونها ملحقة بعالم الموضوعية، ورجوعا إلى العواطف والخيال.

الاختيار الثالث: تأليف تجريبي

ما نقدمه في التفسير التجريبي للفهم والصدق محاولةٌ تُنكر أن تكون نزعتا الذاتية والموضوعية اختيارينا الوحيدين. إننا نرفض طرح الموضوعية الذي يقول إن هناك صدقا مطلقا وغير مشروط، وذلك دون أن نتبنى المقاربة الذاتية للصدق التي تقول إنه لا يُتوصل إليه إلا عبر الخيال الذي لا تقيده ظروف خارجية. والسبب الذي جعلنا نركز كثيرا على الاستعارة هو أنها توحد بين العقل والخيال. إن العقل يتطلب، على الأقل القليل، المَقْولَة والاقتضاء ثم الاستنتاج. والخيال يتطلب، في مظهر من مظاهره الكثيرة، النظر إلى نوع من الأشياء من خلال نوع آخر – أي ما أسميناه الفكر الاستعاري. وبهذا، فالاستعارة *عقلية خيالية* فمقولات فكرنا اليومي، في أغلبها، استعارية. وتفكيرنا اليومي يتطلب اقتضاءات استعارية واستنتاجات. وبذلك فالعقلية العادية خيالية من حيث طبيعتها. وبما أننا نفهم الاستعارات الشعرية انطلاقا من الاقتضاء والاستنتاجات الاستعارية، فإن نتاجات الخيال الشعري تعد، لنفس السبب، ذات طبيعة عقلية في جزء منها.

إن الاستعارة من الأدوات المهمة جدا في محاولة الفهم الجزئي لما لا يمكن فهمه كلية: أحاسيسنا وتجاربنا الجمالية وسلوكاتنا الأخلاقية ووعينا الروحي. ومجهودات الخيال هاته لا تخلو من بعد عقلي، فهي تستعمل الاستعارة، وتستخدم ما هو عقلي.

والمقاربة التجريبية تسمح لنا أيضا بإقامة ربط بين أسطورتي النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية من حيث التجرد وإمكان الصدق الموضوعي. والاختياران اللذان تمنحهما الأسطورتان هما: إما الموضوعية المطلقة، أو الحدس الذاتي الخالص. وقد رأينا أن الصدق نسبي باعتبار الفهم، وهذا يعني أنه لا توجد وجهة نظر مطلقة يمكن أن نصوغ انطلاقا منها [أشياء]

صادقة بصفة مطلقة وموضوعية بصدد العالم. وينبغي ألا نستنتج من ذلك أنه لا توجد [أشياء] صادقة، بل فقط أن الصدق نسبي بالنظر إلى نسقنا التصوري الذي يرتكز (ويتم تمرينه دوما) على تجاربنا وتفاعلاتنا اليومية مع ما يشكل ثقافتنا، ومع محيطنا الفيزيائي والثقافي.

إلا أنه رغم عدم وجود موضوعية مطلقة، يمكن أن يوجد نوع من الموضوعية النسبية بالنظر إلى النسق التصوري لثقافة ما. فالتجرد والصفاء في المسائل الاجتماعية هو تجاوز الأحكام القبلية عند *الأفراد*. والموضوعية في التجريب العلمي تتطلب إبعاد آثار التوهم والخطأ *الفرديين*. وهذا ليس معناه أننا نستطيع أن ننجح دائما في أن نكون موضوعيين تماما بالنظر إلى نسق تصوري ومجموعة من القيم الثقافية. إننا نكتفي بالقول إن الحدس الذاتي الخالص ليس دائما ملجأنا الوحيد. وليس معنى ذلك، مرة أخرى، أن تصورات وقيم ثقافة خاصة هي الحكَم الأخير على عدم التحيز داخل هذه الثقافة. فقد توجد (وتوجد فعلا) تصورات وقيم عبر-ثقافية (transcultural) تحدد نموذجا معيارا للعدالة يختلف كثيرا عن نموذج ثقافة خاصة ما. إن ما كان عدلا في ألمانيا النازية، مثلا، لم يكن يراه المجتمع الدولي عدلا. ولكي لا نبتعد، فالقضايا التي تعرض أمام المحاكم تطرح باستمرار مسائل العدالة ومشاكلها حين يتعلق الأمر بثقافات فرعية تتصارع قيمها. وفي هذه الحالة، تحدد ثقافة الأغلبية عادةً العدل في ارتباطه بقيمها. إلا أن القيم الثقافية المركزية تتغير مع الزمن، ويتم في الغالب انتقادها من قِبل الثقافات الأخرى.

إن أسطورتي الموضوعية والذاتية تغفلان كلتاهما الطريقة التي نفهم بها العالم عن طريق تفاعلاتنا معه. فالموضوعية تنسى أن الفهم، وبالتالي الصدق، يرتبطان بالضرورة بأنسقتنا التصورية الثقافية، ولا يمكن أن يُعبر عنهما في إطار نسق مطلق ومحايد. إن الأنسقة التصورية البشرية لها طبيعة استعارية، ونستعين بالفهم الخيالي لنوع من الأشياء من خلال نوع آخر. والذاتية تغفل -بالأساس- كونَ فهمنا، حتى ذلك الأكثر خيالية، يُعطى في إطار نسق تصوري مؤسس على ما يسمح لنا بالتصرف بنجاح في محيطنا الثقافي والفيزيائي. إنها تنسى، أيضا، أن الفهم الاستعاري يفترض وجود الاقتضاء الاستعاري الذي يعد شكلا خياليا يدخل في ما هو عقلي.

26 ـ أسطورة النزعة الموضوعية في الفلسفة واللسانيات الغربية

تحدينا لأسطورة النزعة الموضوعية

سيطرت أسطورة النزعة الموضوعية على الثقافة الغربية، وخصوصا في مجال الفلسفة منذ ما قبل سقراط إلى أيامنا هاته. وقد شكل القول بإمكان ولوج البشر الصدق المطلق وغير المشروط بصدد العالم حجر الزاوية في التقليد الغربي وقد أزهرت أسطورة الموضوعية في كل من التقليد العقلاني والتقليد التجريبي (الأمبريقي)، اللذين لا يختلفان، من هذه الناحية، إلا في تفسيرهما لكيفية التوصل إلى هذا الصدق المطلق. فبالنسبة للعقلانيين، تعد قدرتنا الفطرية في التفكير الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من معرفة الأشياء كما هي حقيقة. أما بالنسبة للتجريبيين فتأتي معرفتنا كلها (بصفة مباشرة أو غير مباشرة) من الإدراك الحسي، وتُبنى انطلاقا من الإحساسات. وتأليف كانط Kant بين العقلانية والتجريبية ينتمي بدوره إلى التقليد ذي النزعة الموضوعية، رغم أنه يقر أنه لا يمكن أن توجد معرفة للأشياء في ذاتها. وكانط ذو نزعة موضوعية حين يقر أنه، في ما يخص أنماط الأشياء التي يمكن أن تقوم الكائنات بتجربتها بواسطة حواسها (وهذا هو الإرث التجريبي)، يمكن أن نحصل على معرفة كلية صحيحة، وعلى قوانين أخلاقية كلية صحيحة اعتمادا على عقلنا الكلي (وهذا هو الإرث العقلاني). ونجد التقليد ذا النزعة الموضوعية في الفلسفة الغربية حاليا عند المنحدرين من الوضعيين المناطقة (logical positivists)، كما نجده عند فريجه Frege وهوسرل Husserl؛ ونجده في اللسانيات عند العقلانية الجديدة التي يمثلها شومسكي Chomsky.

وتصورنا للاستعارة يناقض ما يذهب إليه هذا التقليد. فالاستعارة، بالنسبة إلينا، آلية جوهرية في [حصول] الفهم البشري، كما تشكل آلية لخلق دلالات جديدة وحقائق جديدة في حياتنا. وبهذا، فنحن نعارض التيارات المركزية في الفلسفة الغربية التي تعتبر الاستعارة عاملا ذاتيا، وبالتالي عنصرا هداما موجَّها ضد البحث عن الصدق المطلق.

وإضافة إلى ذلك، فتصورنا للاستعارة الوضعية - الذي يفترض أن هذه الأخيرة تخصب نسقنا التصوري، وتعد آلية جوهرية في حصول الفهم - يجعلنا نخالف الأفكار المعاصرة حول اللغة والمعنى والصدق والفهم. وهذه الأفكار التي تسيطر على الفلسفة التحليلية الأنجلو-أمريكية الحديثة لم تكن قط موضع شك في عدد كبير من المدارس اللسانية الحديثة والمباحث الأخرى. وفي ما يلي لائحة تمثل أهم هذه الطروحات حول اللغة والمعنى والفهم والصدق. ولا يقبل كل الفلاسفة ذوي النزعة الموضوعية كل هذه الطروحات، إلا أنه يبدو أن المؤثرين منهم يقبلون أغلبها:

- يرتبط الصدق بمطابقة الألفاظ للعالم.
- ترتكز نظرية المعنى في اللغات الطبيعية على نظرية للصدق. وهذه النظرية مستقلة عن الطريقة التي يفهم بها الناس اللغة ويستعملونها بها.
- المعنى موضوعي ومتجرد ومستقل عن الفهم البشري.
- الجمل موضوعات [أو أشياء] مجردة لها بنيات ملازمة لها.
- يمكن الحصول على معنى جملة ما انطلاقا من معاني أجزائها وبنيتها.
- التواصل نقلُ متكلم لرسالة حاملة لمعنى ثابت إلى مستمع.
- إن كيفية فهم أحدهم لجملة ما، وما تعنيه هذه الجملة عنده، أمران ناتجان عن معنى الجملة الموضوعي، وعما يعتقده ذلك الفرد بصدد العالم والسياق الذي قيلت فيه الجملة.

لا يساير طرحنا بصدد الاستعارة الوضعية كل هذه الافتراضات. فمعنى جملة ما يُعطى من خلال بنية تصورية. وكما رأينا، فإن جزءا كبيرا من البنية التصورية للغة ذو طبيعة استعارية. والبنية التصورية أساسها تجربتنا الفيزيائية والثقافية، شأنها في ذلك شأن الاستعارات الوضعية. وبذلك، فالمعنى لا يمكن أن يكون متجردا أو موضوعيا. فهو يقوم دائما على اكتسابنا لنسق تصوري وعلى استعمالنا إياه. وإضافة إلى ذلك، فالصدق يحدد نسبةً إلى نسق تصوري معين، وإلى الاستعارات التي تُبنينه. فالصدق ليس، إذن، مطلقا أو موضوعيا. إنه يتأسس، بالأحرى، على الفهم. وبهذا، فالجمل ليست لها معان تلازمها، أو معان تُسنَد إليها بشكل موضوعي. والتواصل لا يمكن أن يكون نقلا لهذه المعاني فحسب.

ليس من السهل أبدا إدراك السبب في اختلاف رصدنا لهذه الأمور عن المواقف الفلسفية واللسانية التقليدية. ويبدو أن السبب الرئيسي هو أن كل المواقف المعيار ترتكز على أسطورة النزعة الموضوعية، في حين أن تصورنا للاستعارة لا يتلاءم وهذه الأسطورة. ويحتاج هذا الانحراف الجذري عن النظريات السائدة، بصدد هذه المسائل الأساسية، إلى تفسير. فكيف يمكن لتصور معين للاستعارة أن يشكك في أطروحات أساسية حول الصدق والمعنى والفهم مَصدرُها التيارات السائدة في الفلسفة الغربية؟ يقتضي الجواب على ذلك تقديم تحليل جد مفصل للنظريات ذات النزعة الموضوعية التي موضوعُها اللغة والصدق والمعنى. وسيكون هذا التحليل أدق مما قدمناه سابقا. ويقتضي الجواب أن نتعرف

بشكل مفصل على ما يلي: (أ) ما هي المسلمات المنسوبة إلى النزعة الموضوعية؟ و(ب) كيف يتم تبريرها؟ ثم (ج) ما هي اقتضاءاتها على مستوى الرصد العام للغة والصدق والمعنى؟

لا يرمي هذا التحليل إلى تمييز آرائنا حول اللغة من الآراء التقليدية فحسب، بل يرمي أيضا إلى أن يبين، بواسطة الأمثلة، مدى تأثير أسطورة النزعة الموضوعية على الثقافة الغربية، هذا التأثير الذي يتخذ صورا لا ننتبه إليها غالبا كما نرمي إلى أهم من ذلك: نريد أن نبين أن عددا كبيرا من المشاكل التي تُطرح في ثقافتنا قد يكون مصدرها قبولنا الأعمى لأسطورة النزعة الموضوعية، وجهلنا أنه توجد مقاربة أخرى تجنِّب الالتجاء إلى النزعة الذاتية الجذرية.

كيف تتجذر النظريات المعيار حول المعنى في أسطورة النزعة الموضوعية؟

لأسطورة النزعة الموضوعية، التي تعد أساس التقليد الموضوعي، مستتبعات جد خاصة على نظرية المعنى وعلينا أن نبين ما هي هذه المستتبعات، وكيف تنشأ من أسطورة النزعة الموضوعية، ولماذا يتعذر الدفاع عنها من وجهة نظر تجريبية ولا يدافع كل ذوي النزعة الموضوعية عن المواقف التي سنوردها بعد قليل، ولكنهم يشتركون في الالتزام بأغلبها بطريقة أو بأخرى.

المعنى الموضوعي

يحدد ذوو النزعة الموضوعية المعنى كلية من خلال شروط الصدق أو الكذب الموضوعية. فبحسب النزعة الموضوعية تسند المواضعات اللغوية لكل جملة معنى موضوعيا يحدِّد شروط صدق موضوعية انطلاقا من بعض عناصر السياق التي نسمي القرائن (indexicals): من هو المتكلم؟ من يستمع إليه؟ ما هو زمن ومكان التلفظ؟ ما هي الأشياء التي تحيل عليها ألفاظ من قبيل «هذا» أو «ذاك» إلخ؟ فالمعنى الموضوعي للجملة لا يرتبط، إذن، بالطريقة التي يفهمها بها شخص معين، أو هل فهمها على الإطلاق. فمثلا، يمكن أن ندرب ببغاء على التلفظ بالجملة التالية: «يهطل المطر»، دون أن يفهم معنى هذه الجملة. إلا أنه، سواء تلفظ بها ببغاء أو إنسان، فإنه يظل لها نفس المعنى الموضوعي، وستكون صادقة إذا كان المطر يهطل فعلا، وكاذبة إذا لم يكن المطر يهطل. إن الفرد، بحسب التصور الموضوعي للمعنى، يفهم المعنى الموضوعي لجملة ما إذا فهم الشروط التي تكون فيها هذه الجملة صادقة أو كاذبة.

فذو النزعة الموضوعية لا يسلم بوجود شروط الصدق والكذب الموضوعية فحسب، بل يسلم بأن الناس ينفُذون إليها أيضا. ويعتبر هذه المسألة بدهية ويكفيك أن تنظر حولك. فإذا وُجد قلم على الأرض، فإن الجملة التالية: «يوجد قلم على الأرض» صادقة، وإذا كنت تتكلم اللغة [العربية] وتدرك القلم على الطاولة فإنك ستعتبرها، بحق، صادقة. ويسلِّم بأن هذا النوع من الجمل صادق أو كاذب موضوعيا. وأننا ننفذ إلى ما لا حصر له

من الأشياء الصادقة. وبما أن الناس يستطيعون فهم الشروط التي تكون فيها جملة ما صادقة موضوعيا، فإنه بالإمكان أن تتوافر للغة مواضعات إسناد هذه المعاني الموضوعية إلى الجمل. وبهذا - بحسب النزعة الموضوعية دائما - فالمواضعات التي تتوافر للغة لقرن الجمل بالمعاني الموضوعية ترتبط بقدرة متكلمي هذه اللغة على فهم جملة ما باعتبارها تملك ذلك المعنى الموضوعي. ولهذا، فحين يتحدث ذوو النزعة الموضوعية عن فهم المعنى (الحرفي) لجملة ما، فإنهم يتحدثون عن فهم ما يجعل الجملة صادقة أو كاذبة موضوعيا. وعموما، فمفهوم الفهم عند النزعة الموضوعية مقصور على فهم شروط الصدق أو الكذب.

وليس هذا ما عنيناه بـ«الفهم». فحين نقول إن ذا النزعة الموضوعية ينظر إلى المعنى باعتباره مستقلا عن الفهم، فإننا نقصد «الفهم» بالمعنى الذي أعطيناه إياه، وليس بالمعنى الذي يقصده هو.

المعنى متجرد

إن المعنى الموضوعي، بحسب النزعة الموضوعية، ليس معنى *بالنسبة* للفرد. ويقال إن للتعابير في اللغة الطبيعية معنى موضوعيا فقط إذا كان هذا المعنى مستقلا عن كل ما يمكن أن تقوم به الكائنات البشرية، سواء في كلامها أو في تصرفاتها. وبعبارة أخرى، فعلى المعنى أن يكون متجردا. ففريجه، مثلا، يميز «المعنى» (sinn)، وهو المعنى الموضوعي المسنَد إلى دليل لغوي معين، عن «الفكرة»، التي تنتج «عن الذكريات والانطباعات المؤثرة التي حصلت لنا، والأنشطة الداخلية والخارجية التي انكببنا عليها (...). والفكرة ذاتية (...). وعلى ضوء ذلك، يمكن أن نتحدث، بكل بساطة وبدون أي تردد، عن المعنى أما بالنسبة للفكرة، فعلينا - إذا أردنا الصرامة والدقة - أن نضيف إلى من تنتمي وما هو زمنها» (فريجه (1966)، ص. 59-60)

فالمعنى، عند فريجه، معنى موضوعي ومتجرد. ويُربَط بكل عبارة لغوية في لغة ما معنى متجرد. وهذا يذكرنا باستعارة **المجرى**، حيث «المعنى كامن في الألفاظ».

وقد استمر تصور فريجه إلى أيامنا هاته في أعمال ريشار مونتيغيو وعدة أعمال أخرى. ولا عمل من هذه الأعمال الدلالية يَعتبر معنى جملة ما مرتبطا بالكيفية التي يفهمها بها الكائن البشري. ويقر مونتيغيو قائلا: «مثل دونالد دافدسن Donald Davidson، أعتبر بناء نظرية للصدق - أو بالأحرى، للمفهوم الأعم للصدق في إطار تأويل اعتباطي - الهدفَ الأساسي لتركيبٍ ودلالةٍ جديَين» ((1974)، ص. 188). الكلمتان المهمتان هنا هما «التأويل الاعتباطي». فمونتيغيو يسلم بأن نظريات المعنى والصدق مشاريع رياضية صرف. ولذلك كان هدفه الحفاظ على «التأويل الاعتباطي» الذي لا يؤثر فيه شيء له علاقة بالكائنات البشرية، وخصوصا تلك المسائل المتعلقة بالجانب النفسي أو جانب الفهم عند الإنسان. إنه يريد أن ينطبق عمله على أي نوع من الكائنات في الكون، ويكون متجردا من كل حدود يفرضها أي نوع خاص من الكائنات.

مطابقة الألفاظ للعالم دون حاجة إلى الناس أو إلى الفهم البشري

تعد الدلالة، بالنسبة للتقليد ذي النزعة الموضوعية، دراسةً للطريقة التي تطابق بها العباراتُ اللغوية العالمَ بشكل مباشر دون تدخل الفهم البشري. ولعل أوضح صياغة لهذا الموقف تلك التي قدمها دافيد ليويس David Lewis:

«لن نطابق اقتراحاتي ما ينتظره أولئك الذين، إن حللوا المعنى، اتجهوا مباشرة إلى ما هو نفسي واجتماعي عند مستعملي اللغة: إلى النوايا، والتجربة الحسية، والأفكار الذهنية، والقواعد الاجتماعية، والمواضعات، والاطرادات. إنني أميز بين موضوعين: أولا، وصف اللغات أو الأنحاء الممكنة باعتبارها أنسِقة دلالية مجردة تُربَط فيها الرموز بمظاهر العالم. وثانيا، وصف الوقائع النفسية والاجتماعية التي يستعمل في إطارها فرد معين أو عشيرة لغوية معينة أحد هذه الأنساق المجردة. والخلط بين هذين الموضوعين لا يخلق سوى الغموض» (ليويس (1972)، ص. 170).

هنا، يتبع ليويس ممارسة مونتيغيو في محاولته تفسير كيفية مطابقة اللغة للعالم - أي «كيفية ارتباط الرموز بمظاهر العالم» - وذلك بطريقة عامة جدا واعتباطية لكي توافق كل الوقائع النفسية والاجتماعية التي تخص استعمال وفهم اللغة عند البشر.

تأسس كل نظرية للمعنى على نظرية للصدق

إن إمكان رصد الصدق الموضوعي، في استقلال عن أي فهم بشري، يتيح إمكان قيام نظرية للمعنى الموضوعي. فحسب التصور ذي النزعة الموضوعية، بإمكان جملةٍ أن تطابق بذاتها العالم أو لا تطابقه. وإذا طابقته فهي صادقة، وإذا لم تطابقه فهي كاذبة. وهذا ينشئ مباشرة رصدا للمعنى مؤسسًا على الصدق. ومرة أخرى، يصوغ دافيد ليويس ذلك بشكل أوضح: «إن معنى الجملة هو ما يحدد الشروط التي تكون فيها صادقة أو كاذبة» ((1972)، ص. 173).

وقد تم تعميم ذلك من أجل إسناد معنى إلى الجمل الإنجازية (performative sentences)، كما في الأوامر والوعود، انطلاقا من التقنية التي اقترحها لايكوف (1972) وليويس (1972). وتحدِّد هذه التقنية الصدقَ عن طريق «مطابقة العالم»، التي تحدَّد تقنيا بواسطة شروط إرضاء في إطار نموذج معين. وقد حُددت شروط نجاح الأفعال اللغوية (speech acts) بصورة مماثلة من خلال شروط الإرضاء أو «مطابقة العالم». وننبه إلى أننا، حين نتحدث عن «الصدق» و«الكذب» أسفله، فينبغي أن يُفهَم أننا نتحدث من خلال شروط إرضاء، وأننا نُدخل فيها الأفعال اللغوية والإثباتات (أو الإخبارات).

المعنى مستقل عن الاستعمال

يقتضي رصد الصدق، عند النزعة الموضوعية، أن يكون المعنى موضوعيا بدوره. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه ينبغي إقصاء كل العناصر الذاتية - أي كل ما هو مميِّز لسياق خاص، أو مرتبط بالثقافة أو بصيغة فهم خاصة. وكما يقول دونالد دافدسن، إنه «يمكن

أن يُسنَد معنى حرفي وشروط صدق إلى الألفاظ والجمل في استقلال عن سياقات استعمال خاصة» ((1978)، ص. 33).

المعنى تأليفي: نظريات المكونات المبنية

تَعتبر أسطورة النزعة الموضوعية العالَـم مكـونا من أشياء لها خصائص تلازمها، وهي محدَّدة في استقلال عن الكائنات التي تمارس تجربتها. ولها علاقات ثابتة في ما بينها في أي نقطة من الزمن ومظاهر أسطورة النزعة الموضوعية هاته هي التي سمحت بإمكان قيام نظرية للمعنى انطلاقا من المكونات الجزئية التي تبني المعنى. فإذا كان العالم مشكلا من أشياء محددة بشكل واضح، فإنه بالإمكان أن نسميها في اللغة. وإذا كان لهذه الأشياء خصائص ملازمة محددة بشكل جيد، فإن اللغة ستتضمن محمولات ذات موضوع واحد توافق كل خاصية من هذه الخصائص. وإذا كان لهذه الأشياء علاقات ثابتة في ما بينها (على الأقل في لحظة معينة)، فإن اللغة ستتضمن محمولات ذات موضوعات متعددة توافق كل علاقة من هذه العلاقات الثابتة.

وعلى افتراض أن العالم هو بهذا الشكل الذي هو عليه، وأن لغة كهاته لغة موجودة، فإنه يمكن - باستعمالنا لتركيب هذه اللغة - أن نبني جملا توافق، بصورة مباشرة، أيَّ وضع في العالم. وسيكون معنى الجملة برمتها هو شروط صدقها، أي تلك الشروط التي يمكن أن توافق الجملةُ بمقتضاها وضعا معينا. وسيرتبط معنى الجملة برمتها كلية بمعاني أجزائها، وبكيفية تآلفها مع بعضها. ومعاني الأجزاء هي التي تحدد أيَّ أسماء تنتقي أيَّ أشياء، وأي محمولات تنتقيَ أي خصائص وعلاقات.

إن نظريات المعنى ذات النزعة الموضوعية كلها تأليفية من حيث طبيعتها، أي أنها كلها نظريات للمكونات المبنية؛ وعليها أن تكون كذلك. والسبب في ذلك، بحسب ذوي النزعة الموضوعية، أن العالم مكوَّن من مكونات مبنية: أشياء محددة، وخصائص ملازمة، وعلاقات محددة بشكل واضح. وعلاوة على ذلك. فعلى كل جملة في اللغة أن تحتوي كل مكونات البناء الضرورية، وبتنظيمها بواسطة التركيب لا نحتاج إلى شيء آخر كي نحدد شروط صدق الجملة. وما تلغيه عبارة «شيء آخر» هو أي نوع من الفهم البشري.

تسمح النزعة الموضوعية بالنسبية الوجودية بدون فهم بشري

كان الوضعيون المناطقة (أمثال كارناب Carnap) يرمون إلى تحقيق برنامج ذي نزعة موضوعية، إذ حاولوا بناء لغة صورية (منطقية) تنطبق بشكل كلي، ولها كل الخصائص التأليفية المشار إليها أعلاه، وكل المميزات الأخرى التي ناقشناها لحد الآن. وقد قال مونتيغيو (1974) إنه أتى بنحو كلي قادر على رصد اللغات الطبيعية بواسطة تلك اللغة الصورية الكلية.

وقد تصدى كواين Quine لهذه الادعاءات ذات النزعة الكلية، محتجا بأن لكل لغة وجودها الخاص، وأن كل ما يمكن أن يكون شيئا أو خاصية أو علاقة كلها أمور تختلف من لغة إلى أخرى. وقد عُرف هذا الموقف بأطروحة «النسبية الوجودية».

ومن الممكن الاحتفاظ بهذه الأطروحة في إطار البرنامج ذي النزعة الموضوعية، دون اللجوء إلى الفهم البشري والاختلاف الثقافي. وهذا الموقف النسبي يتخلى عن بناء لغة منطقية وحيدة تنطبق بصورة كلية، وتُترجم إليها كل اللغات بشكل كاف. ويقترح، عوض ذلك، أن كل لغة طبيعية تُقطِّع ما يوجد في العالم بطريقتها، وذلك بأن ننتقي دائما الأشياء والخصائص والعلاقات التي تَوجَد حقيقة. إلا أنه، بما أن اللغات المختلفة قد يكون لها وجود مختلف، فلا شيء يضمن أن تكون لغتان عموما متكافئتين.

وبهذا، فإن الصياغة النسبية للطرح ذي النزعة الموضوعية بخصوص المعنى تدعي أن المعنى وشروط الصدق مسائل معطاة بصورة موضوعية، إلا أنها نسبية بالنظر إلى لغة معينة، وليست كلية. وهذه النزعة الموضوعية النسبية تنخرط مرة أخرى في أسطورة النزعة الموضوعية، وذلك بإقرارها بوجود الصدق الموضوعي، وأنه توجد أشياء في العالم لها خصائص تلازمها. إلا أنه، تبعا لهذا الطرح، قد لا تُترجَم التعابير الصادقة في لغة معينة إلى لغة أخرى، بما أن كل لغة تقدم العالم بطريقتها. والحال أن الكيانات التي تنتقيها اللغة لها وجود موضوعي باعتبارها كيانات. وبهذا، فالصدق والمعنى ما يزالان موضوعيين في هذا الطرح (رغم أنهما نسبيان بالنظر إلى لغة معطاة)، وما زال الفهم البشري ملغى باعتباره غير وارد.

العبارات اللغوية أشياء: تلك هي المقدمة المنطقية للسانيات ذات النزعة الموضوعية

بحسب أسطورة النزعة الموضوعية، للأشياء خصائص في ذاتها ولذاتها، وتعقد علاقات في ما بينها في استقلال عن أي كائن يفهمها. إن الكلمات والجمل حين تُكتَب نعالجها بسهولة باعتبارها أشياء. وتلك هي المقدمة المنطقية للسانيات ذات النزعة الموضوعية منذ نشأتها في العصور القديمة إلى الآن: العبارات اللغوية أشياء لها خصائص في ذاتها ولذاتها، وتعقد علاقات ثابتة في ما بينها، وذلك في استقلال عن أي فرد يتكلمها أو يفهمها. فهي، مثل الأشياء، لها أجزاء تشكلها: فالكلمات مكونة من جذور وسوابق ولواحق ودوامج (infixes)، والجمل مكونة من كلمات ومركبات، والخطابات مكونة من جمل. ففي لغة ما، تتنوع العلاقات بين الأجزاء، وترتبط بتأليف المكونات وبخصائصها الملازمة. ودراسة هذه البنية التأليفية والخصائص الملازمة للأجزاء والعلاقات بينها هو ما يسمى تقليديا *النحو*.

تَعتبر اللسانيات ذات النزعة الموضوعية نفسَها المقاربة اللسانية *العلمية* الوحيدة. فعلى الأشياء أن تُحلَّل في ذاتها، في استقلال عن السياقات وعن الكيفية التي يفهمها بها الناس. وكما هو الأمر في الفلسفة ذات النزعة الموضوعية، نجد التقليد التجريبي والتقليد

العقلاني في اللسانيات. فالتقليد التجريبي، الذي تمثله البنيوية الأمريكية التي يتزعمها بلومفيلد Bloomfield وهاريس Harris وتلامذتهما، يعتبر النصوصَ الأشياءَ الوحيدة القابلة للدراسة. أما التقليد العقلاني، الذي تمثله البنيوية الأوربية في شخص ياكبسون Jakobson، وبعض الوجوه الأمريكية أمثال سابير Sapir وورف Whorf وشومسكي، فيرى أن للغة واقعا ذهنيا، وأن العبارات اللغوية أشياء لها واقعية ذهنية.

النحو مستقل عن المعنى وعن الفهم

رأينا سابقا كيف تنجب أسطورة النزعة الموضوعية تصورا للغة تُعتبر فيه العبارات اللغوية أشياء ذات خصائص ملازمة، ولها بنية تأليفية، وعلاقات ثابتة بين الأشياء. وبحسب أسطورة النزعة الموضوعية، فالأشياء اللغوية مستقلة عن الكيفية التي يفهمها بها الناس. وبما أنها أشياء، فإنه بالإمكان دراستها في استقلال عن أي معنى أو أي فهم بشري.

يتلخص هذا التقليد في لسانيات نوام شومسكي، الذي دافع دفاعا راسخا عن صورية النحو، في استقلال عن المعنى وعن الفهم البشري. وإذا كان مظهر لغوي ما يستدعي الفهم البشري، فإنه يكون بالضرورة خارج دراسة النحو. واستعمال شومسكي لمفهوم *القدرة*، في مقابل *الإنجاز*، عبارة عن محاولة لتحديد بعض مظاهر اللغة باعتبارها الأشياء الوحيدة التي يحق للسانيات العلمية - أي ما أسميناه باللسانيات ذات النزعة الموضوعية في حلتها العقلانية - أن تدرسها. ويدخل شومسكي في هذه المظاهر كل المسائل الصورية الصرف، ويلغي كل ما يرتبط بالفهم البشري والاستعمال اللغوي. ورغم اعتبار شومسكي اللسانيات فرعا من علم النفس، فإن هذا الفرع مستقل عنده، ولا يرتبط البتة بالطريقة التي يفهم بها الناس اللغة.

نظريات التواصل ذات النزعة الموضوعية: صياغةٌ معينة لاستعارة *المجرى*

تعد المعاني والعبارات اللغوية، في اللسانيات والفلسفة ذاتَي النزعة الموضوعية، أشياء لها وجود مستقل. وهذا الطرح يعطينا نظرية للتواصل توافق بشكل واسع استعارة **المجرى**:

المعاني أشياء

العبارات اللغوية أشياء

للعبارات اللغوية معان (في ذاتها).

فخلال التواصل يوجه المتكلم معنى ثابتا إلى السامع بواسطة العبارات اللغوية المربوطة بذلك المعنى. وبحسب هذا التصور، فإنه بالإمكان، موضوعيا، أن نقول ما نعنيه فعلا، وتكون الإخفاقات في التواصل عبارة عن أخطاء ذاتية. وبما أن المعاني تمثلها موضوعيا الكلمات، فإن هذه الأخطاء لا يمكن أن تأتي إلا من مصدرين: إما أنك لم تستعمل الكلمات المناسبة في قولك لما تعنيه، وإما أنك فُهمت خطأ.

ما يمكن أن تكون عليه مقاربة المعنى ذات النزعة الموضوعية

سبق أن تحدثنا عما يعنيه ذو النزعة الموضوعية بفهم المعنى الحرفي الموضوعي لجملة ما، وهو فهم الشروط التي تكون بمقتضاها الجملة صادقة أو كاذبة موضوعيا. على أن ذوي النزعة الموضوعية يعترفون بأن الفرد قد يفهم جملة ما، في سياق معطى، باعتبارها تعني شيئا آخر غير معناها الحرفي الموضوعي. وهذا المعنى الآخر هو ما يُصطلح عليه عادة باسم «معنى المتكلم» أو «معنى المتلفِّظ». كما يقر ذوو النزعة الموضوعية عادة بأنه على أي رصد تام للفهم أن يعالج هذه الحالات أيضا (انظر غرايس (1957) Grice).

لنأخذ، مثلا، الجملة التالية: «إنه عبقري حقا»، التي قد نتلفظ بها في سياق يشير بوضوح إلى التهكم فبحسب المقاربة ذات النزعة الموضوعية، لهذه الجملة معنى موضوعي، وهو أن الشخص المعني له قدرات فكرية كبيرة. إلا أن التلفظ بهذه الجملة على سبيل التهكم يُقصَد به المعنى المناقض، وهو أن الشخص المعني يتمتع بكامل الغباء. إن معنى *المتكلم* هنا نقيض المعنى الموضوعي للجملة

ويمكن تمثيل تحليل معنى المتكلم هذا في سياق السخرية كالتالي:

(أ) يقصد المتكلم، بتلفظه بالجملة ج (ج = «إنه عبقري حقا») التي لها المعنى الموضوعي م (م = له قدرات فكرية كبيرة)، أن ينقل إلى السامع المعنى الموضوعي م' (م' = إنه غبي جدا).

هذه هي الكيفية التي يُرصد بها المعنى عند أحدهم في إطار النزعة الموضوعية. إن (أ) شيء قد يكون صادقا أو كاذبا موضوعيا في سياق معطى. وإذا كانت (أ) صادقة فإن ج («إنه عبقري حقا») قد تعني *إنه غبي جدا* عند كل من المتكلم والسامع، إذا تعرف السامع نوايا المتكلم.

وهذه التقنية، التي أتتنا من منظري الأفعال اللغوية، تبناها التقليد ذو النزعة الموضوعية باعتبارها طريقة لقيام المعنى عند أحدهم خارج معنى الجملة الموضوعي، أي خارج شروط صدقها أو كذبها الموضوعيين. وهذه الحيلة التقنية تستدعي استعمال معنيين موضوعيين، وهما م وم'، مرفقين بالصورة (أ) التي لها، بدورها، معنى موضوعي، إذ ترصد معنى المتكلم ومعنى السامع، أي المعنى *بالنسبة* إلى شخص معين. وهذا يقتضي، طبعا، أن نتعرف نوايا المتكلم باعتبارها حقيقية موضوعيا، الشيء الذي قد ينكره بعض ذوي النزعة الموضوعية.

يعد المثال الذي سقناه أعلاه من أمثلة التهكم، حيث إن م وم' لهما معنيان متعارضان، أي أن لهما شروط صدق متعارضة. وإذا تحدثنا بشكل حرفي فإنه يجب أن يكون لدينا م = م'. ويرى البرنامج ذو النزعة الموضوعية في ذلك تقنية عامة ترصد كل حالات المعنى عند الفرد، وخاصة الحالات التي يقول فيها المتكلم شيئا ويعني به شيئا آخر، كما في المبالغة، والتصريح (understatement)، والتلميحات، والسخرية، وكل ما

كان مجازيا في اللغة - والاستعارة بخاصة. إن تحقيق برنامج كهذا يقتضي صياغة مبادئ عامة تجيب عن السؤال التالي:

> لدينا الجملة ج ومعناها الحرفي م، ولدينا المعرفة الواردة في السياق. ما هي المبادئ الخاصة التي تسمح لنا بالتنبؤ بمعنى *المتكلم*، وهو م'، في هذا السياق؟

ينطبق الأمر، بالخصوص، على حالة الاستعارة. فالجملة التالية: «هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص»، مثلا، سيكون لها - بحسب النزعة الموضوعية - معنى حرفي موضوعي (م) وهو كاذب. فهو يعني أن *هذه النظرية مصنوعة من مواد بناء رخيصة*. والمعنى الحرفي الموضوعي كاذب، لأن النظريات ليست نوعا من الأشياء نصنعه بواسطة مواد البناء. إلا أنه قد يكون للجملة أعلاه معنى يقصده المتكلم (م')، وقد يكون صادقا، وهو: *هذه النظرية ضعيفة*. ويكمن المشكل، في هذه الحالة، في إعطاء مبادئ تأويل عامة ينتقل المتكلم بموجبها من الجملة ج («هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص») إلى معنى المتكلم المقصود م' (هذه النظرية ضعيفة)، وذلك عبر المعنى الموضوعي م (هذه النظرية مصنوعة من مواد بناء رخيصة).

يرى ذوو النزعة الموضوعية كل الاستعارات حالات تعكس معانيَ غير مباشرة، حيث م = م'. ولكن الجمل المحتوية على استعارات معان موضوعية قد تكون كاذبة بصورة صارخة (مثل: «هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص»)، أو صادقة بصورة بدهية (مثل: «كان موسوليني حيوانا»). إن فهم جملة ما (ولتكن: «هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص») باعتبارها استعارية يقتضي دائما أن نفهمها بصورة غير مباشرة، على اعتبار أنها تفيد معنى موضوعيا م' (= هذه النظرية ضعيفة) يختلف عن المعنى الموضوعي الحرفي م (= هذه النظرية مصنوعة من مواد بناء رخيصة).

ونظرية الفهم ذات النزعة الموضوعية أساسُها، أيضا، تصورها للصدق الموضوعي. فهي تتضمن نوعين من الفهم: المباشر وغير المباشر. الفهم المباشر هو فهم المعنى الحرفي الموضوعي للجملة من خلال الشروط التي يمكن أن تكون بموجبها صادقة أو كاذبة. أما الفهم غير المباشر فيستدعي أن نتبين متى يكون المتكلم مستعملا الجملة لإفادة معنى غير مباشر ومتى يكون المعنى المراد مفهوما *بشكل مباشر* من خلال شروط الصدق الموضوعية.

هناك أشياء أربعة تستتبع الآلية التي ترصد بها النزعة الموضوعية الاستعارة:

- بحكم التعريف، *لا يمكن أن نقول إن هناك تصورات استعارية أو معان استعارية*. فالمعاني موضوعية، وتوافق شروط الصدق الموضوعي. إنها طرق لتخصيص العالم كما هو، أو كما يبدو. وشروط الصدق الموضوعي لا تزودنا، ببساطة، بوسائل نتصور بها شيئا من خلال شيء آخر. وبهذا، فالمعاني الموضوعية لا يمكن أن تكون استعارية.
- *بما أن الاستعارة لا يمكن أن تكون مسألة تخص المعنى، فإنها مسألة تخص اللغة فقط* [أي الألفاظ]. إن استعارة ما، بحسب الرأي ذي النزعة الموضوعية، يمكن - في أحسن الأحوال - أن تمدنا بطريقة غير مباشرة *للحديث* عن المعنى الموضوعي م'،

وذلك باستعمال اللغة التي تُستعمل حرفيا للحديث عن معنى موضوعي آخر م، وهو معنى كاذب دائما، وبشكل صارخ.

- *بحكم التعريف مرة أخرى، لا وجود لشيء اسمه الاستعارة الحرفية (التواضعية).* تُستعمل جملة ما حرفيا حين يكون م' = م، أي حين يكون معنى المتكلم هو المعنى الموضوعي. ولا يمكن أن نوجد استعارة إلا في الحالة التي تكون فيها م' = م. وبهذا، فالحديث عن استعارة حرفية، بحسب النزعة الموضوعية، يعتبر تناقضا فاللغة الحرفية لا يمكن أن تكون استعارية.

- *لا يمكن للاستعارة أن تسهم في الفهم إلا إذا جعلتنا ندرك مشابهات موضوعية، أي مشابهات بين المعنيين الموضوعيين م و م'.* وعلى هذه المشابهات أن ترتكز على خصائص تلازم الأشياء، أي خصائص تملكها الأشياء حقيقة.

وهكذا نرى أن تصور المعنى عند النزعة الموضوعية يتعارض تماما مع ما اقترحناه في هذا الكتاب. فهذا الطرح حول المعنى والاستعارة وُجد منذ عصر الإغريق، ويطابق استعارة المجرى (التي تقول: «يوجد المعنى في الكلمات والألفاظ»)، كما يطابق أسطورة النزعة الموضوعية.

27. كَيْفَ تَكْشِفُ الاسْتِعَارَةُ حدودَ أسطُورة النّزعةِ الموضوعيّة؟

ينحدر جوهر التقليد ذي النزعة الموضوعية في الفلسفة مباشرة من أسطورة النزعة الموضوعية: العالم مكوّن من أشياء معزولة لها خصائص تلازمها، وتعقد علاقات ثابتة في ما بينها في كل زمن. وندافع، اعتمادا على براهين لغوية (الاستعارة بالخصوص)، على أن الفلسفة ذات النزعة الموضوعية تخفق في تفسير الكيفية التي نفهم بها تجربتنا وتفكيرنا ولغتنا. فالتفسير الكافي يستلزم، بحسب ما ندافع عنه، ما يلي:

- أننا لا ندرك الأشياء إلا باعتبارها كيانات مرتبطة بتفاعلاتنا مع العالم وبالإسقاطات التي نمارسها عليه.
- أننا ندرك الخصائص باعتبارها تفاعلية، وليس باعتبارها ملازمة للأشياء.
- أننا ندرك المقولات باعتبارها جشطلتات تجريبية تحددها طرازات، ولسنا ندركها باعتبارها ثابتة بصرامة ومحدّدة انطلاقا من نظرية المجموعة.

في رأينا، تعد المشاكل المتعلقة بالمعنى في اللغة الطبيعية، وبالطريقة التي يفهم بها الناس لغتهم وتجاربهم، مشاكل أمبريقية، وليست مسلمات فلسفية *قبلية*. وقد انتقينا الاستعارة والطريقة التي نفهمها بها من بين عدة مجالات برهانية ممكنة تمس هذه المشاكل. وقد ركزنا على الاستعارة للأسباب الأربعة التالية:

تعد الاستعارة، في التقليد ذي النزعة الموضوعية، مسألة هامشية في أحسن الأحوال. وهي مقصاة تماما من الدراسة الدلالية (أي دراسة المعنى الموضوعي). وورودها هامشي فقط في رصد الصدق.

إلا أننا وجدنا أن الاستعارة لا تكتسح لغتنا فحسب، بل نسقنا التصوري بأكمله. ويبدو لنا أنه لا يعقل ألا تكون هذه الظاهرة الجوهرية في نسقنا التصوري مركزية في أي رصد للصدق والمعنى.

لقد لاحظنا أن الاستعارة تمثل آلية من الآليات الأكثر جوهرية التي نملكها في فهمنا لتجربتنا. وهذه الملاحظة لا تساير التصور ذا النزعة الموضوعية الذي يرى أن للاستعارة قيمة هامشية في رصد المعنى والصدق؛ وأنها تلعب، في أحسن الأحوال، دورا هامشيا في الفهم.

لقد وجدنا أن بإمكان الاستعارة أن تبدع معنى جديدا، ومشابهات جديدة، وبذلك يمكن أن ترسم حقيقة جديدة. وهذا الطرح لا مكان له في تصور النزعة الموضوعية المعيار للعالم.

تفسير النزعة الموضوعية للاستعارة الوضعية

إن عددا من الوقائع التي ناقشناها سابقا معروف منذ زمن طويل لدى التقليد ذي النزعة الموضوعية، إلا أنها أُوِلَت بشكل يخالف كليةً تأويلنا

فالتصورات الاستعارية الوضعية التي نعتبرها تُبنين نسقنا التصوري اليومي يعتبرها ذوو النزعة الموضوعية غير موجودة وترتبط الاستعارات، في نظرهم، باللغة فحسب، ولا توجد أشياء اسمها التصورات الاستعارية.

إن الألفاظ والعبارات التي نعتبرها أمثلة للتصورات الاستعارية (مثل: هضم في قولنا: «لا يمكن أن أهضم هذا الكلام») لن يعتبرها ذوو النزعة الموضوعية أبدا أمثلة للاستعارة الحية. إن هضم، في نظرهم، لها معنيان حرفيان (موضوعيان) مختلفان متمايزان: هضم$_1$ للأكل، وهضم$_2$ للأفكار وبحسب هذا التفسير، ستكون لدينا كلمتان مشتركتان لفظيا، كما في اللفظين عين (= منبع الماء، وحاسة البصر).

ويمكن لذي نزعة موضوعية أن يسلم بأن هضْم *الفكرة* كان تعبيرا استعاريا *في البدء*، إلا أنه سيزعم بأنه لم يعد استعارة الآن. فهذه العبارة، في رأيه، «استعارة ميتة» لأنه أصبح متواضَعا عليها وبذلك فإن لها معناها الحرفي الخاص بها. وهذا معناه أنه لدينا لفظان هضم مشتركان لفظيا.

وقد يسلم ذو النزعة الموضوعية، بدون شك، بأن للفظين هضم$_1$ و هضم$_2$ معنيين متشابهين، وأن هذه المشابهة هي أساس الاستعارة الأصلية. وهذا يفسر، برأيه، استعمال نفس اللفظ للتعبير عن معنيين مختلفين: فقد كان الأمر بدءا استعارة، ثم أصبحت هذه الاستعارة جزءا من اللغة متواضَعا عليه، ثم ماتت وأصبحت متحجرة. وبذلك أضحى معناها الاستعاري القديم معنى حرفيا جديدا

وسيلاحظ ذو النزعة الموضوعية أننا قد نظل مدركين، في عدد من الحالات، للمشابهات التي كانت تتأسس عليها الاستعارة الميتة.

فتبعا للتفسير ذي النزعة الموضوعية، كانت الاستعارة الأصلية مرتبطة بالاستعمال وبالمعنى الذي يريده المتكلم، وليس بالمعنى الموضوعي الحرفي. وقد تولدت هذه الاستعارة انطلاقا من صيغة معنى المتكلم العامة مطبّقة على هذه الحالة (حيث كانت هضم تحيل على الغذاء فقط):

بتلفظ المتكلم بالجملة ج (ج = «لا أستطيع هضم أفكاره») ذات المعنى الحرفي الموضوعي م (م = لا أستطيع تحويل أفكاره، عن طريق نشاط عضلي وكيماوي في القناة الغذائية، إلى شكل يتمكن جسمي من امتصاصه)، يقصد أن ينقل إلى المستمع معنى المتكلم م' (م' = لا أستطيع تحويل أفكاره، عن طريق نشاط ذهني، إلى شكل يتمكن ذهني من امتصاصه).

لكي يسري هذا الرصد ذو النزعة الموضوعية، لا بد من أن يصدُق شيئان. أولا، يجب أن يكون المعنى الذي يقصد المتكلم أن يحيل به على الأفكار (وهو م') معنى موضوعيا، أي له شروط صدق موضوعية. وبعبارة أخرى، يجب أن يكون ما يلي صادقا *موضوعيا* بصدد الذهن والأفكار انطلاقا من خصائصهما الملازمة لهما:

- ينبغي أن تكون الأفكار، بمقتضى الخصائص التي تلازمها، نوعا من الأشياء قابلا لأن يكون له شكل، وقابلا للتحويل، وقابلا لأن يمتصه الذهن.
- ينبغي أن يكون الذهن، بمقتضى الخصائص التي تلازمه، نوعا من الأشياء التي تنجز أنشطة ذهنية، وتحولا لأفكار، وتمتصها فتُدخلها

ثانيا، ينبغي أن تكون الاستعارة قد تأسست أصلا على مشابهات موجودة من قبل بين م وم'. ومعنى ذلك أنه يجب أن يكون للذهن وللقناة الغذائية خصائص ملازمة مشتركة، مثلما يجب توافر خصائص مشتركة ملازمة للغذاء والأفكار.

لنلخص ما سبق. على تحليل هضم، باعتبارها استعارة ميتة، أن يفترض ما يلي:

- يحيل اللفظ هضم، في الأصل، على تصور الغذاء.
- تحوّل اللفظ هضم، بواسطة استعارة «حية»، إلى معنى موضوعي موجود من قبل في عالم الأفكار، وذلك على أساس التشابهات الموضوعية الموجودة قبلا بين الغذاء والأفكار.
- بعد ذلك «ماتت» الاستعارة، وأصبح الاستعمال الاستعاري لعبارة هضُم *الفكرة* وضعيا. وبهذا حصل لفظ هضم على معنى حرفي موضوعي ثان، وهو المعنى الذي يظهر في م'. ويُعتبر ذلك، في رأي التحليل ذي النزعة الموضوعية، طريقة نموذجية لتوفير ألفاظ تعبر عن معان موجودة قبلا ليست لها ألفاظ تعبر عنها. وكل الحالات التي تشبه هاته الحالة ستعتبر من المشترك اللفظي.

وعموما، سيكون على ذي النزعة الموضوعية أن يعالج *كل* معطيات استعاراتنا الوضعية سواء انطلاقا من موقف الاشتراك اللفظي (في صيغته الضعيفة نموذجيا)، أو انطلاقا من الموقف التجريدي. وكلا الموقفين يتوقف على توافر مشابهات موجودة قبلا أساسها الخصائص الملازمة.

- ما هو المشكل في الرصد الذي تقدمه النزعة الموضوعية؟

يفرض رصد الاستعارات الوضعية في النزعة الموضوعية، كما رأينا سابقا، إما تصورا تجريديا وإما تصورا قائما على الاشتراك اللفظي. وعلاوة على ذلك، فهذا الرصد يتأسس،

سواء في تحليله لـلاستعارات الوضعية أو لـلاستعارات غير الوضعية، على مشـابهات ملازمة موجودة قبلا. وقـد قدمنا سابقا حججا مفصلة ضـد كل هذه الأشياء. ولهذه الحجج أهمية خاصـة الآن: *إنها لا تبين أن تصـور الاستعـارة عنـد النـزعـة الموضـوعيـة غير كـاف فحسب، بل أن هـذا البرنامج بـرمته مـؤسس على ادعاءات خـاطئة.* ولكي نطلـع على نقط ضعف رصـد الاستعارة في النـزعة الموضـوعية، سنُـذكّر بـالأجزاء الـواردة من انتقاداتنـا بخصوص التجريد والاشتراك اللفظي والمشابهة، كما وردت في التحليل ذي النزعة الموضوعية للاستعارة *الوضعية*.

موقف المشابهة

رأينا، في نقاشنا لاستعارة **الأفكار أغذية**، أنه بالرغم من أن هذه الاستعارة تتأسس على مشـابهات، فهـذه المشابهات نفسهـا ليست مـلازمـة، بل تتأسس على استعـارات أخـرى، وخصوصا الاستعارات التالية: **الأفكار أغذية**، **والذهن وعاء**، واستعارة **المجرى**. إن اعتبار **الأفكارِ أشياء** إسقاط لمنزلـة الكيان على الظاهرة الـذهنية، وذلك عبر استعارة أنطـولوجية. واعتبارَ **الذهنِ وعاءً** إسقاط لمنزلـة الكيان وللاتجاه **داخل – خارج** على ملكتنا المعرفية [أي نشاط الذهن]. وهذه الأشيـاء ليست *خصائص موضـوعية تلازم* **الأفكار والـذهن**. إنها *خصائص تفاعلية* تعكس الكيفية التي ندرك بها الظاهرة الذهنية انطلاقا من الاستعارة.

والشيء نفسه يسري على تصورنا **للزمن وللحب**. إننا نفهم جملا من قبيل: «جاء زمن الجد والعمل»، و«نحتاج إلى تـدبير محكم لوقتنا»، من خـلال استعارتي **الزمن شيء متحرك** **والزمن مال**، تبـاعا. إلا أنـه، إذا اتبعنـا التحليل الـذي تقدمـه النـزعة الموضـوعيـة لهذين المثـالين، فلن يتعلق الأمـر باستعـارتين. إن *جاء* و*تدبير*، في هـاتين الجملتين، سيكونـان استعارتين ميتتين، أي سيكونان من المشترك اللفظي مشتقين من استعارتين حيتين في البدء. وهاتـان الاستعارتان الحيتـان في البدء ستكونـان قد أُسستـا على مشابهات ملازمـة بين الزمن والأشياء المتحركة من جهة، وبين الزمن والمال من جهة أخرى. ولكن هذه المشابهات، كما رأينا، ليست مشابهات ملازمة، فهي نفسها أبدعتها استعارات أنطولوجية.

ومن العسير جدا أن ندافع عن تحليل لصالح المشابهة الملازمة في تعابير تتضمن تصور الحب، كما في «هذه العلاقة لا تسير في أي اتجاه»، و«كانت تجذبني إليها مثل مغناطيس»، و«هـذه العلاقـة تحتضر». فثقافتنـا تمنحنا طـرقا وضعيـة للنظر إلى تجارب الحب من خـلال استعارات وضعية من قبيل **الحب سفر**، **والحب قوة فيزيائية**، ... إلخ. ولغتنا تعكس هذه الأشيـاء. وعلى نقيض ذلك، يَعتبر التحليـل ذو النـزعـة الموضـوعيـة (المؤسَّس سـواء على الاستعارة الميتـة، أو على الاشتراك اللفظي الضعيف، أو على التجـريد) أنـه يجب أن يكون تصور الحب محدّدا بما يكفي من الدقـة من خلال خصائص ملازمة تتضمـن مشابهات تلازم الأسفار، والظاهـرة المغناطيسية والجاذبية، والناس المرضى ... إلخ. هنـا، على ذي النزعة الموضوعية ألا يتحمل عبء الادعاء بأن للحب خصائص تلازمه تشبه الخصائص التي تلازم

الأسفار والمغناطيس والناس المرضى فحسب، بل عليه أن يدعي، كذلك، أن الحب محدّد بما يكفي من الوضوح والدقة من خلال هذه الخصائص التي تلازمه؛ وعلى هذه المشابهات أن توجد.

وبإيجاز، فالتفاسير المعهودة لهذه الظواهر عند النزعة الموضوعية (سواء فُسِّر الأمر بالاستعارة الميتة، أو بالاشتراك اللفظي الضعيف القائم على المشابهات، أو بالتجريد) تتوقف كلها على مشابهات موجودة قبلا تتأسس على خصائص ملازمة. وعموما، فالمشابهات توجد، إلا أنها لا تتأسس على خصائص ملازمة. إن المشابهات تأتي *نتيجةً* للاستعارات التصورية، ولذلك يجب أن تُعتبر مشابهاتٍ بين *خصائص تفاعلية*، وليس بين خصائص *ملازمة*. والقبول بوجود الخصائص التفاعلية لا يتلاءم مع المقدمة المنطقية الرئيسية في الفلسفة ذات النزعة الموضوعية. وهذا ما يدعونا إلى التخلي عن أسطورة النزعة الموضوعية.

تقصير ذوي النزعة الموضوعية: «ذلك لا يخصنا»

إن البديل الوحيد المتبقي لذوي النزعة الموضوعية هو الكف عن إقامة أي علاقة بين معنيي الغذاء والفكرة في تحليلهم هضم من خلال المشابهة (بما في ذلك إنكار أنه كانت توجد استعارة بالمرة)، والالتفات إلى موقف الاشتراك اللفظي القوي. وهذا الموقف يقول إنه يوجد لفظ واحد هو هضم له معنيان مختلفان تماما وغير مترابطين، مثلما يختلف معنيا قرن (*قرن* بعض الحيوان، و*القرن* الذي يساوي مئة سنة). وكما رأينا سابقا (في الفصل الثامن عشر)، فموقف الاشتراك اللفظي القوي لا يمكن أن يرصد:

- النسقية الداخلية،
- والنسقية الخارجية،
- والتوسعات في الجزء المستعمل من الاستعارة،
- واستعمال التجربة الملموسة في بنينة التجربة المجردة،
- والمشابهات التي نراها، بالفعل، بين معنيي هضم، والتي تتأسس على الأفكار المتصورة استعاريا من خلال الغذاء.

وبالطبع، فقد يعترف فيلسوف أو لساني من ذوي النزعة الموضوعية بأنه لا يستطيع أن يرصد، بصورة كافية، هاتين النسقيتين، وهذه المشابهات، وطرق فهم المجرد من خلال الملموس. وذلك لن يزعجه في شيء. وقد يدعي، قبل هذا وذاك، أن رصد مثل هذه الأشياء ليس من اختصاصه. فهذه الأشياء تخص، في نظره، عالم النفس أو دارس فيزيولوجيا الأعصاب أو الفيلولوجي، أو غير هؤلاء. وسيعتبر ذلك، في عرف فريجه، من قبيل تمييز «المعنى» من «الأفكار»، أو تمييز «الأنسقة الدلالية المجردة» من «الوقائع النفسية والاجتماعية»، في عرف ليويس. وطرح الاشتراك اللفظي، كما قد يدعي هؤلاء، كاف لأهدافهم الخاصة باعتبارهم ذوي نزعة موضوعية. وتكمن هذه الأهداف في إيجاد شروط

صدق موضوعية للعبارات اللغوية، وإعطاء تفسير للمعنى الحرفي الموضوعي من خلال هذه الشروط وهذا، كما يدعون، يمكن أن نقوم به في استقلال عن معنيي هضم، دون وجوب تفسير النسقية، أو المشابهة، أو الفهم، . . . إلخ وتبعا لتصورهم لما يدخل في اختصاصهم، لن تتطلب استعمالات هضم الاستعارية الوضعية سوى آلية الاشتراك اللفظي، ولن تتطلب استعارات سواء أكانت ميتة أم حية. فالاستعارات الوحيدة التي يعترفون بها هي الاستعارات غير الوضعية (في مثل: «أفكارك مصنوعة من آجر رخيص»، أو «الحب عمل فني مشترك»). وبما أن هذه الأشياء ترتبط، كما قد يدعون، بمعنى المتكلم، وليس بمعنى الجملة الموضوعي الحرفي، فإن مشاكل الصدق والمعنى التي تنجم عنها يجب أن تعالَج في إطار معنى المتكلم الذي سقناه سابقا.

وبإيجاز، فالطرح الوحيد المنطقي داخليا الذي يمكن أن يتبناه ذوو النزعة الموضوعية بصدد الاستعارة أن يقولوا إن المشاكل التي عُنينا بها في المقام الأول - وهي خصائص الاستعارات الوضعية والكيفية التي نستخدمها بها في الفهم - لا تدخل، ببساطة، في صلب تصورنا. وقد يؤكدون أنهم غير مسؤولين عن هذا النوع من القضايا، وأنه لا يمكن أن يكون للوقائع المتصلة بالاستعارة الوضعية أي وقع على البرنامج ذي النزعة الموضوعية، أو على ما يعتقدونه باعتبارهم ذوي نزعة موضوعية.

وقد يذهب ذوو النزعة الموضوعية هؤلاء إلى حد التسليم بأن استقصاءاتنا للاستعارة تبين، بحق، أن *الخصائص التفاعلية والجشطلتات التجريبية* تُعدّ ضرورية، فعلا، لتفسير كيفية فهم الكائنات البشرية لتجربتها عبر الاستعارة. إلا أنهم، وإن سلموا بهذا، فقد يظلون يتجاهلون ما قمنا به: قد يقولون، ببساطة، إن ذوي النزعة التجريبية لا ينشغلون إلا بكيفية توصل الكائنات البشرية إلى فهم الواقع، مع العلم أن إمكاناتها محدودة. أما ذوو النزعة الموضوعية فلا ينشغلون بكيفية فهم البشر لشيء ما باعتباره صادقا، ولكنهم ينشغلون بما يعنيه أن يكون الشيء *صادقا حقا*

إن جوابهم هذا يسلط الضوء، بصورة دقيقة، على الاختلاف الجوهري بين النزعة الموضوعية والنزعة التجريبية. فهذا الرد يختزل في التأكيد على انشغالهم الأساسي «بالصدق المطلق» و«المعنى الموضوعي»، في استقلال تام عن كل ما يمت بصلة إلى النشاط أو الفهم البشريين. وخلافا لهذا، بيّنا أنه لا يوجد سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنه يوجد صدق مطلق أو معنى موضوعي. وقد دافعنا، عوض ذلك، عن إمكان إعطاء تفسير للصدق والمعنى فقط في ارتباطهما بالكيفية التي «يشتغل» بها البشر في العالم ويفهمونه بها. إننا، ببساطة، نتواجد في كون فلسفي مختلف عن كون ذوي النزعة الموضوعية.

عدم ورود الفلسفة ذات النزعة الموضوعية في رصد انشغالات البشر

نتواجد في نفس الكون الفلسفي الذي يتواجد فيه ذوو النزعة الموضوعية حين يعتقدون أنه بالإمكان إقامة رصد موضوعي وكاف للفهم البشري ولنسقنا التصوري ولغتنا الطبيعية.

إلا أن لدينا خلافات حقيقية معهم. فقد دافعنا، بصورة مفصلة، عن انتشار الاستعارة الوضعية في اللغة البشرية وفي النسق التصوري البشري، وأن هذه الاستعارة أداة أولية في حصول الفهم. كما وضحنا أن أي رصد كاف للفهم يستلزم الخصائص التفاعلية والجشطلتات التجريبية. وبما أن كل التحاليل ذات النزعة الموضوعية تستلزم خصائص ملازمة، وبما أن أغلب هذه التحاليل تحتاج إلى رصد المقْولَة من خلال نظرية المجموعة، فإنها تخفق في إعطاء تفسير كاف لكيفية تصور الكائنات البشرية للعالم.

النماذج ذات النزعة الموضوعية خارج الفلسفة ذات النزعة الموضوعية

تشكل الرياضيات الكلاسيكية كونا ذا نزعة موضوعية. إن لها كيانات تنماز بوضوح عن بعضها، وهي الأرقام. فالكيانات الرياضية لها خصائص تلازمها: فالرقم ثلاثة، مثلا، رقم وتري. ولهذه الكيانات علاقات ثابتة في ما بينها: فالرقم تسعة، مثلا، هو الرقم التربيعي *لثلاثة*. وقد ظهرت الرياضيات المنطقية باعتبارها جزءا من مشروع توفير أسس للرياضيات الكلاسيكية. والدلالة الصورية (formal semantics) نشأت، بدورها، انطلاقا من هذا المشروع. وتعد النماذج المستعملة في الدلالة الصورية أمثلة لما نسميه «النماذج ذات النزعة الموضوعية»، وهي نماذج خاصة بأكوان الخطاب التي توجد فيها كيانات لها خصائص تلازمها، وعلاقات ثابتة بين هذه الكيانات.

إلا أن العالم الواقعي ليس كونا موضوعيا، وخصوصا ما يتعلق بمظاهر العالم الواقعي التي ترتبط بالكائنات البشرية: التجربة البشرية، والمؤسسات البشرية، والنسق التصوري البشري. وذو النزعة الموضوعية القح المتصلب هو الذي يزعم أنه يوجد نموذج ذو نزعة موضوعية يطابق العالم كما هو حقيقة. وقد دافعنا قبل قليل عن عدم صحة الفلسفة ذات النزعة الموضوعية أمبريقيا. فهي تقيم تنبؤات خاطئة بصدد اللغة والصدق والفهم والنسق التصوري البشري. وعلى هذا الأساس، قلنا إن الفلسفة ذات النزعة الموضوعية تعطينا أساسا غير كاف للعلوم الإنسانية. ومع ذلك، هناك عدد من المشتغلين المرموقين في الرياضيات وعدد من المناطقة واللسانيين وعلماء النفس وعلماء الحاسوبيات الذين صمموا نماذج ذات نزعة موضوعية يتم استعمالها في العلوم الإنسانية. فهل نحن الآن بصدد إثبات أن هذا العمل لا قيمة له، وأن النماذج ذات النزعة الموضوعية لا مكان لها البتة في العلوم الإنسانية؟

إننا لا نزعم ذلك. نعتقد أن النماذج ذات النزعة الموضوعية، باعتبارها كيانات رياضية، ليس عليها أن ترتبط بالفلسفة ذات النزعة الموضوعية. وقد نذهب إلى الاعتقاد بأن النماذج ذات النزعة الموضوعية لها وظيفة ما - وهي وظيفة مهمة - في العلوم الإنسانية، وذلك دون أن نتبنى المقدمة المنطقية ذات النزعة الموضوعية التي تقول بوجود نموذج ذي نزعة موضوعية يطابق كلية وبدقة العالَم كما هو حقيقة. ولكن، إذا رفضنا هذه المقدمة المنطقية، فما هو الدور الذي يتبقى للنماذج ذات النزعة الموضوعية؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، نحتاج إلى النظر في بعض خصائص الاستعارات الأنطولوجية والبنيوية:

- تعد الاستعارات الأنطولوجية من بين الوسائل الأكثر قاعدية التي تتوافر لنا من أجل فهم تجربتنا. ولكل استعارة بنيوية مجموعة متلائمة من الاستعارات الأنطولوجية تعتبر أجزاء فرعية فيها. واستعمال مجموعة من الاستعارات الأنطولوجية لفهم وضع معين هو بمثابة فرض بنية الكيان على هذا الوضع. فمثلا، تفرض استعارة الحب سفر على الحب بنية كيان تتضمن بداية واتجاها ومسارا ومسافة تمتد على المسار. وهكذا.

- كل استعارة بنيوية مفردة لها انسجام داخلي، وتفرض بنية منسجمة على التصور الذي تُبَنْيِنُه. مثلا، تفرض استعارة الجدال حرب بنية حرب منسجمةً داخليا على الجدال. وحين نقتصر على فهم الحب من خلال استعارة الحب سفر فإننا نفرض بذلك سفرا منسجما داخليا على تصور الحب.

- رغم أن الاستعارات المختلفة لنفس التصور قد لا تكون عموما متلائمة مع بعضها، فإنه قد توجد مجموعات من الاستعارات تتلاءم مع بعضها. ولنسمِّ هذه المجموعات *مجموعات استعارية متلائمة*.

- لأن كل استعارة مفردةٍ منسجمةٌ داخليا، فإن كل مجموعة متلائمة من الاستعارات تتيح لنا فهم وضع ما من خلال بنية كيان جد محدّدة تقيم علاقات متلائمة بين الكيانات [الموجودة في هذه المجموعة].

- إن الكيفية التي تفرض بها مجموعة متلائمة من الاستعارات بنيةَ كيان لها مجموعة من العلاقات بين الكيانات، قد نمثلها بواسطة نموذج ذي نزعة موضوعية. وفي هذا النموذج تكون العلاقات بين الكيانات مستخرجة من البنيات الداخلية للاستعارات البنيوية.

لنلخص ما سبق. إن محاولة بنينة وضع ما من خلال هذه المجموعة المتلائمة من الاستعارات لا تختلف، في جزء منها، عن محاولة بنينة هذا الوضع من خلال نموذج ذي نزعة موضوعية. وما يتم إغفاله هنا هو الأسس التجريبية للاستعارات، وما تخفيه هذه الاستعارات.

إن السؤال الطبيعي الذي ينبغي طرحه، إذن، هو: كيف يفكر الناس فعلا، وكيف يتصرفون من خلال المجموعات المتلائمة من الاستعارات؟ إن الحالة الخاصة التي يقومون فيها بذلك هي صياغة النظريات العلمية في البيولوجيا أو علم النفس أو اللسانيات. فالنظريات العلمية عبارة عن محاولة لتوسيع مجموعة من الاستعارات الأنطولوجية والبنيوية بصورة ملائمة. إلا أنه، بالإضافة إلى التنظير العلمي، نحس أن البشر يحاولون أن يفكروا ويتصرفوا من خلال مجموعات متلائمة من الاستعارات في أوضاع متنوعة كثيرة. وهذه حالات قد نعتبر فيها البشر ساعيا إلى تطبيق نماذج ذات نزعة موضوعية على تجربته.

هناك سبب وجيه يفسر سعي الناس إلى النظر إلى وضع معين في حياتهم من خلال نموذج ذي نزعة موضوعية، أي من خلال لمجموعة متلائمة من الاستعارات. السبب في

ذلك، ببساطة، أنه إذا قمنا بذلك انطلاقا من هذا النموذج، فإننا نتمكن من رسم استنتاجات لا تتعارض مع بعضها بصدد ذلك الوضع. وبهذا نستطيع أن نقدم تنبؤات واقتراحات سلوكية غير متعارضة. وإنه لمن المشجع، من المشجع جدا، أن تكون لنا نظرة منسجمة للعالم، أي أن تكون لنا مجموعة من التنبؤات الواضحة لا تعارُض بينها بصدد ما يمكن أن يقوم به البشر. فالنماذج ذات النزعة الموضوعية لها شيء واقعي يحتكم إليه، فهي تخص أشياء ترتبط بصورة وثيقة بما هو بشري.

لا نريد أن نقلل من أهمية ذلك. إنه الشيء نفسه الذي يحتكم إليه البشر عندما يجدون انسجاما في حياتهم، أو في صنف معين من تجارب الحياة. فالتوافر على أساس للتنبؤ والتصرف مهم للاستمرار في الحياة. إلا أن فرض نموذج واحد ذي نزعة موضوعية في أوضاع معينة والتصرف من خلاله (بنجاح أحيانا) شيء، واستخلاص أن النموذج يعكس بدقة الواقع شيء آخر. وهناك سبب معقول يجعل لنسقنا التصوري استعارات غير متلائمة بصدد تصور واحد، وهو أنه لا تكفي استعارة واحدة. فكل استعارة تتيح فهم مظهر معين من مظاهر التصور وتخفي المظاهر الأخرى. وإذا كان ذلك لا يتم إلا بواسطة مجموعة متلائمة من الاستعارات فقط، فمعنى ذلك أنه يتم إخفاء عدد كبير من مظاهر الواقع. ويبدو أن «الاشتغال» الناجح في حياتنا اليومية يتطلب تنقلا مستمرا بين الاستعارات واستعمال عدة استعارات لا تتلاءم مع بعضها يبدو طبيعيا بالنسبة لنا إذا كنا نريد فهم تفاصيل وجودنا اليومي.

وهناك فائدة واضحة من دراسة النماذج الصورية ذات النزعة الموضوعية، وهي أنها تسمح لنا بأن نفهم، *جزئيا*، قدرتنا على التفكير والتصرف من خلال مجموعة متلائمة من الاستعارات. وهذا نشاط شائع، ومن المهم فهمه. وهذه الدراسة تسمح لنا بأن نرى الخطأ في فرض اقتراح وجود التلاؤم - أي أن نرى أن مجموعة متلائمة من الاستعارات يُحتمل جدا أن تخفي عددا هائلا من مظاهر الواقع، وهي مظاهر لا يمكن تسليط الضوء عليها إلا بواسطة استعارات أخرى لا تتلاءم مع تلك المجموعة.

إلا أن هذه النماذج تشكو من قصور واضح. فهي لا تزودنا بوسائل رصد الأساس التجريبي لاستعارة ما. وبذلك، فهي لا تقترح طريقة نرصد بها الكيفية التي تتيح بها التصورات الاستعارية فهمَ تجربتنا. وهنا نصل إلى نتيجة طبيعية ترتبط بمشكل معرفة ما إذا كان بإمكان الحاسوب أن يفهم الأشياء بنفس الطريقة التي يفهمها بها البشر. والجواب عندنا هو: لا، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الفهم يتطلب التجربة، والحواسيب لا تملك أجسادا، وبهذا لا يمكن أن تكون لها تجارب بشرية.

ورغم هذا فإن البحث في النماذج الحاسوبية قد يقول لنا الشيء الكثير عن القدرات الفكرية البشرية، وخصوصا في المجالات التي يفكر فيها الإنسان و«يشتغل» في إطارها، جزئيا، من خلال النماذج ذات النزعة الموضوعية. وفضلا على ذلك، فالتقنيات الصورية الحالية في علم الحاسوب تَعِدُ بتوفير تمثيلات للمجموعات *غير المتلائمة* من الاستعارات.

ولربما توصلنا، بذلك، إلى معلومات تخص الكيفية التي يفكر بها البشر ويتصرفون من خلال تصورات استعارية منسجمة، ولكن غير متلائمة. ويبدو أن المقاربة الصورية تقف عند حدود مجال الأسس التجريبية لنسقنا التصوري.

ملخص

نخلص، بشكل عام، إلى أن البرنامج ذا النزعة الموضوعية لا يستطيع تقديم رصد مُرضٍ للفهم البشري وللقضايا التي تستلزمه. ومن بين هذه القضايا ما يلي:

- النسق التصوري البشري وطبيعة العقلية البشرية،
- التواصل واللغة البشريان،
- العلوم الإنسانية، وخصوصا علم النفس والأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع واللسانيات،
- القيم الجمالية والأخلاقية،
- الفهم العلمي عبر النسق التصوري البشري،
- كل ما كان أساسا رياضيا يتوقف عليه الفهم البشري.

وتبدو العناصر القاعدية في التفسير التجريبي للفهم - وهي الخصائص التفاعلية، والجشطلتات التجريبية، والتصورات الاستعارية - ضرورية في كل معالجة كافية لهذه القضايا البشرية.

28 ـ بعض مظاهر عدم كفاية أسطورة النزعة الذاتية

تُعدُّ النـزعةُ الذاتيـة المقابلَ المركزي للنـزعة الموضوعية، في التقليـد الغربي. وقد قـدمنا البرهان على أن أسطورة النـزعة الموضوعية غير ذات كفـاية في تفسير الفهم واللغة البشريين، والمؤسسات الاجتماعية والثقافية البشرية، وكل ما تعالجه العلوم الإنسانية. إلا أنه، إذا قبلنا بالثنائية التي تفرضها علينا ثقافتنا، فإنه لا يتبقى لنا سوى خيار النزعة الذاتية الجذرية التي تنكر إمكان قيام تفسير علمي للحقائق البشرية يتسم بصياغة «ما يشبه القوانين».

لقد سبق أن قلنا إن النزعة الذاتية ليست المقابل الـوحيد للنزعة الموضوعية. وقد قدمنا خيارا ثـالثا، وهـو أسطورة النـزعة التجـريبية التي يبـدو أنها تعطي للعلـوم الإنسانيـة أسسا فلسفيـة ومنهجيـة ذات كفايـة. وإذا كنـا قـد ميـزنـا هذا الخيـار من البرنـامج ذي النـزعـة الموضوعية، فإنه ينبغي تمييزه من النزعة الذاتية أيضا.

لننظر، بإيجاز، إلى بعض المواقف ذات النـزعة الذاتيـة وترتبط هذه المواقف بـالكيفية التي يفهم بها البشر تجربتهم ولغتهم. إن المصـدر الأسـاسي لهذه المواقـف هـو التقليـد *الرومانسي*، كما نجـدهـا في بعض التأويـلات المعـاصرة (وهي تأويـلات يُحتَمل أن تكـون خاطئـة) للفلسفة «القاريـة» (نسبة إلى القـارة القديمة أوربـا)، وخصوصا عنـد الظاهـراتية والوجودية. وهـذه التأويلات ذات النزعة الذاتية، في العمـوم، تبسيطات تستند إلى عناصر من الفلسفة «القارية» تعارض النزعة الذاتية يتم أخذها كما اتفق. وتنسى هذه التأويلات أن بعض تيـارات هذه الفلسفـة الأوربية تحاول جـادة توفير أسـاس للعلوم الإنسـانية. وهـذه المواقف ذات النزعـة الذاتيـة المذكورة أسفله يمكن أن نسميهـا، إذا ضممناهـا إلى بعضها، «ظاهراتية المقهى»:

– *المعنى خاص (private)*: المعنى يخص دائما ما هو دال وهام *بالنسبة* إلى الفرد. إن ما يعتبره الفـرد هاما، ومـا يعنيه ذلك *بالنسبة إليه*، مسألتان مـرتبطتان بـالحدس والخيال والإحساس والتجربة الذاتية. وما يعنيه شيء ما عند الفرد لا يمكن البتة أن يُفهَم بحذافيره من قِبل فرد آخر، وبالتالي فإنه لا يمكن نقله إليه.

– *التجربة شاملة فحسب*: لا توجد بنينـة طبيعية لتجربتنا. فكل بنينـة نفرضها أو يفرضها غيرنا على تجربتنا تكون مصطنعة كليةً.

- *ليس للمعاني* بنية *طبيعية*: يرتبط المعنى عند الفرد بأحاسيسه وتجاربه وحدوسه وقيمه الخاصة. وهذه كلها ينبغي اعتبارها كلاً لا يتوافر على بنية طبيعية داخلية. ونفس الشيء يقال، إذن، على المعاني.

- *السياق ليس مبنيا*: إن السياق الذي نحتاج إليه في فهم قول ما - وهو السياق الفيزيائي والثقافي والشخصي وبين الأشخاص - ليست له بنية طبيعية.

- *المعنى لا يمكن تمثيله بشكل طبيعي وكاف*: وهذه نتيجة لعدم توافر المعاني على بنية طبيعية، ولكونها لا يمكن أن تُعرَف كليةً، أو أن تُنقل إلى شخص آخر، ولكون السياق الذي نحتاج إليه في الفهم غير مبنيّ.

كل هذه المواقف ذات النزعة الذاتية تستند إلى فرضية جوهرية مفادها أن التجربة ليست لها بنية داخلية، وأنه لا توجَد، بالتالي، قيود طبيعية على المعنى وعلى الصدق. وجوابنا على هذا نستمده مباشرة من التفسير الذي قدمناه بصدد أساس نسقنا التصوري: إن تجربتنا مبنيّة، بشكل شامل، بواسطة جشطلتات تجريبية ذات بنية غير اعتباطية والأبعاد التي تخصص بنية هذه الجشطلتات تنبثق بشكل طبيعي من تجربتنا.

إننا لا ننكر أنه يمكن أن يرتكز المعنى الذي يفيده شيء ما عند فرد معين على أنماط من التجربة الخاصة به لا نجدها عند فرد آخر، وأنه ينتج عن ذلك أن الفرد لن يستطيع نقل هذا المعنى، بصورة تامة وكافية، إلى فرد آخر. إلا أنه، رغم ذلك، فالاستعارة تقدم وسيلة للنقل الجزئي لتجاربنا غير المشتركة. والبنية الطبيعية لتجربتنا هي التي تجعل ذلك ممكنا.

29 ـ خيار النزعة التجريبية: إعطاء معنى جديد للأساطير القديمة

تؤشر سيادة أسطورتي النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية لوقت طويل في الثقافة الغربية على أن لهما كلتيهما وظيفة مهمة. فكل أسطورة من الأسطورتين تحفزها انشغالات حقيقية ومعقولة، ولكل منهما أساسها داخل تجربتنا الثقافية.

ما تحافظ عليه النزعة التجريبية من انشغالات تبرر النزعة الموضوعية

يكمن الهم الأساسي لأسطورة النزعة الموضوعية في العالم الخارجي عند الفرد. وتلح هذه الأسطورة، بحق، على أنه توجد أشياء واقعية موجودة في استقلال عنا، تُقيِّد، في نفس الآن، تفاعلاتنا معها والطريقة التي «نمسكها» بها [أي نفهمها بها]. وإلحاح النزعة الموضوعية على الصدق والمعرفة الحقيقية يرتكز على أهمية هذه المعرفة في السلوك الكافي داخل المحيطين الفيزيائي والثقافي. وهذه الأسطورة يحفزها، أيضا، هَمُّ الدقة والتجرد في الحالات التي يكون فيها هذا الهم أساسيا، فنتمكن من التوصل إليه بطريقة معقولة.

وأسطورة النزعة التجريبية، كما أجملناها، تتقاسم مع الأسطورة السابقة كل هذه الانشغالات. وتختلف عنها في الإجابة عن السؤالين التاليين:

- هل يوجد صدق مطلق؟
- هل الصدق المطلق ضروري في الإجابة عن الانشغال المزدوج أعلاه، أي هل لنا معرفة تسمح لنا بأن نتصرف بنجاح ونعبر عن الدقة والتجرد؟

تجيب النزعة التجريبية على هذين السؤالين بالنفي. فالصدق دائما نسبي في ارتباطه بالفهم، الذي يتأسس، بدوره، على نسق تصوري غير كلي. إلا أن ذلك لا يحول دون إرضاء الانشغالات المشروعة للمعرفة والتجرد، والتي حفزت لمدة قرون أسطورة النزعة الموضوعية. والموضوعية ممكنة، إلا أنها تأخذ هنا معنى جديدا. إنها تتطلب أن نترفع دوما على ما هو فردي، سواء تعلق الأمر بمشاكل المعرفة أو القيم. إلا أنه عندما تكون الموضوعية معقولة فإنها لا تفرض وجهة نظر صحتُها مطلقة وكلية. إن الموضوعية دائما نسبية بالنظر إلى نسق تصوري معين، وإلى مجموعة من القيم الثقافية. وقد تكون الموضوعية المعقولة مستحيلة عندما يتعلق الأمر بنسقين تصوريين متعارضين أو قيم ثقافية متعارضة. ويجب أن نقبل بذلك ونتعرفه حين يرد.

وحسب أسطورة النزعة التجريبية، فالمعرفة العلمية ممكنة. إلا أن التخلي عن ادعاء الصدق المطلق قد يجعل الممارسة العلمية مسؤولة أكثر، لأننا سنعي، عموما، بأن أي نظرية علمية قد تخفي أكثر مما قد تبين، وسنفهم أن العلم لا يصل إلى الصدق المطلق. وهذا سيمس، بدون شك، سلطة المجموعة العلمية وهيبتها (وربما مس أيضا الإعانات الحكومية لها). ولكننا سنكوّن فكرة أكثر معقولية بخصوص المعرفة العلمية، وبخصوص حدودها.

ما تحافظ عليه النزعة التجريبية من انشغالات تبرر النزعة الذاتية

إن المحفز المشروع للنزعة الذاتية هو الوعي بأن المعنى دوما معنى *بالنسبة إلى* فرد ما وما هو دال بالنسبة لي يرتبط بما يمكن أن نكون له دلالة عندي. وما يمكن أن تكون له دلالة بالنسبة لي لن يقوم على معرفتي العقلية وحدها، بل على تجاربي السابقة وقيمي وأحاسيسي وحدوسي. إن المعنى شيء متغير، فهو مسألة تخص الخيال، وتخص بناء الانسجام. والطرح الموضوعي، بتركيزه على التوصل إلى وجهة نظر صحيحة كليا، أضاع ما هو أساسي وواعد ومنسجم بالنسبة للفرد.

وتتفق أسطورة النزعة التجريبية على أن الفهم يتطلب كل هذه العناصر. وتركيزها على التفاعل وعلى الخصائص التفاعلية يبين كيف يكون المعنى دائما معنىً *بالنسبة إلى* الفرد. كما أن تركيزها على بناء الانسجام عن طريق الجشطلتات التجريبية يفسر ما معنى أن يكون الشيء مهما لكي يكون دالا عند الفرد. وعلاوة على ذلك، فهذه الأسطورة ترصد الكيفية التي يستعمل بها الفهم موارد الخيال الأساسية باستعانته بالاستعارات، كما ترصد إمكان إعطاء تجربتنا معنى جديدا وخلق حقائق جديدة.

كما تبتعد النزعة التجريبية عن النزعة الذاتية إذ ترفض الفكرة الرومانسية القائلة إن الفهم الخيالي لا يعرف أي قيد.

لنلخص ما سبق تبدو لنا أسطورة النزعة التجريبية قادرة على الإجابة عن الانشغالات الحقيقية والمعقولة التي حفزت كلا من النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية، دون الرضوخ إلى هاجس الصدق المطلق الذي يخيم على النزعة الموضوعية، أو إلحاح النزعة الذاتية على أن الخيال غير مقيَّد إطلاقا.

30 . الفَهْم

نعتقد أن هناك تبريرا واحدا لقيام أسطورتي النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية: إنه الانشغال بالفهم. تعكس أسطورة النزعة الموضوعية حاجة البشر إلى فهم العالم *الخارجي* كي يتمكنوا من أن يفعلوا فيه بنجاح. أما أسطورة النزعة الذاتية فتركز على المظاهر *الداخلية* للفهم، أي ما يجده الفرد دالا، وما يجعل حياته تستحق أن تُعاش. أما أسطورة النزعة التجريبية فتقترح عدم تعارض هذين الانشغالين. إنها تقدم منظورا يلتقي فيه الانشغالان دون تعارض.

وتشترك الأسطورتان القديمتان (الموضوعية والذاتية) في المنظور التالي: الإنسان معزول عن محيطه. ففي أسطورة النزعة الموضوعية، ينشأ الانشغال بالصدق من الانشغال بالفعل الناجح. وعلى اعتبار أن الإنسان معزول عن محيطه، فإن الفعل الناجح يُتصور كما لو كان *سيادة على* المحيط. ومن هنا وجود الاستعارتين ذاتي النزعة الموضوعية: **المعرفة سلطة، والعلم يتيح التحكم في الطبيعة**.

إن المحور الأساس في أسطورة النزعة الذاتية هو محاولة التغلب على الارتهان الناتج عن نظرتها إلى الإنسان باعتباره معزولا عن محيطه وعن الناس الآخرين. وهذا يؤدي إلى الإفراط في الاعتداد بالنفس، والثقة الزائدة في الأحاسيس والحواس والقيم الشخصية. والصياغة الرومانسية تتحدث عن إيحاء الحواس والأحاسيس، ومحاولة الاتحاد مع الطبيعة عن طريق الإعجاب السلبي بها.

وتَعتبر أسطورة النزعة التجريبية الإنسانَ جزءا من محيطه، وليس معزولا عنه. فهي ترتكز على التفاعل المستمر مع المحيط الفيزيائي ومع الناس الآخرين. كما تعتبر أن هذا التفاعل مع المحيط ينتج تغيرات متبادلة [في المتفاعلين]. إنك لا يمكن أن «تنشط» داخل محيطك دون أن تغيره أو يغيرك.

في أسطورة النزعة التجريبية، ينبثق الفهم من التفاعل ومن التفاوض المستمر مع المحيط ومع الناس الآخرين. إنه ينبثق بالشكل التالي: تفرض طبيعة أجسادنا ومحيطنا الفيزيائي والثقافي بنية على تجربتنا، وذلك من خلال أبعاد طبيعية كتلك التي ناقشناها سالفا. وتؤدي التجربة المتكررة إلى صياغة مقولات، وتعتبر هذه الأخيرة جشطلتات تجريبية

لها تلك الأبعاد الطبيعية. ونفهم تجربتنا بصورة مباشرة حين نراها مبنيَة بشكل منسجم من خلال تلك الجشطلتات التي تنبثق مباشرة من تفاعلنا مع محيطنا وفي محيطنا. ونفهم التجربة استعاريا حين نستعمل جشطلتا من مجال تجربة معين لكي نبنين التجربة في مجال آخر.

إن الصدق، من منظور النزعة التجريبية، مرتبطٌ بالفهم الذي ينبثق من نشاطنا في العالم. ومن خلال هذا النوع من الفهم تلبي المقاربة ذات النزعة التجريبية حاجة النزعة الموضوعية إلى تفسير للصدق، ومن خلال البنينة المنسجمة للتجربة نلبي حاجة النزعة الذاتية إلى المعنى الفردي، أو دلالة الأشياء عند الفرد.

إلا أن النزعة التجريبية لا تتيح لنا التأليف بين الانشغالات المبّررة لكل من النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية فحسب، بل إن رصدها للفهم يزودنا بمنظور أغنى بصدد أهم ميادين التجربة في حياتنا اليومية:

- التواصل بين الأفراد والفهم المتبادل،
- وفهم الذات،
- والطقوس،
- والتجربة الجمالية،
- والسياسة.

إننا نحس أن نظرة النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية إلى هذه الميادين نظرة فقيرة، لأن كلا منهما تغفل الانشغالات التي تبرر الأخرى. إن ما تغفضان عنه الطرف كلتاهما، في كل هذه الميادين، هو الفهم المؤسس على التفاعل والفهم المبدع. ولنرجع الآن إلى الرصد التجريبي لطبيعة الفهم في كل ميدان من الميادين السابقة

التواصل بين الأفراد والفهم المتبادل

عندما لا يشترك الناس الذين يتحاورون نفس الثقافة ونفس المعرفة ونفس القيم ونفس المسلمات، فإن الفهم المتبادل يكون صعبا. إن هذا الفهم يكون ممكنا من خلال التفاوض بشأن المعنى. ولكي تتفاوض مع أحدهم بشأن المعنى عليك أن تعي الاختلافات في الخلفيات وتحترمها، وتعلم متى تكون تلك الاختلافات مهمة. وتحتاج إلى ما يكفي من التنوع الثقافي والتجربة الشخصية كي تعي بوجود رؤى مختلفة للعالم، وتعرف ما هي طبيعتها المحتملة. تحتاج، كذلك، إلى الصبر، وإلى نوع من المرونة في رؤيتك للعالم، ونفهُم للأخطاء، وموهبة في إيجاد الاستعارة المناسبة لكي توصِل الأجزاء الواردة في التجارب غير المشتركة، أو لتسلط الضوء على التجارب المشتركة فيها تقلل من أهمية تجارب أخرى. إن الخيال الاستعاري مهارةٌ حاسمة في خلق الصلة، وفي إيصال طبيعة التجربة غير المشتركة. وتكمن هذه المهارة، في جزء منها، في القدرة على توجيه نظرتك للعالم وتكييف الطريقة التي تُمَقْولُ بها تجربتك. إن مشاكل الفهم المتبادل ليست غريبة، إنها تَبرز في كل الحوارات الهادفة حيث يكون الفهم مهما.

في الحالات المهمة حقيقةً، لا يتم إيصال المعنى، بالمرة تقريبا، طبقا لاستعارة **المجرى**، التي ينقل بحسبها فرد ما اقتراحا ثابتا وواضحا إلى فرد آخر عن طريق تعابير اللغة العادية (المشتركة)، إذ تتوافر لكل من الطرفين كل المعلومات والمسلمات والقيم المشتركة، ... إلخ. وحين لا تسير الأمور بشكل جيد يتفاوض الطرفان بشأن المعنى. فتحدد شيئا فشيئا ما نشترك فيه مع الطرف الآخر، وما يمكن أن نتحدث عنه بدون لبس. وكيف نتمكن من التواصل بصدد التجربة غير المشتركة، ونسعى إلى خلق رؤية مشتركة وبقدر من المرونة، وبتوجيه رؤيتك الخاصة للعالم، وبقليل من الحظ والمهارة والتلطف قد تبلغ فهما متبادلا معينا.

وتنتقل النظريات التواصلية المرتكزة على استعارة **المجرى** مما هو علاج نفسي إلى ما هو ضار حين تُطبّق بدون ميز وعلى نطاق واسع، وذلك كما في التصنتات التلفونية أو في الملفات المحوسَبة. ففي مثل هذه الحالات لا يؤخذ ما يعد حاسما في الفهم الحقيقي بعين الاعتبار. هنا يسلَّم بأن للألفاظ في الملف، مثلا، معنى في ذاتها، وهو معنى موضوعي ومتجرد وقابل للفهم. وحين يحيا مجتمع معين باستعارة **المجرى** على نطاق واسع، فإن ذلك قد ينتج سوء الفهم، وربما الاضطهاد أو ما هو أسوأ من ذلك.

فهم الذات

تستلزم القدرة على فهم الذات القدرة على الفهم المتبادل. ويقول لنا الحس المشترك إن فهم ذواتنا أيسر من فهم الآخرين. وعلاوة على ذلك، فنحن ننزع إلى الاعتقاد بأننا ننفُذ مباشرة إلى أحاسيسنا وأفكارنا الخاصة، وليس إلى أحاسيس وأفكار الآخرين. ويبدو الفهم الذاتي سابقا على الفهم المتبادل، وهو كذلك بوجه من الوجوه. إلا أن أي فهم حقيقي عميق للأسباب التي تجعلنا نتصرف بالشكل الذي نتصرف به، ونحس ما نحسه، ونتغير بالشكل الذي نتغير به، وحتى أن نعتقد ما نعتقده، يقودنا إلى ما وراء ذواتنا. إن فهم ذواتنا ليس مختلفا كثيرا عن أشكال أخرى من الفهم. ففهم ذواتنا يأتي من تفاعلاتنا المستمرة مع محيطنا الفيزيائي والثقافي وتفاعلنا مع باقي البشر. وعلى الأقل، فالمهارات التي يتطلبها الفهم *المتبادل* ضرورية حتى في فهم *الذات*. فكما في الفهم المتبادل، إذ نبحث باستمرار عما هو مشترك في التجربة حين نتحدث مع أحدهم، نبحث دوما في الفهم الذاتي عما يوحد بين تجاربنا الخاصة المتنوعة قصد إعطاء انسجام لحياتنا. ومثلما نَجِدُ في البحث عن استعارات تسلط الضوء على ما نشترك فيه مع أحدهم ونمنحه انسجاما، نبحث عن استعارات شخصية تسلط الضوء على ماضينا الخاص وأنشطتنا الحالية وأحلامنا وآمالنا وأهدافنا، وتعطيها انسجاما. إن جزءا كبيرا من عملية فهمنا لذواتنا ما هي إلا بحث عن استعارات شخصية مناسبة تعطي معنى لحياتنا. والفهم الذاتي يتطلب تفاوضا وإعادة تفاوض مستمرين بشأن معنى تجاربنا في أعيننا. ففي العلاج النفسي، مثلا، يقتضي جزء

كبير من الفهم الذاتي المعرفة الواعية لاستعارات لا شعورية قبلية، ومعرفة كيف نحيا بها. إنه يتطلب بناء مستمرا لانسجامات جديدة في حياتنا، وهي انسجامات تسبغ معنى جديدا على تجارب قديمة. فسيرورة الفهم الذاتي عبارة عن تطوير مستمر لقصص جديدة للحياة بالنسبة لأنفسنا

وتستلزم المقاربة التجريبية لسيرورة الفهم الذاتي ما يلي:

- أن نعي الاستعارات التي نحيا بها، وأن نعي متى تدخل في حياتنا اليومية، ومتى لا تدخل فيها.
- أن تكون لنا تجارب بإمكانها أن تشكل أساسا لاستعارات بديلة.
- أن يكون لنا نوع من «المرونة التجريبية».
- أن ننخرط في سيرورة لا منتهية بالنظر إلى حياتنا من خلال استعارات بديلة جديدة.

الطقوس

إننا لا نكف عن إنجاز الطقوس، بدءا بالطقوس السببية، كأن نصنع قهوة الصباح بنفس الخطوات المعتادة كل يوم، أو نشاهد أخبار الساعة الحادية عشرة إلى نهايتها (بعد أن نكون شاهدناها في الساعة الثامنة)، وانتهاء بالذهاب إلى مباريات كرة القدم، أو القيام بالاحتفالات الدينية، أو حضور محاضرات في الجامعة يلقيها زائرون مرموقون، . . . إلخ، بما في ذلك أشد الممارسات الدينية المملاة تقديسا. فكل هذه الأشياء عبارة عن ممارسات مبنيَة نكررها باستمرار، بعضُها مُعَدٌّ بشكل شعوري حتى في تفاصيله، وبعضها ننجزه بشكل أكثر شعورية، وبعضها يطرأ بشكل تلقائي. إن كل طقس عبارة عن مظهر من تجربتنا موحَّدٍ ومبنيٍ بشكل منسجم وتكراري. وفي إنجاز هذه الطقوس نعطي لأنشطتنا بنية ودلالة، ونقلص بذلك من التشويش والتباين في أعمالنا. وبلغتنا، فالطقس نوع من الجشطلت التجريبي. إنه متوالية منسجمة من الأعمال المبنيَة من خلال الأبعاد الطبيعية في تجربتنا. والطقوس الدينية، نموذجيا، أنواع استعارية من الأنشطة، فهي تتطلب دائما كيانات. فأشياء العالم الواقعي تصبح كيانات في العالم كما يحددها النسق التصوري الديني. والبنية المنسجمة للطقس يُنظر إليها عادة باعتبارها توازي مظهرا معينا من الواقع كما يقدمه الدين.

والطقوس الشخصية اليومية أيضا عبارة عن جشطلتات تجريبية. وتتكون من متواليات من الأعمال مبنيَة بحسب الأبعاد الطبيعية في التجربة، مثل بنية الكل/الجزء، والأطوار، والعلاقات السببية، ووسائل تحقيق الأهداف. وبهذا تُعتبر الطقوس الشخصية أنواعا طبيعية من الأنشطة بالنسبة للأفراد أو بالنسبة لأعضاء ثقافة فرعَية معينة. وقد تكون هذه الطقوس أنواعا استعارية، وقد لا تكون كذلك. فمثلا، من المعروف في لوس أنجلس أن ينخرط الناس في نشاط طقسي يتمثل في المرور على متن سياراتهم أمام بيوت نجوم هوليود. وهذا

النوع من الأنشطة استعاري إذ يرتكز على كناية البيت للشخص وعلى استعارة القرب الفيزيائي قرب شخصي. وتزودنا طقوس يومية أخرى، سواء أكانت استعارية أم غير استعارية، بجشطلتات تجريبية يمكن أن تكون أساسا لاستعارات، وذلك كما في: «لا أعرف لماذا تفتح الباب هكذا على مصراعيه»، أو في «النشمر على سواعدنا ولنبدأ في العمل»، . . . إلخ.

[وانطلاقا من ذلك] نقترح ما يلي:

- أن الاستعارات التي نحيا بها، سواء كانت ثقافية أو شخصية، يُحتَفَظ بها جزئيا في الطقوس
- أن الاستعارات الثقافية والقيم التي تستلزمها تتكاثر بواسطة الطقوس.
- تشكل الطقوس جزءا لا غنى عنه في الأساس التجريبي لأنسقتنا الاستعارية الثقافية. إنه لا توجد ثقافة بدون طقوس.

وبصورة مشابهة، لا يمكن أن توجد رؤية منسجمة للذات بدون طقوس شخصية (تظهر نموذجيا بصورة عفوية). وما دامت استعاراتنا الشخصية غير عشوائية، بل تشكل أنسقة تنسجم مع شخصياتنا، فإن طقوسنا الشخصية، بدورها، ليست عشوائية، وإنما هي طقوس تنسجم مع رؤيتنا للعالم ولذواتنا، ومع نسق استعاراتنا وكناياتنا الشخصية. إن تصوراتنا الضمنية واللاشعورية (نموذجيا) لذواتنا وللقيم التي نحيا بها لربما تنعكس بشكل أقوى في الأشياء الصغيرة التي نقوم بها باستمرار، أي في الطقوس الصدفوية التي تظهر بشكل تلقائي في حياتنا اليومية.

التجربة الجمالية

الاستعارة، من وجهة النظر التجريبية، مسألة ترتبط *بالعقلانية الخيالية*. إنها تتيح فهم نوع من التجربة من خلال نوع آخر، وتبدع انسجامات بموجب جشطلتات تُبنيِنها الأبعاد الطبيعية في التجربة. وبإمكان الاستعارات الجديدة أن تبدع فهما جديدا، وبالتالي حقائق جديدة. وهذا الأمر يتضح في الاستعارات الشعرية حيث تعد اللغة وسيطا في إبداع استعارات تصورية جديدة.

إلا أن الاستعارة ليست مسألة لغوية فحسب، إنها ترتبط بالبنية التصورية. والبنية التصورية لا ترتبط بالفكر فحسب، بل إنها تتضمن كل الأبعاد الطبيعية في تجربتنا، بما في ذلك المظاهر الحسية في تجاربنا، مثل اللون والهيئة والجوهر والصوت، . . . إلخ. وهذه الأبعاد لا تبنين تجربتنا المحسوسة فحسب، بل تبنين تجربتنا الجمالية أيضا. إن كل نوع من الفن ينتقي بعضَ أبعاد تجربتنا ويلغي البعض الآخَر. والأعمال الفنية تتيح طرقا جديدة لبنينة تجربتنا من خلال هذه الأبعاد الطبيعية. فهذه الأعمال تزودنا بجشطلتات تجريبية جديدة، وبذلك فهي تزودنا بانسجامات جديدة. والفن، من وجهة نظر تجريبية، مسألة عقلانية خيالية عموما، ووسيلة لإبداع حقائق جديدة.

وبهذا، فالتجربة الجمالية لا تقتصر على عالم الفن «الرسمي». فبإمكانها أن تظهر في كل مظهر من مظاهر تجربتنا اليومية كلما أدركنا شيئا أو أبدعنا لأنفسنا انسجامات جديدة لا تنتمي إلى عاداتنا الإدراكية أو إلى فكرنا.

السياسة

ينشغل النقاش السياسي عادة بمشاكل الحرية والمشاكل الاقتصادية. إلا أنه قد نكون، في نفس الوقت، أحرارا وآمنين اقتصاديا، ونعيش مع ذلك وجودا فارغا ولا دلالة له على الإطلاق. ونعتقد أن تصورات استعارية من قبيل **الحرية**، و**المساواة**، و**الأمان**، و**الاستقلال الاقتصادي**، و**السلطة**، إلخ، تعد طرقا مختلفة للوصول **بصورة غير مباشرة** إلى وجود دال وذي معنى. وهذه الطرق كلها ضرورية في نقاش كاف حول المشاكل السابقة. إلا أنه، حسب علمنا، لا نجد إيديولوجيا سياسية تواجه هذه المسألة الجوهرية وجها لوجه. وبالفعل، فإن عددا من الإيديولوجيات تقول إن المسائل المرتبطة بالتوافر على معنى عند الأشخاص والثقافات مسألة ثانوية، أو تقول إنه يجب إرجاؤها إلى حين. إن أي إيديولوجيا من هذا النوع عبارة عن إيديولوجيا غير إنسانية.

لقد صيغت الإيديولوجيات السياسية والاقتصادية بطرق استعارية. والاستعارات السياسية والاقتصادية، شأنها شأن كل الاستعارات الأخرى، قد تخفي بعض مظاهر الواقع. إلا أن للاستعارات، في مجال السياسة والاقتصاد، أهمية قصوى، فقد تقيد حياتنا. فالاستعارة في النسق السياسي أو الاقتصادي قد تؤدي، بموجب ما تخفيه، إلى الحط من قيمة البشر.

لننظر فقط إلى هذا المثال: **الشغل مورد**. تعالج أغلب النظريات الاقتصادية العالمية، سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، **الشغل** باعتباره موردا طبيعيا، أو باعتباره سلعة، شأنه في ذلك شأن المواد الأولية. كما تتحدث عنه باعتباره يخضع لقانون العرض والطلب. إن هذه الاستعارة تخفي طبيعة **الشغل**، فهي لا تقيم أي فرق بين الشغل الدال [عند البشر] والشغل غير الإنساني. فبالنسبة لكل الإحصاءات حول الشغل، لا يخص أيُّ إحصاء الشغلَ الدال. وحين نقبل باستعارة **الشغل مورد**، ونسلم بأن ثمن الموارد يجب ألا يرتفع، فإن الشغل الرخيص يصبح شيئا جيدا، شأنه شأن النفط الرخيص، مثلا. واستغلال الكائنات البشرية عبر هذه الاستعارة واضح في البلدان التي تتفاخر «بالعرض الذي لا ينضب أبدا من اليد العاملة الرخيصة». فهذا الإثبات الاقتصادي الذي يبدو محايدا يخفي حقيقة الحط من قيمة البشر. والحقيقة أن كل البلدان المصنعة، سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، تستعمل هذه الاستعارة في نظرياتها الاقتصادية وفي سياساتها. والقبول الأعمى بهذه الاستعارة قد يخفي حقائق تحط من قيمة الإنسان، مثل حقيقة عدم إعطاء معنى للشغل الذي يقوم به العمال أو الموظفون في المجتمعات «المتقدمة»، أو حقيقة العبودية التي توجد، بالفعل، في العالم بأسره.

تــذيــل

أتاح لنا الاشتراك في هـذا الكتاب فرصة تحري أفكارنـا، ليس فقط في ما بيننا، ولكن مع مئات من الناس أيضا، طلبة وزملاء وأصـدقاء وآباء ومعارف، وحتى مع من لا نعرفهم والتقينا بهم صدفة بجوارنا في مقهى من المقاهي. وبعد تحليلنا لمستتبعات أطروحاتنا في مجالي الفلسفة واللسانيات، فإن مـا يظل عالقا بأذهاننا هو هذه الاستعـارات نفسها، والمعلومات التي حملتهـا إلينـا بصدد تجاربنـا اليـومية الخاصة. إننـا مـا زلنـا نقف مشدوهين أمـام مـا لاحظناه، إذ إن مـا يجعلنا نحيا، نحن والناس الآخرين، استعاراتٌ من قبيل: **الزمن مال**، و**الحب سفر**، و**المشاكل ألغاز**. كما أننـا لا نكف عن التفكير في وجــوب الانتبـاه إلى أن الطريقة التي حمِلنا على إدراك العـالم بواسطتها ليست الطريقة الوحيدة الممكنـة. إنه بإمكاننا أن ننظر في أسباب «ما هو صادق» في ثقافتنا.

ولكن الاستعـارات ليست فقط أشيـاء يُنظـر في أسبابها. إننـا لا نستطيع تجاوزهـا إلا باستعمال استعـارات أخرى. ويبدو أن القدرة على فهم التجـربة من خلال الاستعـارة عبارة عن حاسة (sense)[1]، شأنها في ذلك شأن البصر أو اللمس أو السمع. وهذا يعني أننا لا ندرك العالم ونمارس تجربته إلا عبر الاستعارات. فـالاستعارات تلعب دورا يناظر، من حيث أهميته، اللمس مثلا، فهي مثله لها قيمة ثمينة.

1) يجب أن نلاحظ أن "sense" تعني الحاسة، كما تعني أن يكون للشيء معنى. واشتغال الحواس عبارة عن إسناد معنى لما نمارس تجربته. وهذا بالضبط ما تقوم به الاستعارة. (هـ. م)

لائحة المراجع

Bolinger, Dwight: *1977 Meaning and Form*. London: Longman's.

Borkin, Ann. In press. *Problems in Form and Function:* Norwood, N.J.: Ablex.

Cooper William E., and Ross, John Robert. 1975 "World Order. In Robin E. Grossman, L. James San, and Timothy J. Vance, eds., *Functionalism*. Chicago: Chicago Linguistic Society (University of Chicago, Goodspeed Hall, 1050 East 59th Street).

Davidson, Donald. 1978. "What Metaphors Mean". *Critical Inquiry* 5:31 - 47.

Frege, Gottlob. 1966. "On Sense and Reference" In P. Geach and M. Black, eds., *Translation from the Philosophical Writings of Gottlob Frege*. Oxford: Blackwell.

Grice, H. P. 1957. "Meaning" *Philosophical Review* 66:377-88.

Lakoff, George. 1972. "Linguistics and Natural Logic". Pp. 545 - 665 in Donald Davidson and Gilbert Harman eds., *Semantics of Natural Language*. Dordrecht: D. Reidel.

– 1975. "Hedges: A Study in Meaning Criteria and the Logic of Fuzzy Concepts". Pp. 221 - 71 in Donald Hockney et al., eds., *Contemporary Research in Philosophical Logic and Linguistic Semantics* Dordrecht: D. Reidel.

– 1977. "Linguistic Gestalts" In *Proceedings of the Thirteenth Annual Meeting of the Chicago Linguistic Society*. Chicago: Chicago Linguistic Society.

Lewis, David. 1972. "General Semantics". Pp. 169-218 in Donald Davidson and Gilbert Harman. eds., *Semantics of Natural Language*..

Lovins, Amory B. 1977. *Soft Energy Paths*. Cambridge: Ballinger.

Montague, Richard. 1974. *Formal Philosophy*. Edited by Richmond Thomason. New Haven: Yale University Press.

Nagy, William. 1974. "Figurative Patterns and Redundancy in the Lexicon. "Ph. D dissertation, University of California at San Diego.

Reddy, Michael. 1979. "The Conduit Metaphor". In A. Ortony, ed., *Metaphor and Thought*. Cambridge, Eng.: At the University Press.

Rosch, Eleanor, 1977, "Human Categorization". In N. Warren, ed., *Advances in Cross-Cultural Psychology*, vol. 1. New York: Academic Press.

A

absolue	مطلق
abstraction	تجريد
abstract	مجرد
- concept	تصور -
accidental	عرضي
accompaniement	مصاحبة
action	عمل
activity	نشاط
adequacy	كفاية
adjective	صفة
agency	منفذية
agent	منفذ
applicability	إمكان تطبيق
arbitrary	اعتباطي
association	ترابط
assumption	زعم
attitude	موقف

B

basis	أساس
- cultural	ـ ثقافي
- experiental	ـ تجريبي
- social	ـ اجتماعي
- physical	ـ مادي (فيزيائي)

C

case	حالة
categorization	مقوَلَة
category	مقُولة
causation	سببية
Characterization	تخصيص
clarity	وضوح
coherence	انسجام
complex -	ـ معقد
cultural -	ـ ثقافي
metaphorical -	ـ استعاري

collective	جماعي
communication	تواصل
compositional	تأليفي
concept	تصور (بمعنى الشيء)
emergent -	ـ منبثق
metonymic -	ـ كنائي
metaphorical -	ـ استعاري
metaphorically structured -	ـ مبنينٌ استعاريا
specialized-	ـ متخصص
spatial-	ـ فضائي
conception	تصور (بمعنى الحدث)
condition	شرط
necessary-	ـ ضروري
sufficient-	ـ كافٍ
truth-s	شروط صدق
content	محتوى
context	سياق
conventional	وضعي
- metaphor	استعارة وضعية
cooccurence	تساوق
experiential -	ـ تجريبي
core	نواة
prototypical-	ـ طرازية
correlation	تعالق
correspondence	توافق
cross-metaphorical -	ـ عبر استعاري
counterexample	مثال مضاد

D

definition	حد
description	وصف
dichotomy	ثنائية
dictionary	قاموس
dimension	بعد
experiential -	ـ تجريبي
natural -	ـ طبيعي
directness	مباشرة
discourse	خطاب

E

entailment	اقتضاء
metaphorical -	ـ استعاري
entity	كيان
abstract -	ـ مجرد
physical -	ـ مادي
event	حدث
evidence	برهان
linguistic -	ـ لغوي
experience	تجربة
cultural -	ـ ثقافية
emotional -	ـ عاطفية
perceptual -	ـ إدراكية
spatial -	ـ فضائية
experientialism	نزعة تجريبية
experiential	تجريبي
explicit	صريح
extension	توسع
metaphorical -	ـ استعاري

F

false	كاذب
falsity	كذب
feature	سمة
structural -	ـ بنيوية
semantic -	ـ دلالية
figurative	مجازي
function	وظيفة

G

gestalt	جشطلت
experiential -	ـ تجريبي
multidimensional -	ـ متعدد أبعاد
structured -	ـ مُبَنْيَن
goal	هدف
grammar	نحو

H

hiding	إخفاء
highlighting	تسليط الضوء
homonymy	اشتراك لفظي
strong -	ـ قوي
weak -	ـ ضعيف
hypothesis	فرضية (أو افتراض)
hypothetical	مفترض

I

idea	فكرة
idealized	مُؤمثَل
identification	تعيين
idiom	مسكوك (أو عبارة مسكوكة)
idiosyncratic	فُرادي
implicit	ضمني
inadequacy	عدم كفاية
indexicals	قرائن
inference	استنتاج
inherent	ملازم
instrument	أداة
instrumentality	أداتية
interaction	تفاعل
interpretation	تأويل
intonation	تنغيم
falling -	ـ مستفل
rising -	ـ صاعد
intuition	حدس

K

kind	نوع
natural -	ـ طبيعي

L

language	لغة
ordinary -	ـ عادية
natural -	ـ طبيعية

law-like	مايشبه القانون
lexicon	معجم
litteral	حرفي

M

manipulation	علاج
meaning	معنى
objective -	ـ موضوعي
meaningful	دال
mechanism	آلية
metaphor	استعارة
complex -	ـ معقدة
conventional -	ـ وضعية
emergent -	ـ منبثقة
mixed -	ـ مختلطة
nonconventional -	ـ غير وضعية
ontological -	ـ أنطولوجية
orientational -	ـ اتجاهية
spatialization -	ـ تفضية
structural -	ـ بنيوية
metonymy	كناية
symbolic -	ـ رمزية
model	نموذج
metaphorical -	ـ استعاري
myth	أسطورة
- of objectivism	ـ النزعة الموضوعية
- of subjectivism	ـ النزعة الذاتية

N

neorationalism	العقلانية الجديدة
network	شبكة
nonmetaphorical	غير استعاري
nonprototypical	غير طرازي
noun	اسم

O

objective	موضوعي
objectivisme	نزعة موضوعية

objectivist	ذو نزعة موضوعية
obviousness	بدهية

P

paraphrase	جملة شارحة
path	مسار
patient	ضحية
perception	إدراك
sensory -	ـ حسي
perceptual	إدراكي
personification	تشخيص
phenomenon	ظاهرة
phrase	مركب
poetic	شعري
polar opposition	تعارض قطبي
pragmatic (s)	ذريعي (ذريعيات)
predicate	محمول
primitive	أولي (أو بدائي)
semantic -	ـ دلالي
principle	مبدأ
process	سيرورة
projection	إسقاط
property	خاصية
functional -	ـ وظيفية
inherent -	ـ ملازمة
interactional -	ـ تفاعلية
motor-activity -	ـ حسية حركية
perceptual -	ـ إدراكية
purposive -	ـ غرضية
prototype	طراز
prototypical	طرازي
- core	ـ نواة طرازية
- member	ـ عضو
- speaker	ـ متكلم
- understanding	ـ فهم

R

rationalism	عقلانية
realism	واقعية
reality	واقع
recategorization	إعادة مقولَة
reduplication	تكرار
reference	إحالة
regularity	اطراد
relative	نسبي
relativity	نسبية
ontological -	ـ أنطولوجية
relevance	ورود
relevant	وارد
- property	ـ خاصية واردة
representation	تمثيل
representative	تمثيلي
rhetorical	بلاغي

S

segment	قطعة
semantic (s)	دلالي (دلالة)
formal -s	دلالة صورية
sentence	جملة
performative -	ـ إنجازية
significant	دال
similarity	مشابهَة
structural -	ـ بنيوية
experiential -	ـ تجريبية
situation	وضع
space	فضاء
spatialization	تفضية
spatial	فضائي
state	حالة
statement	إثبات
structure	بنية
conceptual -	ـ تصورية
multidimensional -	ـ متعددة أبعاد
metaphorical -	ـ استعارية

structuration	بنينة
subcategorization	مقولة
subconcept	تصور فرعي
subculture	ثقافة فرعية
subjective	ذاتي
subjectivism	نزعة ذاتية
subjectivist	ذو نزعة ذاتية
synecdoche	مجاز مرسل
syntax	تركيب
syntactic	تركيبي
system	نسق
conceptual -	ـ تصوري
metaphorical -	ـ استعاري
systematic	نسقي
systematicity	نسقية
internal -	ـ داخلية
external -	ـ خارجية

T

theory	نظرية
experintial -	ـ تجريبية
correspondence -	ـ توافقية
thought	فكر
time	زمن
transcultural	عبر ثقافي
true	صادق
truth	صدق
absolute -	ـ مطلق
objective -	ـ موضوعي
unconditional -	ـ غير مشروط
type	نمط
typical	نمطي
typology	نمطية

U

understanding	فهم
universal	كلي
- grammar	نحو ـ

universe	كون
- of discourse	ـ الخطاب
unsystematic	غير نسقي
use	استعمال

W

westernization	تغريب
wh-question	استفهام ميمي
word	لفظ (أو كلمة)
word discourse	عالم الخطاب

المحتوى